يوسف الغزو

عابر سبيل

رواية



عابر سبيل

رواية

عابر سبيل

رواية

يوسف الغزو

٢٠١٢م/ ١٤٣٣ هـ

٨١٣,٩

الغزو، يوسف حسين

عابر سبيل/ يوسف حسين الغزو ــ عمان : المؤلف ، ٢٠١٢.

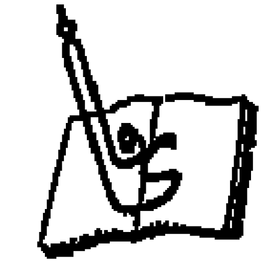
(   ) ص

ر.إ : ٧٤٢/ ٢/ ٢٠١٢

الواصفات : / القصص العربية/ / العصر الحديث/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

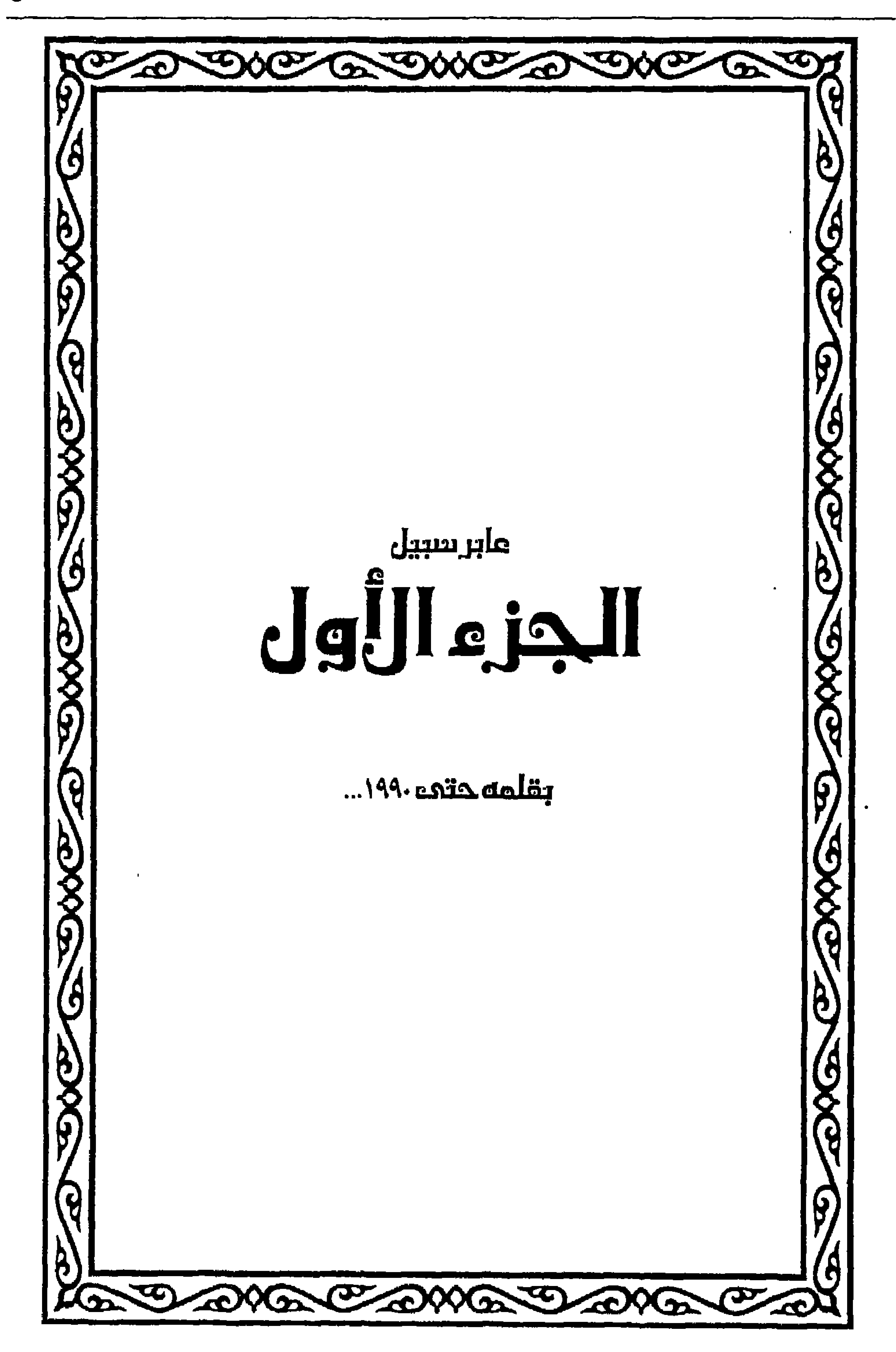
الطبعة الأولى ، ٢٠١٢



دار يـــافـــا العلمية للنشر والتوزيع

الأردن – عمان – تلفاكس ٤٧٧٨٧٧٠ ٦ ٠٠٩٦٢

E-mail: dar_yafa @yahoo.com



عابر سبيل

الجزء الأول

بقلمه حتى ١٩٩٠...

-١-

كـأنني داخـل سـتوديو لتـصوير عمـل تلفزيـوني، وأكـاد أرى المخـرج وهـو يقـول باللغـة الإنجليزية:

Camera stand by: five, four, Three, Tow, One, and Camera is running.

وتدور الكاميرا، وتلتقط لحظة الوعي الأولى. قد تقولون بأنني "حـافظ اكـم كلمـة انجليـزي وشايف حالي بها، واني طول عمري بالاستوديوهات وضليع بالكاميرات". لكن صـدقوني، وانـا مستعد أن احلف صادقاً بأنني لم أجد تشبيهاً اقرب الي انبثاق تلك اللحظة مما قلت. تلـك اللحظـة لا أدري كيف جاءت. انبثقت من العدم كما ينبثق الماء من الصخر، ولمعـت في الوجـود كـما يلتمـع البرق من تلافيف العتمة. لحظة لم أكن قبلها شيئا. عينان تتفتحان بعد أغماض أزلي، احساس لذيـذ اجتاحني فنظرت، ونغم كوني احاطني فسمعت، ويقظة شاملة عبرتني فوعيت. وسـبيل غـامض مجهول فعبرت. خرجت من رحم الوجود كـما يخـرج "الكتكـوت" مـن البيـضة، والفراشـة مـن الشرنقة. خرجت لا بدأ رحلة الحياة دون أن أعرف من أين، ولا لماذا أتيت، ولكنني أدركت للدنيا طريقا فمشيت، وسافرت عبر الزمان والمكان متشبثاً بواجب الوجود، كما هو "حي بن يقظـان" في ملحمة ابن طفيل ألا انني لم أكن في جزيرة نائية، ولم ترضعني ظبية ولم أكن وحيدا. فأين كنت؟!!

كنت في "الطبقة" –كما علمت فيما بعد -: سفح منبسط لأحد التلال المطلة على غـور الأردن، نبتت فيه بضبعة "خرابيش"منسوجة من شعر الماعز، تماهت مـع الـشجيرات المنتـشرة دون نظـام حولها ممتدة شرقاً حتى قمة التل، هذه القمة الخاشـعة في حـضن شـاهق ينحنـي عليهـا كالحـارس الأمين، تلتمع صخوره الرمادية تحت اشعة الشمس وهي في طريقها من الشروق إلى الغروب. يأتي ضياؤها أولاً مبشراً بقدومها، ثم تتجلى في كبد السماء كملكة واهبـة اشـعتها الذهبيـة للـدنيا دون حساب، لتغمر "الخرابيش" شبه الخالية الامن الاطفال، وتعبر بهدؤ لتعانق محتوياتها البسيطة:

كومة من الفراش فوق دكة خشبية تشكل فاصلاً بين "حجرتي النوم والضيوف". في كل منها حصيرة تآكلت أطرافها، لا شيء في حجرة النوم نهارا ألا الحصيرة التي تلقى فوقها الحشايا لتنام أمي وأختاي. أما حجرة الضيوف فأنا، أستطيع أن اصفها تماما لأنها مقر قيادة أبي ونومنا مع أخي الاكبر. فيها منقل دائري تصطف فوقه ثلاث من دلال القهوة، وغير بعيد يتشكل موقد تحيط به عدد من الحجارة السوداء، وتنتشر في محيطه عدد من الاواني النحاسية والفخارية الكالحة اللون. وثمة ابريق شاي تحول مقبظه إلى سلك نحاسي يكفي لحمله وتحريكه فوق جمرات الموقد. وهناك "قفور عجوة" يربض قريباً من أحد أعمدة البيت. ولم تكن هذه "العجوة" كحلوى بعد الطعام بل كانت هي مع "سحلية لبن" هي الطعام نفسه. وفي حجرة الضيوف كذلك لا تكاد الحشايا تفارق الحصيرة المفروشة على تخوم المتقلب المنقل بالجمر والدلال، فهي مجلس أبي وضيوفه من جيران "الطبقه" حيث يتمتع المجلس بالأكتفاء الذاتي من البن البهار والحطب وادوات تحضير القهوة: "المحماسة" و"المهباش" والفنجان الابيض المزين برسمات لنبات القهوة. وغير بعيد تقف فرس والدي الحمراء غالباً قريباً من مربطها والي جوارها عدة الركوب المكونة من المعرقة والخرج الصوفي المطرز بالوان زاهية.

بيتنا "الخربوش" كما التقطته لحظات الوعي الأولى مفتوح إلى جهة الشرق والسفح تمتد امامه صعداً حتى ذروة التل. شجيرات الشيح والرتم والغوصلان تزرع الخضرة الدائمة فيه، وغير بعيد تتراءى اشجار الدفلي والطيون الشديدة الخضرة والتي لا تجاور ألا الماء وتدل على وجوده. فوجوده يعني أن هناك ماء أو نبعاً يجري، وحتى لوجف النبع فأن هذه الشجيرات تحافظ على خضرتها حتى موسم الشتاء القادم، وكأنها تختزن جذورها فائضاً من الماء يكفيها لاشهر طويلة. وفي جهة الشرق أيضاً ثمة مرابط أخرى لبقرة حلوب، وحمار أو حمارة وربما نعجة أو خروف. ومرابط هذه الانعام جميعا بعيدة نسبياً عن مربط الفرس التي تنفرد فيه وحدها عزيزة مميزة، تقف صامته ألا من حركات ذيلها الطويل تذب به حشرة، أو من وقع حوافرها على الأرض طلبا للعلف المكون غالبا من الشعير. أما من جهة الغرب فإن السهل يتكىء على بقايا جبال صخرية تآكلت مع الزمن، وبدت كأنها قد قدت من الجبل الشرقي، ثم انزاحت لتفسح في وسطها تماماً لطريق يهبط إلى مناطق الاغوار. أما من الجنوب فوادٍ سحيق لا يكاد يهبط إليه أحد ألا من خلال

طريق التفافي يمر عبر قرية صغيرة اسمها "سليخات". أما المعبر الشمالي فهو الأكثر قرباً مني، والأكثر تأثيرا واثراً في نفسي. ثمة طريق شاحب يبدأ من السهل المزروع بالخرابيش ويمر عبر وديان وتلال، يهبط ويرتفع حتى يطل على واحة خضراء تتشكل من شجرة تاريخية واحدة هائلة الامتداد والاتساع، لا تزال حتى يومنا هذا تحتها عين ماء غزير يرتوي منه المجاورون وتشرب الاغنام، وقبل العبور إلى افياء الشجرة الكبيرة يطل عليك ضريح لرجل مبارك يقال له " الشيخ محمد".كم كنت أهاب المرور إلى جواره فاسرع في خطاي حتى أعبر إلى الظلال الممتدة هنا هناك، كأنها المكان غابة لا حدود لا تساعها.

كان والدي هو الأكثر قربا مني بين افراد الاسرة الصغيرة المكونة مني ومن أختيّ الكبرى والصغرى. والدي هو الوحيد الذي ميزت وجهه الاسمر الصارم المتعب منذ لحظات الوعي الأولى. كانت أختي الوسطى هي الاقرب إلى من بين افراد الاسرة إلى الحد الذي أستطيع فيه أن اقول انني لا أعرف غيرها. أمي كانت حيزاً يتحرك امامي، شعرت أنها معادل موضوعي لهذا التجمع الاسري، هناك أب فلا بد أن تكون هناك أم. وهكذا كان الأمر في البيوت المجاورة. أما أنا فقد كانت أختي الوسطى والتي تكبرني بعامين كما عرفت فيما بعد هي عالمي. في اللعب، في التجول حول "المراح"، في المشوار إلى الشجرة الكبيرة. أمي كتلة سوداء لا يبدو منها سوى وجهها الابيض المتعب المشّرب بالحمرة الممزوجة بالتعب. لباسها الاسود الطويل الدائم ذو الامتار الكثيرة والطيات العديدة لايكاد يفارقها، تغطي رأسها بعصبة وكأنها قد قدت من الرداء الطويل الذي عرفت فيما بعد أن اسم "بيرمه"، إلا أنني كنت أراها في بعض الأحيان وهي تلف على رأسها عصبة حمراء تتدلى منها اقراط صفرء تلاشت فيما بعد ولا أعرف كيف ولماذا؟، ولكنني عرفت فيما بعد أن اسمها "عرجه" وما يتدلى منها هو ذهب ذو قيمة عالية. كانت تمشط شعرها بمشط مربع مصنوع من العظم وتلوح بين ثنايا شعرها الاسود شعيرات بيضاء تحاول أخفاءها. كانت تلوح كما يلوح الوشم في ظاهر اليد كما يقول طرفة بن العبد.واعود إلى تلك اللحظات القليلة التي كنت المح خلالها على رأسها "لفة" حمراء فاقع لونها على شكل عصبة تغطي الرأس كله واعلى الوجه، كم كنت أحب ذلك اللون الفاقع وأرى أمي فيه وكأنها ليست أمي المتعبة المشغولة ابداً في اشعال النار والخبز على الصاج أن وجد الطحين وتقريب الحطب إلى منقل والدي، ووضع التبن للبقرة والحمار أما الفرس فكان والدي هو الذي يتعهد وجبات غذائها على

نحو خلته مدروساً آنذاك، حفنات من الشعير توضع في كيس له علاقتان يوضعان فوق رأسها حتى ينفد ما فيه.

والدي حسب رؤيتي الانطباعية الأولى له: رجل كبير: وبالمناسبة، رأيته كبيراً وكأنه في عمر موحد حتى توفي، ربما لأننا كبرنا معاً، وكان الفارق بين عمرينا ثابتا. اسمر البشرة حاد النظرات، صارم النبرة، كانه جندي قديم من جنود الجيش المشاة. بائن الطول، نحيل، يلتف حول خصره حزام جلدي رافقه طيلة حياته. جاف الملامح، ميال إلى القسوة النابعة من مشاغل الحقل: الحرث، البذر، التعشيب، الحصاد، الدراس، بالاضافة إلى العمل في موسم الزيتون، كان قاسياً مع الجميع ألا معي،لا أدري لماذا؟ ربما لأنني الأصغر، كنت شديد الالتصاق به، أنام في حضنه، تظهر عصبيته على الجميع وحينما يصل الي يهدأ ويبتسم من خلال وجهه الحاد الملامح ثم يرتب على رأسي ويسألني:

- أكلت يابه؟

كنت أجيب بالإيجاب وأنا أرنو إلى "جفور[1]" التمر الرابض قرب كومة الفراش، "وشكوة[2]" اللبن المعلقة على خشبتين مثبتتين عند الرأس على شكل ارجوحة، كانت وجبتنا الرئيسية قليل من اللبن مع كمشة من التمر. لم يكن لدينا من الخبز ألا القليل، هو في الغالب خبز ذرة أو شعير، وقليلاً ما كنت احظى بقطعة من الزبدة مع كسرة من الخبز. كان طعمها لذيذا، وكان الالذ منها هو ذاك البرغل الناشئ عن تحويلها إلى سمن، والذي يتبقى في قعر الاناء، وكنا نعرفه بأسم: القشدة. واعود إلى والدي لا وثق استيائي المكتوم من قسوته مع الأخرين: أمي، أختيّ، أخي، كثيراً ما كنت أسمعه وهو يكسر الحطب ليشعل نار المنقل وهو ينادي أمي طالبا شيئا، دون أن يفصح عن ذلك الشيء: "اعطيني الخاير"، "الماخوذ"، وتحتار أمي وأختي فيما يريد، وكان ما يريده هو الادوات اللازمة لأشعال النار، مره يطلب زجاجة الكاز، ومره "الشحاطه[3]" ومره المحماسة، ومره صرة القهوة، كان لا يهدأ ألا بعد أن يشعل النار وتبدأ متعته

(١) الجفور: سلة كبيرة مصنوعة من سعف النخيل تحوي أكثر من عشرين كيلو غرام مخصصة للتمور.
(٢) الشكوة: جلد شاة مخصصة لخض الحليب وتحويله إلى لبن وزبده.
(٣) الشحاطة: الكبريته

الحقيقة في تحريك دلال القهوة فيقرب هذه من النار ويبعد أخرى، وينتظر حتى يتحول الحطب إلى جمر وخلال لحظات الانتظار كان يستل علبة ويبدأ يلف سيجارته وهو يردد قصيدة بدوية، كان يتحدث بها إلى نفسه ولكن لا أدري لماذا أحسست انه كان يريدني أنا دون غيري أن اسمعها.

- لومـا التـتن[1] لومـاه لومـاه   لومـا شرب التـتن ويـن أنـا اروحِ
- عبي سيجارة من أصفر اللـون تعبـاه   واكويهـا عـالجمره تكـوي جروحـي
- يـا دلـةٍ صـفرا عـلى النـار مركـاه   واحمسّ طبختهـا عـلى كيـف روحـي

وكان يطبق ما يقول على ارض الواقع، فهو يعبئ "السيجارة" بالتبغ ويشعلها من الجمرة، ويحمص القهوة على كيف روحه، وبعد لحظات تتصاعد ابخرة القهوة المحمصة ويبدأ اللون الأخضر من القهوة بالتحول إلى البني فالاسود، ثم ينادي وهو يبعد المحماسة عن النار

- أنت يا، أنت، يا هي، هاتوا المهباش.

ويعد لحظات تسمع دقات المهباش تحطم حبات القهوة التي اصبحت هشة بعد التحميص، ثم يفرغها كلها في احدى الدلال، ويقربها إلى النار ويعود إلى المهباش لدق حبات الهال "البهار". وقبل أن يضرب ضربته الأولى أقترب منه وأقول بدلال:

- أنا يابه.

وأعني هنا التعبير عن رغبتي بأن أدق أنا حبات البهار بأعتبار انها لا تحتاج إلى الجهد الذي تحتاجه القهوة، اقول ذلك وانظر إلى عينيه خائفاً أن ثبتهرني ولكنني المح في الغالب ذلك الرضا في ملامح وجهه، وكأنما أعماقه تتحدث بصوت مسموع معبر عن رغبته في أن يراني رجلاً، وابدأ الضرب بيد المهباش محاولاً أن اقلده، ولكن هيهات فضرباته عزف لا نشاز فيه، دقات متواصلة على شكل نغمات، وبين الحين والأخر يتوقف ليبدأ بضربات أخرى مختلفة النغمات، أذ يرفع يد المهباش مسافة ابعد ثم يهوى بها إلى فم المهباش، فأعجب كيف تهوى عبر فتحة المهباش الضيقة دون أن تصطدم بالحافة، وكنت أحاول فاكاد أن أكسر فم المهباش فيأخذه مني ويكمل الدق وهو يتسم، ثم يضطجع على حشية رقيقة وهو يدخن. وكثيراً ما كان يتناول ربابته المعلقه على أحد اعمدة البيت وينشد على انغامها العذبة عدد من أبيات الشعر الذي يحفظ الكثير منه، كنت اطرب

---

(١) التتن التبغ

لصوت الربابة وأطلب منه المزيد، حتى يفد الجيران وهم ثلاثة أو أربعة لأكمال السهرة مع أبي في مضافته، أو يرسلون بأحد أبنائهم يدعونه إليهم، فيذهب، وكثيراً ما كنت اذهب معه والوذ بطرف عباءته واستمتع لما يقولون حتى يغلبني النوم لأصحو في اليوم التالي على فراشي وحدي، بعد أن يكون والدي قد أيقظ الاسرة كلها بطرق فجةّ ما عداي أنا واختي الوسطى، ليوجه كل واحد إلى عمل، أختي الكبرى تذهب لاحضار العشب للبقرة، وأخي إلى الحقل يزرع أو يروي أو يعشب الأرض، وهو يطوف بالسهل القريب المزروع بالقمح والمستاجر من أحد ملاك الأراضي الكبار في قريتنا.

كانت أختي الوسطى هي رفيقتي وسلوتي ومالئة فراغ حياتي،.فهي تكبرني بعامين، ولو افترضنا أنني كنت الخامسه فهي في السابعة ولم يكلفها والدي بأي عمل، وربما كان عقل والدي الباطن قد عمل على تركها للعناية بي، كنت شديد الالحاح على أن نخرج معاً نتمشى أمام الخربوش فنعبث بأشجار "الغوصلان"، وكان كل واحد منا يحمل عصاً يضرب بها بيوت الغوصلان على أنها ذلك الملاك الذي نستأجر ارضه، رأيته مرة وهو يأتي بعماله ودوابه وأكياسه الفارغة ليكتال من بيدرنا الذي تعبنا فيه طوال العام أكثر من النصف دون أن يبذل أي جهد، وحينما استفسرت عن ذلك قيل لي أنه صاحب الأرض وصاحب البقعة وخزان الماء الذي تتجمع فيه مياه النبعة المعروفة هناك بأسم "هنيدة"، رأيت آنذاك رأسه العاري تماما من الشعر، لم أكرهه، لم أحقد عليه، رأيته يتعامل مع أبي بأحترام الشديد، بل رأيته هو المتهيب من أبي. لم يحدث خلاف، بل أن الرجل قد جاء إلى بيتنا بعد أن ذهب عماله بالحنطة، سمعت أمي تناديني وتطلب مني أن لا أجلس معه ومع أبي، سمعتها تقول: الرجل يصيب بالعين وأنا خائفة على هالولدين، كلهم: "نصنوصان" تعني أنا وأخي، وحينما ركب فرسه وهم بالمسير نظر إلى فرسنا وداعب والدي طالبا منه المبادلة بالخيل، وبعد أن مضى رأيت بعض اعواد البخور تشتعل وترسل دخانها إلى عين الفرس وأذينها الواسعتين.

نتلاش حقدي تماما على المالك، وأحسست أن والدي هو أكبر منه وأعظم قدراً، وطلبت من أختي أن لا نعود إلى ضربه وشتمه فوافقت، كان لوالدي رغم فقره وملابسه الرثه حضور كبير بين الرجال، شاهدت ذلك في احترامهم وتقديرهم له. كان لـ أصدقاء حقيقيون هم أصحاب

تلك البيوت الثلاثة المجاورة لبيتنا في "الطبقة" عرفت بأن اسم أحدهم "نايف"، له ولد في مثل سني اسمه "نواف"، تعارفنا وكنا نلعب معاً في السهل الواسع، نحاول نبش بيوت "الخلند" تارة، ونهرع إلى الطور المطل على الغرب الواسع تارة، ونحاول الأبتعاد عبر الطريق المؤدي إلى الغور في بعض الأحيان. أعجبتني تلك المغامرة فأذهب وحدي، وحينما أعود أشاهد على يساري مغارة، لا أدري لماذا كان خيالي الخصب الذي كان وما زال وسيبقى مصيبتي، لماذا كان يصور لي ذلك الكهف مملوءاً بالأشباح التي لا أعرف كيف تسللت إلى خيالي.

ذات ليلة كنت إلى جوار والدي أمام المنقل يصب القهوة ويدخن والبيت كله قد نام، وقنديل الكاز ذو البلورة المحاطة بالاسلاك يرسل ضوءا خافتا. لم تكن لدى والدي رغبة في السهر مع جيرانه، وفجأة شاهدنا حجراً يلقي علينا من تلافيف العتمه المحيطة بالمكان، اصطدم الحجر بالموقد، ثم جاء آخر وثالث، نهض والدي مندهشاً، واسرع إلى قنديل الكاز فحمله، ثم استل "بندقيته الألمانية" التي كان يحتفظ بها دائماً بين طيات الفراش حاول أن يطمئن على جاهزيتها فلم يتمكن لأن اليد الأخرى كانت تحمل القنديل. نظر حوله قرآني. طلب مني أن احمل القنديل واتبعه بعد أن أجري على البندقية بعض الحركات، وما أن أبتعدنا قليلاً حتى التقينا مع الجيران الآخرين الذين خرجوا مع قناديلهم للقبض على قاذف الحجارة، ولكنهم لم يجدوا أحداً، فأجمعوا على أن شبح أحد الرجال الذين قتلوا في هذا المكان قبل سنوات عديدة هو الذي ظهر ليلقي بتلك الحجارة التي لم تؤذ أحداً.

وتمر الأيام، ولا أنيس لي نهارا ألا نواف تارة وأختي الوسطى تارة اخرى كنا نذهب معاً حينما تكون راضية عني عبر التلال القائمة إلى الشمال من الطبقة، كنت أحب تلك الشجرة أكثر من ثمارها اللذيذة أحب جدول الماء الغزير المتدفق تحتها، واسراب الأغنام التي تتفيأ تحت ظلالها، كانت الرحلة تبدأ حينما تكون أختي راضية عني، ورضاها هو أن لا أغضب أمي، وما زلت حتى هذه الساعة لا أعرف فيما كنت أغضب أمي إلى الحد الذي جعل أختي تشترط علي أن اقلع عنه.

كنا نسير من الطبقة عبر طريق مستقيم قبل أن ينحدر بنا الطريق إلى وادٍ بين تلين، ثم يمضي بنا صعوداً إلى تل آخر سرعان ما نتركه لنهبط في وادٍ آخر، وحين نبدأ الصعود من الوادي الآخر أعرف بالغريزة أننا سنطل على الشجرة المهيبة، ونقطف ثمار الرحلة، نعبر من خلال طريق شبه واضح لكثرة ارتياده من قبل الرعاة. فنرى إلى يسارنا كومة من الحجارة عليها شرائط خضراء

وبيضاء فأشعر بالمهابة لأن هذا القبر للولي الصالح اسمه الشيخ محمد. وعند تلك النقطة ينشط خيالي ليصور لي أن الشيخ محمد هو حي داخل قبره، وانه يرصد المارة، وقد يعاقب من يخالف امه، كانت الخلاف هو لامي وحدها لأن أبي لا يستطيع أحد أن يخالفه. كنت أنسى الشيخ محمد وأنا أتسلق سيقان الشجرة العتيده، المرتفعة والموازي بعضها لسطح الأرض، ثم أسرع إلى الجدول فأتوقف عند نقطة منه وأتابع زبد الماء وهو يتشكل ويزحف ثم ينطفىء، وتتشكل بقعة أخرى من الزبد سرعان ما تتوارى في طيات خميلة من الأعشاب والأغصان الهابطة التي تلثم سطح الماء بود ازلي لا نهاية له ولا بداية، وكان خيالي يسرع في أعقاب عود تيارجح في خضم موجة تحمله عالياً ثم تقذف بها إلى مجرى سريع بين صخرتين ناعمتين مخضرتين بالطحالب، واظل مع العود الحزين متآسيّا على مصيره حتى يختفي ويشغل خيالي عن شاغل أخر، وفي طريق العودة أغذ الخطى عند اقتراني من ضريح الشيخ محمد الذي اصبح على يمني، وأعود مع أختي لأجد وجه أمي يلوح من خلال دخان كثيف وهي تنفخ النار تحت قدر قلما يكون فيه طعام أخر غير العدس أو القمح المجروش. وقبل الرحيل عن الطبقة حدث لأني حادث رهيب، حادث هز أركان البيوت الأربعة المتآخية المتآلفة، ووثق نوعا من الصداقة خاص بذلك الزمن المتفرد في البساطة والأيمان المطلق بالخرافة، وقلة الحيلة والتسليم بالقضاء والقدر، عنكبوت لدغ أبي. أحس بلدغته فأتنفض واقفا ووجده ثم قتله، ولم يعر الامر التفاتا، وفي صباح اليوم التالي أحس والدي بحمى شديدة، وتساقط العرق عن جبينه، ولم يعد قادراً حتى على الوقوف، فرشت له أمي واستلقى على الفراش يهذي، كان جسده حاراً كالنار، هرع الجيران إليه، وفركوا أكفهم حيرة وحزنا، ماذا يفعلون؟، لا شيء سوى البابونج والميرميه والبصل المشوي على مكان اللدغة، نايف صديق والدي جن جنونه، لم يسلم بما حدث، وبدأ عليه أنه لن يسمح لوالدي أن يموت، كان يصرخ كالمجنون، لا، لا، لن تموت، لن تموت"، وفجأة أختفى طيلة النهار، ليعود في المساء وقد علا وجهد البشر. وقال أنه قد عاد بالدواء، قال أنه ذهب إلى قرية بعيدة فيها رجل خبير بعلاج لدغة العنكبوت. تطلع الجميع إليه بضراعة، وكنت أكثرهم حزنا وخوفا على والدي المسجى شبه ميت أمام الجميع،

طلب نايف من الرجال أن يحفروا حفرة كالقبر، وخلال ساعة كانت الحفرة قد أعدت، ثم أمر بإشعال النار والحصول على أكبر كمية من الجمر وضعت في الحفرة، وجاء آخرون بشجر الطيون ووضعوه فوق الجمر، ثم وضعوا فوق الطيون أربع فرشات صوفيه ثم حمل والدي ووضع فوقها، ثم غطوه بعدد من المفارش واللحف الصوفية حتى غمروه بكل ما هو موجود في البيت من فراش، وتركوا فتحة صغيرة كي يتنفس أبي من خلالها، وعندها وقف نايف فوق رأسه ونادى:

- يا مريض العنكبوت بتحب تحيا ولا بتحب تموت؟

وجاء صوت أبي من الداخل كالأنين:

- بحيا.

وفي الحال تم أخرج والدي من الحفره فكان يتصبب عرقا كأنها قد القى في بركة من الماء، ثم اعدناه إلى فراشه وغطيناه، والجميع حوله وما هي غير لحظات حتى فتح عينيه وهو يقول لي:

- يابه، لفولي سيكاره وهاتولي فنجان قهوة.

وشفي والدي، وساد الاعتقاد بأنه لو قال بعد سؤاله من قبل نايف: "بموت"، لمات فعلاً، بعدها بأيام أو اسابيع سمعتهم يتحدثون عن الرحيل.

وحينما صحوت في اليوم التالي وجدت نفسي في حضن والدي على ظهر الفرس، وأمامنا حماران محملان ببيت الشعر وأدوات البيت الأخرى، وبقره، واصوات مختلطة، اذكر أننا قد قطعنا سبيل ماء. ثم غفوت، لأصحو في مكان جديد، وفي عالم جديد.

-٢-

كنت مأخوذا بيا أرى. ما هذا؟، بناء واسع له باب حديدي ضخم، وشباك يطل على ساحة واسعة نصفها صخري ونصفها منبسط. كان الانطباع الأولي هو رؤية البيت من الداخل، سوف أصفه كما استوعب خيالي أنذاك، ولكن أعبر عنه بمفردات ومعايير اليوم: جدران سميكة تمتد طولا وعرضاً، ٢٠×١٥ مترا، الباب يفتح إلى الجهة الشمالية، وعند المدخل نرى أن البيت مقسوم طوليا إلى قسمين متساويين: "قاع البيت" "المصطبة" قاع البيت منخفض غير ممهد، لدرجة أن بعض الصخور ما تزال ناتئة فيه، أما المصطبه فترتقي إليها من خلال أربع درجات حجرية لتصل إلى منطقة منبسطة مطينة ناعمة تتوسطها موقدة نار فخارية ثابته تطل على"قاع البيت"، وفي الواجهة رف طيني مكون من عشرات الغرف الصغيره، وتحتها طور ناتيء توضع فيها الملاعق والسكاكين وعلب الكبريت وتعلق تحته بمسامير اشياء كثيرة: أكياس جلدية أو صوفيه للعدس أو البرغل أو القهوة والبهار والفول والسمسم أحيانا. وحينما نقف في مواجهة الرف ونلتفت يمنيا فأننا نرى سدة ترابية استعملت كمخزن للكراكيب، وإلى جوارها حافة ترابية بأرتفاع متر تقريبا أستخدمت كمطوى للفراش. أما على اليسار فيقوم "مكوران"[1] هائلاً يتسعان لكميات كبيرة من الحبوب وغالباً ما تقتصر تلك الحبوب على القمح والشعير، بينها ينتصب مكور آخر في الجهة الغربية من قاع البيت، وهو أقل اتقانا من المكورين الآخرين خصص لخزن التبن الذي يلقى فيه من خلال فتحة في السقف، ويؤخذ منه من خلال فتحة سفلية واسعة، وعند الباب إلى جهة اليمين يوجد شباك يزيد سمك حائطه عن المتر كان يستخدم لخزن الرمان والليمون من خلال غمرها بتراب أبيض ناعم مخصص لهذا الغرض، لا أدري من أين تأتي به أمي وأختي الكبرى.

---

(١) المكور: حاجز من الطين لحفظ الحبوب. له فتحة من أعلى وفتحة صغيره من أسفل تتدفق منها الحبوب عند فتحها.

وحينما تخرج من الباب فسرعان ما تتراءى أمامك الساحة الواسعة بنصفها الصخري والمنبسط، حيث ترى في الجانب الصخري حفرة صغيرة وإلى جوارها الفرس. والحفره مخصصة لوضع العلف الممزوج بالتبن للفرس، أما الجانب المنبسط فهو مخصص لربط الحمير والبقر وغير ذلك. وحينما تقف أمام الباب الحديدي وتلتفت شمالاً فأنك ترى عريشه مرتفعة قليلاً نجلس عليها وننام فوقها بالصّيف، بينما ترى إلى جهة اليمين جداراً فاصلاً بين هذا البيت الكبير وغرفة صغيره نسبيا يسكنها عمي اوسط اخوانه واسرته، ولكل من البيتين امتداده حيث ينتهي هذا الامتداد شمالا إلى بناء طيني صغير نسميه "الفرن" كان لكل اسرة فرن خاص بها، يستخدم للخبز ويستمد وقوده من روث الحيوانات أو جفت الزيتون، ويمكن أن ينام من يشاء فوقه بالصيف. ولهذه المساحة الواسعة التي تضم البيتين الصغير والكبير مدخل واسع إلى جهة الشرق، بينما يحده من الشمال طور يطل على منخفض من الارض فيه بيت قديم ومغارة وشجيرات صبر تقيم فيها عجوز اسمها "زينة"، كانت تتهزنا وتسبنا حينما كنا نطل عليها. أما من الغرب فهناك جدار يفصلنا عن مجموعة بيوت قديمة أحدها لأحد اخوالي وهناك غرفة مكعبلة تشبه كبسولة الفضاء لعجوز اسمها "سعدا القطة" تعيش فيها مع ابنها الوحيد عقله الفالح وسأترك وصف المسارب المؤدية من البيت إلى الخارج ومن ثم إلى ازقة القرية كلها فيما بعد، لكي يكون الانطباع الذي اذكره مناسباً للمرحلة التي اتحدث عنها.

لا أعرف الكثير عن تلك الفترة التي سبقت ذهابي إلى المدرسة، ولكنني اذكر ليالي الشتاء الباردة، وكأني ما زلت اسمع هدير الوادي وهو يزأر في الجانب الغربي من القرية. كما لا زلت اذكر الثلوج وهي تتراكم خلف الباب المغلق حتى يتعذر فتحة، ولا زلت اذكر حكايات امي عند شهر شباط والعجوز التي تحدثه مع ابن عمه أذار فكسرت دولابها ومغزلها كي تتدفأ بهما. وفي الصيف كنت لا زلت مأخوذاً بتلك البقعة الشمسية التي كانت تتسلل مع الاشعة الشمسية من فتحة بالسقف، ذلك السقف الذي كان يسحرني بروعة بنائه، وكثرة أخشابه وتماسك قناطره الهائلة وحملها الثقيل، من الطين والخشب والقصّيب. ذلك الخشب الذي قيل لي بأن جدي لأبي قد حمله على ظهره من مسافة تزيد على خمسة كيلومترات، وقيل لي أيضاً أن جدي لأبي قد مات سنة مولدي. أما جدي لأمي فقد كان واحداً من الضحايا الذين سخرهم الاتراك للحرب وكانت أمي تحدثنا فيما تحدثنا عنه من حكايات الغولة والشاطر حسن وخاتم خاتوم. تحدثنا عن

والدها الذي كان كغيره مع "الفرارات" الهاربين من التجنيد في الجيش التركي ليزج بهم في ميادين القتال. وكان يعود إلى بيته بين الحين والأخر ليلاً ليغتسل أو يتزود بالماء الطعام. وذات يوم من ١٩١٥ م داهمه الجنود واخذوه. وقيل أن المختار آنذاك هو الذي وشى به، كما قيل أيضاً أن معظم الأراضي التي ملكها هو وأخوه كانت من فلاحين لا يجدون ما يدفعونه ضريبة عنها، فينكرون ملكتيها ويتبرأون منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب.

لم نعد إلى الطبقة منذ رحيلنا عنها، بل عدنا في موسم الزراعة التالي إلى مكان يقال له: "كريمة"، وأقمنا في شادر مختلف عن بيت الشعر الذي لا أدري أين ذهب. كان أبي يذهب إلى بيسان على فرسه فيشتري لنا بعض الاشياء: أحذية، برتقال، كيلة المنيوم، قماش، ويعود في اليوم نفسه، كنا نسمع عن مقاومين يحاربون إليهود، "ابو جلدة الطموني" مثلا وننسج حوله الاساطير، في كريمه شاهدت موتور الطحين المعروف بموتور "مراد" لرجل مسيحي من عجلون. كنت أعبر إلى الموتور واتفرج كيف تطحن الحبوب، ثم اخرج لأتفرج على بركة التبريد الملحقه بمبنى الموتور من الخارج. كانت حنفية ماء تصب فيها دون انقطاع. اقف امامها ساعات واتخيل: كيف لا تمتلئ هذه البركة؟ فيقال لي هذه البركة عميقة ولا حدود لعمقها، كنت اتخيل شدة عمقها واصبحت أخاف حينما امر إلى جوارها. كان صوت الموتور يبعث فينا نزعة لذيذة إلى المرح، كنا نقول عند سماع اول دقات مدخنته، "دار الموتور". وفي كريمة عرفت منطقة اسمها "أبو فرج" وقد اقمنا فيها مرة. وهناك بستان "أبو برهم"، وهناك سد وادي كفريجة الذي كان العمل جارٍ على بنائه شرق قرية كريمة لتوزيع مياهه على مزارعي المنطقة بالدور. كان هناك اللحام أبو زايد صديق والدي، والمقيم على الجانب الأخر من وادي كريمة في منطقة معروفة آنذاك بالحمره قرب مخفر الدرك.

لا أدري كم لبثنا في كريمة في فترة ما قبل المدرسة، ولكن ما أدريه أن أمي كانت قد وضعت بتنا اسمها "تركيه". وكان عمرها سنتان حينما زارنا رجل يصيب بالعين فكانت تلعب امامه فنظر إليها وخاطب أبي: ما اجمل هذه البنت ابا محمودا، وفي اليوم التالي مرضت وعند المساء كانت مدفونة في مقبرة كريمة. ومن شدة حبي لها، فقد كانت أمي حاملاً ووضعت بنتاً أصررت أن أسميها "تركية" أيضاً ولكنها ماتت هي الأخرى ووضعت إلى جوار اختها. وتأكد لأمي أنه لن

يعيش لها ولد بعدي، وأنني كما قالت لها بعض النساء "منحوس". وتساءلت أمي عن فك هذا النحس، فأشارت عليها المرأة بما يلي: "أن تأخذني إلى بئر الماء العميق الذي نشرب منه الماء، ثم تربطني من قدميّ وتدليني بالبئر، قدمي إلى اعلى ورأسي إلى اسفل، وما أن يلامس رأسي الماء وحتى أصرخ، ومع الصرخة يتطاير النحس كله. وحينما قالت لها أمي أن "كريمّة" تخلو من الأبار والناس يشربون من النبع المنحدر لهم من وادي كفر نجة، قالت لها "لا بأس أجلي ذلك إلى وقت العودة إلى القرية". وعزمت امي أن تنفذ هذه الوصفة الخطيرة، ولا أدري كيف عرف والدي بالأمر قبيل التنفيذ فجن جنونه وضرب أمي ضرباً مبرحاً مهدداً أياها بالقتل لو عادت إلى هذا النوع من الخرافات.

أمي مسكينة. قيل لي فيما بعد أنها كانت أجمل بنات القرية. تزوجت أبي مبادلة بعمتي التي بعدها اصبحت زوجة لخالي إبراهيم. خالي إبراهيم مات قبل أن أراه. كانت أمي شديدة الحزن عليه، والفخر به وذكره دائما. كان رجلاً بكل معنى الكلمة. هذه الشهادة اكدها أبي. كان يقول لي: "كان خالك إبراهيم رجلاً واريدك أن تصبح مثله. كان وجه عشيرة أخوالك الفطيمات الذين بدورهم كانوا أهم عشائر القرية، ولكنهم ابتلوا بدم فجلا قسم كبير منهم وتفرقوا. وبدأت اتخيل كيف يجلو الإنسان عن بيته لأمر كهذا، من أجل جريمة قد يكون اقترفها أحد جهلة العشيرة.

كان لأمي أخوان آخران، احدهم اسمه أحمد عمرّ طويلاً، والأخر عبد الله لم أراه ألا مريضا مسجى على مصطبة ببيته القديم وحوله طفلاه اللذان سيصبحان في رعاية عمهما فيما بعد، كنت أسمع أن هذا العم قاسٍ، وقد عاني أبناء إبراهيم عنده ما عانوا، وها هو دور أبناء عبدالله قد أتي. كانت أمي تذهب إلى اخيها عبدالله تزوره واذهب معها واراه مسجى، لم أتبين ملامحه. وكنت أذهب إليه أنا وأختي الوسطى في أمر أخر، فقد كانت أمي كثيرة الشجار مع أبي لأي سبب، كان يضربها، يقذفها بأي جسم قريب منه: فنجان قهوة، قطعة حطب، علبة دخان، قلما كان يضربها بيده، كنت اراها تحمل صرة كبيرة وتخرج ونحن نتشبث بها أن تعود ولكنها تذهب إلى دار خالي المريض عبدالله، نحاول ارجاعها ولكنها تقول: دعوني هنا يوماً أو يومين، أبوكم لا يطاق. وبعد يومين نذهب ونعود بها وقد تعود وحدها.

كان الشجار بين ابي وأمي ينشأ عن مسألة بسيطة، أما تأخرها في إعداد الشاي، أو نسيان مكان وعاء البهار، أو أن النار المشتعلة ليست كما يجب. فيبدي والدي تذمره الشديد بكلمات

مختصرة قاسية، فتبدأ أمي بالرد المفصل، وأنها لم تخطئ، ووالدي يطلب منها طلباً واحداً وهو أن تسكت ولكنها لا تسكت، بل لا تستطيع أن تسكت. فتعيد وتزيد وهو يأمرها بالسكوت. كنا نحن الصغار نعرف هذه المشادة فنهرع إليها:

- يمة، يمة، مشان الله أسكتي، أسكتي.

تسكت قليلاً ألا أنها سرعان ما تبدأ البث الذي لا يطيقه أبي فيقذفها بأقرب شيء لديه، ويحدث الرحيل ثم العودة، وهكذا. والدي لا يحب الكلام الكثير، كان ذا شخصية قيادية فطرية رغم فقره. كنت أنظر إليه وأتعلم، أتعلم منه كيف يتكلم وكيف يسكت وكيف يتعامل مع الرجال الذين كانوا يحترمونه ويهابونه. لم اسمع بحقه كلمة سخرية، ولا نقل عنه موقف فيه عار. كان يحظى بالاحترام حيثما يذهب. إذا عُدّ خمسة من رجال القرية البارزين فهو معهم إن لم نقل في مقدمتهم، كان لهم عدد من الأصدقاء الحقيقيين: أثنان منهم يحملان أسم: "أبو سليم"، كان كريما إذا وجد، وأن لم يجد فأنه يصبر. كنا نحن نجوع وفرسه الأصيله تنعم بالعلف والشعير كان من بين خمسة يملكون الخيل في القرية كلها. فيما بعد تخيلت فرسنا وكأنها "سكاب علق" عند ذلك البدوي الذي انشد عندما جاء أحدهم لابتياع فرسه:

ابيت اللعن أن سكاب علق   نفيس لا تعار ولا تباع

إلى أن يقول: يجوع لها العيال ولا تجاعُ.

كان والدي الأكبر عمراً وقدراً أخوته، أخوه الأوسط رجل صلب شديد الفقر، طيب النفس، متمرس على العمل، معتز بكرا منه، سريع الغضب ولكنه سريع الرضى، طيب القلب. ولم يكن هو أو والدي من المواظبين على الصلاة، كانا يصومان ولكنهما لم يكونا محسوبين من المندينين في القرية. أما أخوهما الثالث الأصغر والذي كان جنديا في الجيش العربي الأردني متدينا باراً بأمه التي هي جدتي "مريم الخلف". ولعمي هذا فضل كبير علي كما سيظهر فيما بعد. وسأذكرهنا موقفين عن والدي: أحدهما سمعته والآخر رأيته: أما ما سمعته فأن والدي قد كان مع مجموعة من وجها القرية ذهبوا لأخذ عطوة من عشيرة أخرى، وحدث خلاف، وكادت العطوة أن تفشل، وفشلها يعني اشتعال النار بالقرية كلها، ونهض اعضاء الوفد وهموا بالانحراف غضباً من مستقبلهم. ألا أن والدي قد وقف ورفض الخروج وقال لهم "أنا لن أخرج، أنا

غريمكم فاقتصوا مني"، احتار مستقبلوهم ماذا سيفعلون، وعاد اعضاء الوفد إلى الجلوس، وقدمت مقترحات جديدة وخرج الوفد بالعطوة التي اعقبها صلح.

أما موقف رأيته، فقد رأيت دركيا قد جاء إلى القرية، وراح يأمر وينها، وعسكر في السوق على كرسي أمام أحدى البقالات وطلب من حارس القرية أن ينادي فلانا وفلانا، وفلانا، كان الواحد منهم حينما يحضر ينهض الدركي ويضربه على وجهه ثم يأمر بتوثيقه تمهيداً لأقتياده إلى مخفر كريمه / وصادف مرور أبي ورأى ما يحدث فأبدي أعتراضاً على طريقة تعامل الدركي مع المتهمين، فنظر إليه الدركي من أعلى إلى أسفل واستهان بأمره، فملابسه رثه وهيئته بائسه، وقال له شزراً

- أنت يا، أنت، تعال هنا، اقترب.

اقترب أبي بلامبالاه، وهو يقول بلهجة ساخرة معروفة عنه.

- عسى خير.

فضحك كل الحضور.

أحس الدركي بأن كرامته قد أهينت، فخطا نحو والدي وارتعشت يده اليمنى وهو يهم برفعها لصفعه. فما كان من والدي ألا أن وجهه قد اكتسى بصرامته المعهودة وصرخ بالدركي:

- لو رفعت يدك لعدت بها معلقة في رقبتك.

ذهل الدركي لما سمع. نظر إلى مساعده نظرة ذات مغزى تقدم المساعد وفي يده "كرباج" يضرب به ساقه المغطاه ببنطلون واسع من أعلى وضيق عند الساقين، وقال لوالدي:

- أنت تهدد العريف؟!

رد والدي بعفوية:

- وبهدد أبوك وأبوه لو رفع أحدكم يده.

أصبح القرار للعريف. نظر حوله فشاهد عدداً من الرجال والشباب قد أقتربوا وعيونهم تقدح بالحقد والغضب. كان بعضهم قد نال الكرباج من جسده ونالت العصا من كفي قدميه، وكانه أدرك كذلك أن هذا الرجل الذي يتحدث إليه هو ليس كغيره. وهو عازم على رد الضربه لو ضرب. ولو رد الضربة لزالت هيبة الدركي ومساعده من القرية كلها، كان ذكيا فأستوعب الموقف وقال:

- أنتظرني، سوف أسوقك معي إلى المخفر بعد أن أنتهي من مهمتي، وهناك سترى.

رد والدي متحدياً:

- لن يسوقني أحد، سوف أذهب إلى المخفر على فرسي. الآن لو أردت، ونلتقي هناك.

وبالفعل فقد ركب والدي فرسه ومضى إلى مخفر كريمه، وهناك جلس قليلاً عند صديقه اللحام "أبو زايد"، وكان كل عناصر المخفر يعرفون أبا زايد ويحترمونه، وانتهت القضية قبل أن يحضر العريف ومساعده إلى المخفر.

في تلك الفترة مات خالي عبدالله، وبكته أمي كثيراً، وانتقل يتيماه إلى منزل عمهم. وكنت أشعر بالشفقة عليهما لما كنت أسمع من قسوة خالي أحمد وتكليفهما بأشغال شاقة تفوق طاقتهما. في تلك السنة كذلك وفد إلى القرية رجل ومعه أطفال، وبعض الكراكيب المحملة على حمار اسمه أبو صبحي اللاجي، سكن في بيت قديم وراح يبيع بعض الأشياء البسيطة: زماره، أبر، خيطان ملاحف، أمشاط خشب وعظم، كريمة زباد للوجه. كانت حياته كئيبة، حينما ندخل إلى بيته نشعر بالفارق الكبير بينه وبينا رغم فقرنا، ولم أستطيع أن أدرك آنذاك لماذا هو لاجئ؟ ولا من أين؟

-٣-

في خريف ذلك العام، كان قد أقترب موعد هبوطنا إلى الغور لنزرع أرضاً أستأجرناها هناك من المؤجر ذاته التي كانت أراضيه تمتد على مساحات واسعة من الغور. من سليخات حتى غور أبي عبيدة وعلى التلال المقابلة له من جهة الشرق. وذات يوم من أيام تشرين الأول وقبيل موعد هبوطنا الشتوي كنت واقفا أمام بيتنا، فأطل أبن عمي المجاور لنا ومعه قلم لا زلت أذكر لونه الاصفر، وفي مؤخرته قطعه بلاستيكية بارزه، كان يبريه بالشفرة، أقتربت منه وسألته:

- ما هذا؟

قال وهو لا يزال يبري رأس القلم المدبب.

- قلم يكتب.

قال ذلك وكتب على ورقة بيضاء موضوعة فوق الجدار الفاصل فارتسم خط أسود طويل على الورقة، وراح هذا الخط يزداد طولاً وانحناء حسب حركة القلم. طلبت منه أن يسمح لي بأن أفعل مثله فأعطاني الورقة والقلم وفعلت وسرعان ما أستعادهما مني، ولكنني أحسست بمتعة حقيقية لم أعرف مثلها من قبل. واعطتني احلام اليقظة فسحة من الأمل بأن أمتلك مثله ذات يوم. وظللت تلك الليله اتخيله، كان الخيال يزداد عندي أحياناً فأراني قد امتلكته، ووضعته بين اصبعّي، وحركته، فرسم خطوطاً أكثر بعدا وجمالاً مما رسم من قبل. لم يأذن لي الخيال بالنوم باكراً فظللت ساهراً اترقب طلوع النهار، ألا أن طلوع النهار ولم يمكنني من رؤية أبن عمي، قيل لي أنه ذهب إلى المدرسة ولن يعود قبل آذان الظهر في فسحة الظهيرة. مر النهار بطيئاً ثقيلاً كليلة أمس وما أن أنتصف النهار حتى رأيته مقبلاً وعلى كتفه محفظته المصنوعة من القماش، ولا بد أن القلم ذا المؤخرة الماحية يرقد فيها، ناديته وطلبت منه أن أرى القلم ولو لحظة، رفض، رجوته فأصر على الرفض وهو يقول: "ولا لحظة"، قال ذلك وعبر إلى بيتهم وهو لا يدري حجم الكارثة التي اطاحت بكل خيالاتي الماضيه، عبرت إلى البيت وأنا في حالة يرثى لها من انهيار كل الأمنيات.

طفرت من عيني دمعات لاحظها صديق والدي أبو سليم الذي كان في زيارة يحتسي الشاي أمام الموقده على المصطبة مع أبي فقال:

- لماذا تبكي "عموه"، من ازعلك؟ أبوك؟

قال ذلك ونظر إلى أبي الذي كان يفرغ محتويات أحدى الدلال من القهوة في الأخرى، فرد على "أبي سليم".

-لا بالله مهوه أنا.

ثم أكمل بعدم أكترات معروف عنه:

- مالك يابه؟، ليش بتعيط؟.

- بدي قلم فيه محايه،

هكذا انطلق الرد من فمي كقذيفة، ثم انفجرت بالبكاء، فانتهرني

- أسكت وله، مش عيب عليك اتعيط؟ أخس عليك.

تدخل أبو سليم الذي كنت أحبه، وكان مجرد وجوده في بيتنا، أو وجوده مع أبي في مضافة والده الجليل عبد القادر يجعلني أشعر بارتياح.

-على مهلك عالولد يا بو محمود، خليه يشتري قلم.

-يشتري أنا قاضبه؟

قال ذلك وفتح حافظة نقوده التي تحتوي على عدة طيات يتوسطها جيب صغير مخصص "للفراطة" وأستخرج قرشاً دفع به إلي فاختطفته طرت إلى الشارع وأنا أتخيل القلم قد أصبح بيدي. وسرعان ما خاب أملي، فلم تكن الأقلام تباع بالدكاكين، بلي لم يكن لها وجود ألا في المدرسة، يعطيها الأستاذ يوسف الزعبي لكل طالب جديد، عدت باكياً فقال أبو سليم:

-لا "تعيط" عموه، الأستاذ يوسف صاحبي هساع بقوم أنا وياك وبنروح عنده وبعطيك قلم.

هم بالنهوض ولكنه عاد كمن تذكر شيئاً فقال لأبي بسخريته المميزة:

- ولا أقلك؟ صحيح يا ختيار ليش ما اتقيده بالمدرسة بالمرة؟

بدت الدهشة على وجه والدي وقال:

-انقيده؟ بس الولد بعده، صغيرّ يبو سليم

- ولا، صغيرّ ولا اشي، فيه أولاد قده واصغر منه قيدوا.

بدأ والدي يفكر في الأمر جديا ولكنه سرعان ما تذكر شيئاً:

- ويعدين أحنا الشهر الجاي طايحين عالغور، منوه بده يظل عنده هون؟.

- أنت بس قيدّه، واتوكل على الله، قوم معي قوم عموه.

وبعد دقائق كنت أنا ووالدي وأبو سليم نقف أمام مكتب الأستاذ يوسف. عبرنا إليه بعد أن مررنا من أمام بوابة الجامع ثم اتجهنا إلى اليسار. كانت المدرسة عبارة عن حجرتين ملحقتين بالجدار الغربي من المسجد، -تم هدمهما حديثا كما رأيت-لهما باب واحد يفضي إلى حجرة الأدارة حيث يجلس الأستاذ يوسف الزعبي. وهناك باب إلى جهة اليمين يفضي إلى الحجرة الأخرى التي شاهدت فيها ثلاثة خطوط من "الرحلايات" المدرسية، يشكل كل خط منها مرحلة دراسية: الأول والثاني والثالث. وقفت أمام الأستاذ يوسف خائفاً، التقطت نظرة بانورامية سريعة له فرأيت رجلاً طويلاً مهيباً، شديد البياض وجهه مشرب بالحمره، كفاه لاحمتان طريتان، يرتدي الحطة والعقال. سلم علينا، ورحب أكثر بأبي سليم الذي كان يعرفه أكثر من أبي، وقال لنا بما معناه: "أي خدمه" مشايخ؟

قال أبي بعفوية:

- بدنا انسجل هالصبي.

وما هي غير لحظات حتى كنت أجلس مع الخط الخاص بالصف الأول وفي يدي قلم ودفتر كتب الأستاذ عليه أسمي، لم أكن فرحاً بالمدرسة ولا بالجلوس مع الصبيه الأخرين كما أنا فرح بالقلم. أستخرجته بعد أن جلست وهممت أن أرسم به خطاً ولكنني لم أجد له رأساً. فضحك من كان يجلس إلى جواري وقال: "ابريه أولاً" ولم أكن أعرف كيف يبرى القلم، فأخذه مني أحدهم واستخرج شفرة وبراه فأصبح مثل ذلك القلم الذي طالما حلمت به بل أكثر جمالاً. وبعد لحظات شاهدت والدي وابو سليم يخرجان بينما يقف الأستاذ يوسف عند الباب يطلب من أحد طلاب الصف الثالث وهو أعلى الصفوف في المدرسة كلها أن يكتب لي الأحرف الهجائية، وطلب من آخر أن يكتب لي جدول الضرب من ١-١٢، وأمرهما أن يدرباني عليها. وما هي غير أيام معدودة حتى حفظت الأحرف الهجائية وجدول الضرب، ولم تزد الأيام التي قضيتها في المدرسة عن شهر حينما حان موعد هبوطنا إلى الغور، واصبحت أنا المشكلة التي حذر منها أبي،

وكان على "أبي سليم" أن يجد الحل كما أوجد المشكلة. ذهب مع أبي إلى الأستاذ يوسف وحصلا لي على أجازة مفتوحة أمتدت ستة أشهر كاملة من شهر ١١ وحتى شهر ٥ من العام الذي يليه، وخلال هذه الاشهر الستة، كان والدي يمرّ على المدرسة كلما صعد إلى القرية. وجاء لي بعد شهرين من أجازتي بكتاب القراءه للصف الأول اسمه "البسيط في الهجاء"، فتلقفته فرحاً وأصبحت أركب الاحرف الهجائية التي تعلمتها وأكون منها كلمة أو جملة وأصبحت أقرأ في الكتاب كلمات لن تزول من ذاكرتي:

أ، أسد، ب، بقرة، ت، تيس، ج، جمل، ح، حمامة، ولا أدري بعد ذلك ما الذي قد قرأته. ألا أن متعتي كانت مضاعفة وأنا أركب الكلمة واصل مثلا إلى الكلمة لأجد صورة الاسد والبقرة والتيس والجمل والحمامة، فوقها نؤكد صحة ما توصلت إليه.

كنت سعيداً بكتابي "البسيط في الهجاء"، كنت احمله كل يوم وانطلق به عبر سهول الغور الواسعة تارة، أو أصعد شرقاً على موقع السد الذي أقيم لحجيز مياه الوادي وتقسيمها على المزارعين بالدور. كنت اجلس بين اشجار الرتم والدفلي واتأمل ازهارها الملونة رغم أنها لا رائحة لها. وكنت أجلس طويلا على فسحة عشبية إلى جوار المجرى قبل وصوله إلى السد فاتأمل الصخور الملساء المغطاة بالطالب الخضراء، واستمتع إلى تقيق الضفادع، وأحياناً أشاهد الاسماك الصغيرة وهي "تلعيط" داخل تجمع مائي شبه ساكن يتخلل المجرى. وكنت استجمع شجاعتي أحياناً فاسير فوق حافة السد من أوله إلى آخره، إذ يكون المجرى إلى يميني والبحيرة الصغيرة إلى شمالي، فأي خطأ سوف يلقي بي إلى الهاوية. كنت أخاف فأقطع بتمهل وانتباه شديد بينما كان الآخرون يقطعوناه ركضاً. كان خيالي يمثل لي الخطر الكامن في أعماق البحيرة، كنت أخاف الأعماق، خوف نما في اعماقي بعد وقفات طويلة أمام بركة التبريد في موتور "مراد"، قال لي احدهم أن هذه البركة لا حدود لها فهي تمتد عمقاً حتى نهاية الارض. والدليل أن الماء ينسكب فيها عشرين ساعة في اليوم ولا يزيد ارتفاعها، والحقيقة أن عمقها لم يكن يزيد عن المترين، وأن الماء فيها يدور ليبرد الموتور، ثم يعود إلى البركة.

لم أكن أدري حينها ماذا يفعل أهلي في "كريمة"، أعرف أنهم يزرعون، أخي يحرث، أبي يحرث ويزرع، لمن الأرض؟ وما حصتنا من المحصول، ولكن ما أدريه أن هناك "بيدرا" سوف يتشكل

قبيل عودتنا إلى القرية، وأن كومتين أحداهما من التين والأخرى من القمح سوف تظهران إلى الوجود، وأن هناك عشرات من الاكياس ذات الخطوط الحمراء سوف تمتلئ بالحبوب كيلاً "بالصاع"[1] –ثم سرعان ما تنقل، وينقل التين أيضاً على دواب تذهب بها صعداً إلى القرية، لاجد التين في مكور قاع البيت والحبوب في مكور المصطبة أحدهما للشعير والآخر للقمح. وحين نصعد إلى القرية أجد أن محفظة والدي التي شاهدتها شبه خالية حينما اعطاني القرش قد امتلأت بالأوارق النقدية. ومما لاحظته في ذلك العام أن والدي لم يذهب على فرسه إلى بيسان كما كان يفعل قبل أعوام ليعود الينا باشياء مبهرة: كالبرتقال وادوات الالومنيوم وربما القماش ذو الالون المتعددة.

صعدنا في أوخر أيار إلى بيتنا، وسرعان ما عدت أنا إلى المدرسة، وكم كانت دهشة الأستاذ يوسف الزعبي حينما وجدني احفظ الكتاب عن ظهر قلب، وكأنني لم أترك المدرسة لسته أشهر. وفي أوائل تموز قدمنا الأمتحان، ونجحت، وغادر الأستاذ يوسف، وحق لي أن استمتع بأشهر الصيف، وأحدق فيما حولي لأكتشف معالم جديدة لقريتنا، ونمطا مختلفاً من أنماط الحياة تمتد حتى تشرين الأول حيث يبدأ موسم قطاف الزيتون. وهو موسم فيه الخير والبركة، ويشكل مصدراً هاماً من مصادر الدخل لدى الفلاحين يدعم موسمهم الزراعي في الغور، وأعرف أن لنا قطعة أرض كبيرة مزروعة بالزيتون نعرفها باسم "العرقوب".

وقبل أن اصل إلى موسم الزيتون والهبوط مؤقتا إلى العرقوب دعوني أصف جانبا من نمط حياتنا في أشهر الصيف الاربعة. حيث يخرج والدي في الصباح ليتسلى مع اصدقائه في مضا فأنهم أو أمام الدكاكين في السوق التجاري الذي كان يعرف بأسم "الجامع" حينما يسألني أحد عن أبي وأعرف أنه في السوق أقول: أنه في الجامع، وغالباً ما كان يعود بعد ساعة من خروجه وهو يحمل "سحارة" تين أو عنب أو صبر أو بندورة أو فقوس، وأحياناً كان يعود برطل من اللحم أو"الطراف"[2]. وحينما يأتي بالطراف كانت تحدث مشاجرة مع أمي التي ترى أن تنظيفه وطبخه يحتاج إلى جهد كبير. كانت الكرشه هي التي تقطع وتحشى بالارز، بينما تلف الامعاء بعد تنظيفها

(١) الصاع مكيال للحبوب سعة بحدود ١٠ كغم.

(٢) الطراف هو آنذاك كل مشئ في الذبيحة ما عدا اللحم.

على الكوارع، ويوضع الرأس معها بعد تنظيفه. وكنت أترقب عملية تكسير الرأس لا حصل على جزء من المخ لذيذ الطعم.

الطريق من بيتنا إلى الخارج تمر من أمام بيت عمي لتمضي شرقاً من خلال زقاق ضيق بين جدار إلى اليمين خلفه دار لأحد الجيران المسيحين ويدعى "جريس"، وإلى الشمال مجموعة بيوت محاطة باكوام من الحطب. كان أحد أبناء جريس هذا وأسمه سليم زميلي في الصف الأول، وحينما كنا نتبارى بمعرفة الاحرف اكتشفت أن ابناء جريس يبدأ اسمهم بحرف السين: سرور، سليمان، سليم، سالم، ساري، وساهي. وما أن تصل الطريق إلى نهاية الجدار حتى تتجه جنوباً، صعوداً لتمر أمام حجرة لرجل مسيحي متخصصة لحسم السكك واصلاح الفؤوس تدعى "الكور"، حتى تصل إلى دكان صغير عرفناها باسم سالم الحسن. حيث نتجه غرباً لتمر من أمام دار واسعة نعرفها بأسم "شيخة العرام" وهي من أقارب أمي، لتصل إلى بئر بتموضع كعلامة بارزة على مفترق طرق. يعرف ببئر حمدان يرى الواقف عنده حينما ينظر يميناً ساحة مهجورة ملأى بالاشواك والأعشاب الجافة تظهر في نهايتها خلفيات بيتنا الطينية، وحجرة مهدمه لم يبق منها سوى "القنطرة" كنا تمر فوقها نعرف بأسم: خشة ابو عيشة"[1]، وإلى جوارها بيت واسع خرب عرفناه بأسم "بيت القعم". كنا ندخله متهيبين خوفاً من مغاره عميقه في داخله. أما الواقف عند بئر حمدان نظر أمامه بأتجاه الغرب فأن يرى طريقا تمتد إلى حارة تدعى حارة "الوحشات" ومنها إلى منطقتي "سليخات" و"كريمة" في الغور. أما الاتجاه الأكثر استعمالاً فهو الذي يمتد إلى الجنوب في محاذاة سور المسجد الذي تقوم خلفه عدد من اشجار اللزاب يقول أهل القرية أن أحد ائمة المسجد البارزين الذين ترددوا للعمل في مسجد القرية ويدعى الشيخ جميل البرقاوي هو الذي اشرف على زراعتها، ويقال أنه قد علم القراءه والكتابة لعدد كبير من الجيل الذي يكبرني بعشرين سنه.

وتتواصل الطريق في امتدادها حتى تصل إلى السوق "الجامع"، هذا السوق الذي يحلو وصفه في فصل الصيف: صف طويل من المحالات التجارية تفتح إلى جهة الغرب. قبل الوصول

(١) أبو عيشة: رجل يتيم، هو أنب عم والدي. توفي أبوه مبكراً ففر من ظلم عمه كما قيل لنا آنذاك، وسجل بالجيش، وعيشة هي أمه،

إليها تمر من أمام سور دار واسعة لأحد أثرياء القرية ويدعي "الخيزيقية" وكان دكانه هو أول الدكاكين، وكان له بابان أحدهما بفتح على السوق والآخر إلى داخل الدار. وبعده دكان سليم، ودكان أيوب، ودكان عمي محمد يعمل به أبن أخته علي الدراج وأمام هذه الدكاكين يقوم سوق الخضار والفواكه التي يأتي بها الباعة من الكروم القريبة. وكان أشهر هؤلاء الباعة آنذاك هم: "حسني الشيخو"، وحسن ابو زياده، ورمضان[1]، وأخوه الملقب بشقيقه. وكان هناك لحام معتمد للقرية يدعى فلاح الغول له أخ اسمه أحمد يتاجر أحياناً بالخضار والفواكه وفي اتجاه آخر يقوم دكان صغير لرجل اسمه "قاسم"، وإلى جواره دكان سمكري لرجل يقال له: "أبو السيد"، يصلح البوابير ويلحم تنك الزيت. وفيما بعد بنيت حجرتان تطلان على السوق استخدمت أحدهما كدكان أظنها لرجل من آل مهاوش، والآخرى كانت مقهى فيه راديو صغير وامامها معرش فيه عدد من الكراسي والطاولات.

هذا الوصف يختلط على سنة ادراكه، هل كان ذلك بعد أنتهاء الصف الأول والعطلة الصيفية التي تمتد حتى نهاية ايلول؟، أم كان بعدها بعام أخر، ولكن ليس أكثر. ألا أن المؤكد أنه في ذلك العام قد حدث في بيتنا شيء مختلف، شيء غمرني بالدهشة والذهول، شيء لم يخطر لي من قبل على بال. كنت مع أختي الكبرى خارج القرية نجمع الأعشاب طعاماً لبقرة حلوب كانت عندنا. كانت هي التي تجمع الأعشاب في كيس كبير، أنا كنت مجرد مرافق لا صفة لي ألا أنني رجل يحمي أخته. وربما هذه أول مرة أشعر فيها أنني أعرف أختي هذه، لم تكن لها معي قبل ذلك أية ذكريات. كانت في الرابعة عشرة كما قيل لي فيما بعد. ملأنا الكيس وعدنا إلى البيت، وما أن عبرنا من باب الساحة حتى شاهدت جمعاً كبيراً من الرجال يملآون الساحة وبعضهم يعتلي العريشة. ورأيت أخي محمود بينهم ثائراً يحاول الافلات للوصول إلى مكان ما، والآخرون يحاولون حجزه وتهدئته، وسمعت بعضهم يقول: ولا يهمك، خلص عموه، جيزتك عندي، وكان هو لا يزال ثائراً متفلتاً. نظرت حولي فرأيت أختي الكبرى قد القت بالكيس عن رأسها وفرت عن السور بأتجاه دار خالي لم أستطع يومها –الربط بين كل هذا الذي يجري، ألا انني عرفت في اليوم التالي أن أختي الكبرى قد خطبت، وأن ثورة أخي هي تعبير عن يأسه من الزواج، لأن زواج الشباب

---

(١) رمضان : رجل معاق حركيا، يشتري الفواكه والخضار من الذين يحضرونها فيربح ويربحون.

آنذاك لم يكن يتم في الغالب ألا عن طريق البدل. فمن كانت له اخت في سن الزواج فهي أمله للبدل بها، فأذا ذهبت ذهب الأمل، لا اردي كيف تمت تهدئة أخي، ولا ما هي الشروط التي قبل بها. ولكنني عرفت أن أختي قد خطبت لأبن أغنى أهل القرية وساعد أبيه الايمن في العمل بالدكان والاشراف على مئات الاغنام وكروم الزيتون التي كان يملكها. وعرفت أن مهر أختي الكبرى كان ثلاثمائة جنيه عدا ونقداً، ولم يكن أحد في القرية كلها — عدا نسيبنا — الخيز قية يقادر على دفع هذا المهر، وإذا ما أردنا أن نعرف قيمة ذلك المبلغ اليوم فما علينا ألا أن نقوم بحسبه بسيطة وهي أن ثمن الخروف آنذاك لم يكن يتجاوز الجنيه الواحد، وكان ثمن غرام الذهب خمسة عشر قرشاً.

لم تطل الخطبه، فقد كان أهل الخطيب جاهزين، وتم الزفاف قبل أن نهبط إلى الغور، وخلال تلك الفترة كان الخطيب يزورنا ويمكث عندنا ساعات طويلة وهو يتلفت حوله على امل أن يرى خطيبته، ولكنها كانت ما أن تسمع دبيب خطواته حتى تفر من البيت ولا ترجع ألا بعد أن تتأكد أنه قد غادر. كان يضطجع عندنا فوق المصطبة، بعد أن يتغدى ويشرب الشاي، ويخلع ملابسه وجاكيته وحطته البيضاء الأنيقة، وكان ينام. وإثناء نومه كنت أقترب منه وأراقب حركة الساعة على يده، وأتخيل، هل سيأتي يوم وأملك مثلها؟، هل ستكون لي مثل هذه الملابس الأنيقة الفاخرة؟. وحينما يصحو، يغسل وجهه، ويلبس ما خلع من ملابسه ثم يشرب الشاي وهو يتلفت حوله ثم يخرج وحتى بدون خفي حنين.

وتواصلت حفلات ما قبل العرس سبعة أيام بلياليها، الحداء والسحجه الدبكة. كنت احب مشاهدة الدبكه.لكن لم يكن هذا مسموحاً لي ولا لأحد من أقاربي بالمشاركة في الاحتفالات فهذا عيب في عرف القرية. الفرح لأهل العريس، وأهل العروس حزانى منكوبون لان أحد أفراد العائلة سوف يغادرهم ولأن مجرد ذكر البنت كان كافيا للاحساس بالعيب والخجل. فأخي محمود لم يشارك في "السحجة" ولا في الدبكة التي كان يعتبر من أقطابها. لقد كان أشهر من يحيون الدبكات في القرية هم أربعه: الأخوان على وعليان اليزق، وتوفيق العطية ومحمود، وكان في المؤخرة عدد من المتدربين أو الكومبارس. وكان غياب أحد هؤلاءء القادة يشكل أنتكاسة للعرس وحزناً لأهل العريس. فكانوا يؤخرون موعد الحفل أو يقدمونه بما يتناسب مع ظروف هؤلاء ووجودهم.

كان قد مرّ شهر واحد على زواج أختي حينما أقترب موعد هبوطنا الشتوي إلى كريمة. كان موسم الزيتون قد أنتهى. وفاحت في القرية روائح الزيت التي تعطر الهواء بروائح الخير والأمل. كانت أحمال الزيتون بلونيه الاخضر والاسمر تصل مساء إلى القرية لتفرغ في أكوام بساحات البيوت. وحينما ينتهي صاحب الكرم من القطاف يؤتى بحلّة واسعة تتسع لأكثر من نصف طن من الزيتون فيسلق بها الزيتون سلقاً خفيفاً، يحمل بعدها على رؤوس النساء إلى اسطحة المنازل حيث يعرض لأشعة الشمس بضعة أيام قبل أن ينقل إلى المعصرة. وما أدراك ما المعصرة، مغارة واسعة فيها آلة بدائية على شكل مكبس شديد الارتفاع، يعصر الزيتون القادم من سطوح المنازل بعد السلق والتنشيف، ويهرس بواسطة حجر دائري هائل مثقوب من الوسط يبلغ وزنه بضعة اطنان، يدور فوق جرن أكبر منه حجماً، يجره الرجال أو الدواب ثم ينقل الخليط المهروس ليعبأ في "قفف" مصنوعة من سعف النخيل أو البوص. وتوضع هذه القفف تحت المكبس حتى تصل إلى ذروة الأرتفاع فيه، ثم يهبط المكبس، ويدار هبوطاً يدوياً من قبل رجال يتصبب العرق من جبينهم، وتسيل قطرات الزيتون عبر مجرى يصل إلى الجرار التي تبدأ تعبئتها الواحدة تلو الأخرى، كانت عملية فرط الزيتون ونقله وسلقه وتنشيفه وهرسه وعصره، عملية شاقه قد تستغرق شهوراً عند من يملكون الكثير من كروم الزيتون. كان في القرية كلها أثنتان من هذه المعاصر، أحدهما لرجل يدعى عيسى والأخرى لرجل آخر. وساتحدث في مكان آخر عن وصول أول معصرة آلية وصلت إلى القرية، جاء بها رجل مغامر لم يكن يملك مالا ولا دونماً واحد من الأرض.

وذات يوم وبينما كنا نلعب على قارعة الطريق، نظر أحدنا إلى جهة الشرق وحدق طويلاً ثم صرخ:

- سيارة، سيارة في طريقها إلى القرية.

هتف آخر:

-أنه الأستاذ يوسف، هو بالتأكيد الأستاذ يوسف.

القى كل واحد منا ما بيده من حجر أو علبة سردين فارغة أو "قلّ" ولذنا بالفرار إلى بيوتنا. كان قدوم السيارة إلى القرية بشكل حدثاً تاريخياً سنوياً أو شبه سنوي. كانت الطريق وعرة، ولم تكن هناك سيارة تستطيع أن تغامر بعبورها ألا سيارة جيب لرجل مسيحي اسمه "جواد"، كانت أجرة السيارة كي تقطع تسع كيلومترات هو خمس جينهات، أي خمسة خرفان، أي ألف دينار

بمنطق هذه الأيام. كان الأستاذ يوسف رجلاً أنيقاً أبن عز، قادراً على أن يدفع الخمسة جنيهات من راتبه الذي كان لا يتجاوز الاربعة عشر ديناراً. لقد افترضنا أنه الأستاذ، وكان هو الأستاذ فعلاً إذ أنتظمنا في الدراسة بعد يومين. وكنت في الصف الثاني انظر إلى من هم دوني في الصف الأول بأنهم مساكين جهلة وأنا قد تجاوزتهم بمراحل كثيرة. وما هي غير شهر أو أقل قليلاً حتى اطلت المشكلة الكبرى، الهبوط إلى الغور، والاجازة غير ممكنة لان الصف الثاني ليس كالأول، والغور فيه رزقنا وأسباب حياتنا، وفجاة لمعت في أفق الحيرة فكرة لا أدري من صاحبها، وهي أن أنتقل للعيش في بيت أختي الكبرى المتزوجة وهكذا كان.

-٤-

كان الصف الثاني رائعاً. الأستاذ يوسف يعاملني معاملة المتفوقين. فهو لم يعرفني جيداً في الصف الأول الذي قضيت معظمه في إجازة. لم أعد أذكر ما هي المناهج، ولكن ما أذكره أنها قد أصبحت أكثر صعوبة، وتحتاج إلى كثير من الاستعداد، وكثير من الانتباه لاوقات الدوام والانصراف. أما بيتي الجديد فكان غرفة تضم مطوى شاهق غاص بالفرشات واللحف والبسط. كنت أنام وحدي في الشتاء، وعلى ظهر الحجرة في الصيف. كنت حين أصحو في الصباح أجد أختي الكبرى وقد وضعت أمامي كوباً من الحليب اللذيذ الطعم فوق صينية بيضاء لامعة، وبعد أن اصحو جيداً واغسل وجهي اجلس وأمامي طبق مملؤ بإصناف الطعام: ألجبنه والزبدة والعسل والزيتون والزيت والشاي كنت سعيداً، لا بأنواع الطعام ولكن بذلك الامتداد الذي اضحى لبيتنا، بسعادة أختي التي اراها كأنني اراها لأول مرة. شديدة الحرص على مظهر بيتها ونظافة كل ما فيه. علمت فيما بعد أن مشادة قد نشبت بيها وبين زوجها لشدة حرصها على النظافة التي كانت تصل أحياناً إلى حد المرض. كانت المدرسة أكثر قرباً من مكان اقامتي الجديدة، كنت أخرج من البيت وأخطو خطوات من أمام المسجد وإذا أنا مع آخرين. كنا نصطف في الصباح، وننشد "بلاد العرب اوطاني، من الشام لبغدانِ ومن نجد إلى يمن إلى مصر فتطوان"، وكنا ننشد ايضاً: "حماة الديار عليمكم سلام ابت أن تذل النفوس الكرام".

في تلك المرحلة بدأ الوعي يلتقط بعض الوجوه والأسماء ممن أصبحوا في مقدمة أصدقائي، وممن كانت لهم في مسيرة حياتي صحبة وصداقة وصلت إلى حد البكاء حينما سافر أحدهم إلى المانيا ولم أعد أراه. لا أذكر شيئاً عن مناهج الصف الثاني ألا أنني أذكر قدرة الأستاذ يوسف الزعبي على التعامل مع أربعة صفوف في وقت واحد. كان يعرف كل واحد منا وقدراته، كان حريصاً على أن نتعلم ونفهم. وكنت أنظر إلى طلاب الصف الرابع نظرتي إلى نصف استاذ. فهم كبار في السن والجسد بالنسبة لي: أذكر منهم اسكندر حداد وعطا الله حداد، وعبد الكريم رشيد ومحمود شقيق زوج أختي، وأذكر أنه هو الذي كتب لي الحروف الأبجدية في العام الذي مضى. لا

أدري كيف كنت أقضي وقت فراغي. والأرجح أنه كان في لعب "القلبول" على نطاق محدود، أصبحت مع الناس.

وما أن جاءت عطلة منتصف السنة حتى هبطت الغور ملتحقا بأهلي لأجدهم مشغولين بري المزروعات وترقب الغيث الذي كان داعماً لدورهم من ماء الخزان. أحسست بدفء غريب في كريمه، وأحسست بحب لها أيضاً. كنت اذهب مع أبي إلى السهل، واراقب العصافير وهي تطير في رفوف متقاربة لتحط هنا أو هناك ثم سرعان ما تهب فزعة عند سماع أول صوت. كان بعض الأولاد ينصبون لها الفخاخ لتقع فيها، ثم يعودون بها وقد اعلنوا أن لحمها لذيذ جداً. كنت أرافق أبي أحياناً إلى ملحمة "ابو زايد" القريبة من المخفر، والتي كانت اشبه بمضافة يتجمع بها رجال يتحدثون وغالباً ما يكون حديثهم عن الموسم وترقب المطر. والوضع الزراعي لكل واحد منهم،

وفي طريق عودتي مع أبي في أحدى المرات قطعنا الوادي الفاصل بين كريمة القبلية والشمالية "الحمرا"، وكان هناك عمال ومهندسون يشرفون على اقامة جسر على ذلك الوادي وكان هناك عدد من اكياس الاسمنت الفارغه ملقاه إلى جوار الطريق فطلبت من أبي أن أحمل أحدها لأجلّد به كتبي ودفاتري. وبالفعل فقد استاذن أبي من المسؤول هناك وحملت كيس الاسمنت الورقي الفارغ سعيدا بما حملت متلذذا بقصّ اوراقه وتفصيلها على قدر الكتاب أو الدفتر، ولا زلت أذكر تلك الواقعه كلما مررت من فوق الجسر حتى يومنا هذا.

وفي الصيف عدنا إلى القرية. وكان الموسم جيداً، ومحفظة والدي غاصة بالأوراق المالية، وكميات الخضار والفواكه تزداد تدفقاً على سوق القرية، وأنا فخور بشهادتي التي حصلت عليها بتفوق تحمل خلاصة جهد عام كامل: يرفع إلى الصف الثالث الابتدائي، بعد كلمة: النتيجة التي كانت مطبوعة وأمامها فراغ قد كتب فيه بخط الأستاذ يوسف الزعبي: ناجح، كان البشر يتلألأ على كل الوجوه. كان راديو المقهى يصدح بأغنيات نسمعها لأول مرة. وشباب القرية يحتلون مقاعده ويلعبون الورق وهم يشربون الشاي والقهوة. وكانت أسراب الصبيان تجول في الساحة الخالية حول المقهى، أو على أطراف السوق، أو يلعبون "القلول" في الفراغ الممتد أمام المدرسة المغلقة. وكانوا يلعبون بـ "طابة" من الخرق فيقذفونها بأقدامهم عاليا. وكثيراً ما كانت تبتعد لتحط على سطوح إحدى البيوت، وتعد مسألة إعادتها مغامرة قد تنتهي بالمشاجرة مع أصحاب

البيت، لم نكن نخاف من أصحاب البيت. ولكن كان خوفنا أن يصل الأمر إلى والدنا أو إلى الأستاذ يوسف بعد أنتهاء عطلة الصيف.

وبعد أنتهاء عطلة الصيف، أطلت سيارة. وألقى كل من في يده أداة لعب واعتصم بالمنزل، لا يخرج منه أبداً ألا إذا كلفه والده بشراء حاجة من الدكان فيقول لأبيه:

- وإذا رآني الأستاذ يوسف؟

- وإذا رآك أقول له أنا أرسلتك.

وعبرت إلى المدرسة، وجلست في مقاعد السرب الثالث، وبدأت الدراسة، وأصبح الأستاذ يوسف يعرفني جيداً، الأذكى والأكثر ادباً وطاعة. أجرى ذات يوم امتحاناً مفاجئاً للطلاب، وكانت علامة الصفر آنذاك هي الـ ٤٥ من مائة فضرب كل من حصل على تلك العلامة أربعة ضربات بالعصا على راحة يده، وحصلت أنا على ٧٠٪ من مائة فضربت معهم ومثلهم. ضربني وهو يقول أنت ناجح ولكن لم أكن أتوقع منك أقل من ٩٠ من مائة. وكان هذا درساً بليغاً مفيداً لي. وما هي إلا أشهر ثلاثه أنهينا خلالها موسم قطاف الزيتون وحان موعد هبوطنا إلى الغور، حتى ظهرت أمامنا المشكلة الأزلية: أين سأبقى؟، مكانه كل عام، قالت أمي عند أخته كالعام الماضي، لم يوافق أبي. لم أعرف حينها لماذا لم يوافق ولكنني أدركت فيما بعد أن المسألة تتعلق بعدم الأثقال على "النسيب"، مع أنني لم أكن ثقيلاً، ولم ألاحظ ولو مرة واحدة أنني غير مرغوب فيه.. ولكن أبي رآها غير ذلك، وكان لا بد من حل، فما هو الحل؟.

الأجازة وأنا في الصف الثالث مستحيلة، والسفر ذهاباً وإيابا كل صباح من كريمة شاقه على طفل في العاشرة. لا بد إذن الاعتماد على الذات، تماما كما تفعل الدول التي تشد الأحزمة خوفاً من الشروط المخلة بكرامتها الوطنية. والاعتماد على الذات هو أن أبقى في البيت، وأن تبقى معي الأخت الوسطى الوحيدة عندنا، فلا خوف علينا. دار عمي إلى جوارنا ودار خالي إلى جوارنا، وأختي تمرست بعمل البيت بعد زواج أختها، وهكذا كان.

كانت أختي الوسطى في الثانية عشرة تقريباً، وهي رفيقة دربي منذ لحظات الوعي الأولى. ولكنها مريضة بالملاريا، تجتاحها موجات حادة من الحمى المصاحبة لهذا المرض كل يوم تقريباً، فترتعش كريشة تحت المطر وتشعر ببردية شديدة. أغطيها وأسقيها الماء حينما لا أكون بالمدرسة وحينما تكون وحدها تفعل ذلك وحدها. كانت ترتب فراشي وتعد طعامي المكون من الزيت

والزيتون وبيض عدد من الدجاجات تركتها أمي لهذا الغرض. أصبحت تقوم بكل الأعمال التي كانت تقوم بها أمي، تعلف الدجاجات، وتغلق باب "الخم" عليها في المساء خوفاً من أن يهاجمها حيوان مفترس، وتزيل الفرن، وتعجن وتخبز وتكنس البيت، وتحدثني كأمي، واقرأ لها ما في كتابي، وأرى في عينيها رغبة شديدة[1] للمعرفة. كانت ذكية هادئة، تقدر المسؤولية كعجوز. شديدة الحرص علي كأم تقوم قابضة على جمر الم الملاريا كراهب.

وكالعادة هبطنا معاً إلى كريمة في عطلة منتصف العام، وهناك وجدت أن وضع أهلي قد تغير. لم أجد الشادر ولا بيت الشعر الذي تخفق فيه الارياح، بل وجدت داراً واسعة في احد إطرافها تقوم حجرتان: أحدهما مضافة لأبي والأخرى لأمي وأخي، وكمستودع للحبوب وأدوات الحراثة والحصاد. شعرت بفرحة غامرة حينما عرفت أنها دارنا، وفرس أبي مربوطة بعيداً في أحد أطراف الساحة. وما أفرحني أكثر أن إحدى القنوات الفرعية الإسمنتية التابعة لمشروع سد وادي كفرنجة تمر وسط الساحة وتقسمها إلى قسمين. هذه القناة تتفرع عن القناة الرئيسية التي تمر بالقرب من منزلنا، في المنطقه الفاصلة بين سور المنزل الشمالي والمقبرة. كنت أمر من فوق تلك القناة على ممرات مكونه من بلاطات عريضة وطويلة وضعت فوقها، واصل إلى المقبرة لأبحث عن قبري الأختين "تركية"، واقرأ الفاتحة. كنت قد حفظتها مع عدد السور القصيرة. لأني كنت شديد الإيمان بمفعولها ضد الخوف والقلق والشر عموماً. كنت لا أنام حتى اقرأها عدة مرات. وحينما أنام على سطح أحد البيوت أو الآفران في ساحة دارنا بالقرية، أنظر إلى النجوم. وأحاول أن أعدها ولكنني سرعان ما أتراجع خوفاً من ظهور " الثأليل" كما كان يقال لنا.

بعد نهاية الموسم التأم شملنا في قريتنا من جديد، وجاءت العطلة، وجاءت النتيجة: ناجح ويرفع إلى الصف الرابع الابتدائي. حلم لم يكن يخطر لي على بال. أصبح أسمي الرسمي: أبن مدرسة، وازددت عند أبي دلالاً على دلال، الدلال هنا هو نسبي. قد يكون شراء حذاء جديد هو ذروة ذلك الدلال، وأصبحت أرافق والدي في كثير من تحركاته داخل القرية وخارجها، فعلى سبيل المثال، ذهبت مع أبي إلى بلدة كفرنجة ضمن جاهه لإحضار عروس من هناك لأحد أبناء القرية المنعمين "محمد صالح" ركبنا في باص، واستقبلنا أهل العروس بالترحاب، وتناولنا طعام

(١) حينما كبرت علمها أولادها القراءة والكتابة "محو الامية".

الغداء وعند العصر تحرك موكب العروس بعد أن أوفى أحد أقارب العريس بكل المتطلبات اللازمة، عباءة الخال وعباءة العم وبقيت ذبيحة الشباب أو عباءة الشباب. وما أن ابتعد الباص بنا عن البلدة حتى تهاوت علينا الحجارة من كل حدب وصوب، وأصاب أحدها زجاج الباص فكسر. توقف الموكب كله، وهبط منه قريب العريس ودعا إليه الشباب الذين يضربون الحجارة فجاء ممثل عنهم وقال:

- نحن لسنا أنذالا كي تأخذوا أبنتنا دون حقوق شباب قريتها.

وتم الاتفاق على مبلغ من المال تسلمه الشاب ثم أسرع به إلى العروس فدفعه إليها وهو يقول:

- هذا نقوط شباب قريتك فاقبليه.

وتمت باقي الإجراءات بسلام. كنت أرافق والدي إلى المضافات وأجلس معه حينها يأتي ألينا رجال وأسمع ما يقولون. وكثيراً ما كان يرد فني وراءه حينها يذهب لزيارة صديق في مكان ما خارج القرية، سليخات، الحروث، الشيخ رائد، أو فاره –الهاشمية اليوم- هذا جانب. أما الجانب الأخر فكان صداقاتي مع الأولاد أبناء صفي أو الأكبر قليلاً التي مذ أخذت تتبلور على نحو أوضح. فقد عرفت طعمه العيسى واحمد العبد الله. وعبد الله العكوبة وزهير المطلق وهو حفيد ذلك الثري الذي كنا نستأجر ارضه. كان معنا فريد العطيه "اخوه توفيق من جيل أخي وصديقه". وكان معنا من حارة البدور إميل النور ورفائيل عيسى وعبد الله الفرحان. كنا نخرج بمجموعات إلى خارج القرية ونلعب بكرة متطورة من الاسفنج: نلعب: "حجي وأرجع"، ولعبة "المور" وغيرها. كنت أعود إلى البيت في المساء معفرا بالتراب، ألهث من التعب، فأكل ما تيسر ثم أنام مترقبا صبيحة اليوم التالي كي أخرج إلى الشلة، وأكون مع الناس.

كان أحدنا حين يجد ما يطلب به كاساً من الشاي في المقهى يذهب إلى هناك ويجلس لاحباً بالشاي ولكن حباً في الاستماع إلى الراديو. لم يكن في القرية كلها ألا ثلاثة من أجهزة الراديو: أحدها في المقهى والأخر لدى صديق لنا أكبر سنا اسمه "محمد المزعل" والثالث في بيت زهير. وللراديو معي قصة طويلة سارويها مفصلة:

أول ما عرفت الراديو في مقهى القرية. صندوق متوسط الحجم تتقدمه: مفاتيح وتتوسط واجهته الامامية شاشة على شكل شبك حديدي رمادي، وعلى طول الواجهة الامامية شريط

زجاجي ضيق يكشف عن أرقام وحروف بلغة غير عربية. يتوسطها مؤشر يتحرك إذا حرك أحدهم المفاتيح وهي على شكل أزرار كبيرة وحينما تتحرك الأزرار وتحرك المؤشر فإن الصوت الصادر من الصندوق يتغير مع بعض الخشخشات التي سرعان ما تزول بعد أحكام المؤشر على الوضع المطلوب. الصندوق كله مرتبط بكوابل نحاسية مزدوجة مغطاة تنتهي بقطع حديدية على شكل ملقط قابض على نتوئين في صندوق آخر لا يقل حجم عن حجم الراديو اسمه "البطارية". وكانت تلك البطارية تحمل وترسل إلى عجلون إذا أريد شحنها، فيتوقف الناس عن سماع الراديو لمدة يومين أو ثلاثة. وحينما تحضر البطارية فإن الفرحة تعمر قلوب مرتادي المقهى كي يستمعوا إلى نشرة الأخبار من إذاعة المملكة الأردنية الهاشمية من القدس، أو من محطة الشرق الأدنى للإذاعة العربية والتي هي الـB.B.C حالياً.

كان خيالي يتحرك باتجاه هذا الراديو، آملا أن أمتلك مثله ذات يوم، وأن أحظى بنعمة الاستماع إلى ما أريد منه وأن تكون لي الرخصة أن تمتد يدي إلى المفاتيح فأغيرها وأستمع إلى الأغنيات بخاصة. كانت تلك الأغنيات مختلفة نغماً وأداء عما أسمع في حفلات الإعراس، وأهازيج الحصادين. كانت شيئا رائعاً مقنناً. نغمة يتلوها صوت يمتد ويتصاعد حتى يخيم على الوجدان فيعبره بسهولة. كان بعض مرتادي المقهى يحبون الأخبار. لم تكن أذني تلتقط من تلك الإخبار ألا أسم: محطة الشرق الأدنى للإذاعة العربية، وكلمة "كوريا"، والحرب، وشمالية، وجنوبية فلسطين وإسرائيل واليهود. ولم يكن عبورنا إلى المقهى هيناً، بل كان مشروطاً بطلب قهوة أو شاي في الغالب، وكان ثمن الطلب "تعريفة" خمسة فلسات لم نكن نملكها، أو بيضة، أو حفنة من القمح أو الزيتون. وكنت أترقب الدجاجات حتى تبيض فاتسلل إلى "الخم" خلسة عن أمي فالتقط بيضة واحدة، واهرع إلى المقهى، فاجلس ليوضع أمامي كوب الشاي أو القرفة لا رغبة لي فيه، وأرنو إلى الراديو لإستمع، واستمعت: وعرفت آنذاك عدداً من الاسماء التي تغني من بينها: وديع الصافي: عاللوما اللوما، فيروز "وقف يا أسمر"، فريد الاطرش "وياك" صباح "دخل عيونك حاكينا" نجاح سلام "الشب الاسمر"، محمد سلمان "يا ست قديش الساعة"، كارم محمود " سمرا يا سمرا" وكانت أسماء أخرى تتردد: فايزه أحمد، نور الهدى، صابر الصفح، حليم الرومي، عبد الغني السيد، توفيق النمري وآخرين. كنت أشعر بأنتكاسة مريعة حينما أعبر

إلى المقهى وأسلم البيضة ويؤتى بالشاي ويبقي الراديو صامتاً. وحينما اسأل عن السبب يقال لي: أنه توفير للبطارية. فمن غير المعقول أن يفتح الراديو لزبون واحد، أو أنظر فلا أجد البطارية لأنها في رحلة الشحن المعتادة.

وأظل في موضوع الراديو لأقول أنه في حالة استحالة الحصول على البيضة أو التعريفة فكنت أكتفي بالوقوف عند شباك المقهى واستمع، وبخاصة إلى عرض البرامج الذي يبين لي مواعيد بث المنوعات الغنائية، فاحضر للاستماع أما مدججاً بثمن الطلب أو من خلال الشباك. إلى أن فتحت لي آفاق جديدة وهي أن راديو المقهى ليس الوحيد في القرية، فهناك اثنان من أصدقائي يملكان هذا الجهاز، احدهما أكبر مني سنا والأخر في صفي. أما الأكبر سنا فكنا نذهب إليه في مجموعات، فنستمع على الراديو، كما نريد وحظيت لأول مرة بمتعة تحريك المفتاح بيدي دون خوف. كان الشاب ودوداً معنا يكبرنا بثلاث أو أربعة سنوات: اسمه محمد المزعل نتحدث ونستمع ونضحك ويقدم لنا واجب الضيافة ثم نخرج مسرورين.

أما الآخر الذي في صفي فهو حفيد ذلك الثري الذي كنا نستأجر منه الأرض. بيتهم يتكون من ثلاثة أمكنة تمتد من الغرب إلى الشرق. العقد البرانى من الغرب، وهو بناء من الحجر، تصعد على مدخله من خلال درج أنيق له درابزين غير معهودة في القرية، قيل لنا أن شقيق جده المختار قد أستضاف فيه الجنرال "كلوب"في الثلاثينيات، أما البناء الذي يليه فهو بيت قديم يعبر إليه من باب في العقد البراني. ومنه باب يقضي إلى العقد الجواني. ويبدو أن ذلك العقد الجداني هو الذي تجلس فيه الاسرة، ويتربع فيه جهاز الراديو. الواجهة الشرقية للعقد الجداني هي التي تسوّر دارنا من الغرب. وكانت فيها فتحة سفلية لا أعرف الغرض منها ولكنني كنت أضع أذني عندها واستمع إلى الراديو. إذ قلما كنت أعبر إلى العقد الجواني لاستمع إلى الراديو مباشرة لوجود العائلة في ذلك المكان. وكنت لا أذهب ألا لشرح بعض الدروس لزهير الذي كان متوسط الذكاء. ليس في تلك السنة بل في سنوات لاحقة. وفي تلك السنة حدث ما زلزل المسامع كلها، ونشر الحزن والألم في كل قلب ألا قلوبنا نحن الصغار التي كانت تسمع ما حدث ولكنها لا تدرك مغزى ما حدث، فماذا حدث؟

كنت أقف أمام البيت: ربما كنت أترقب الدجاجة أن تبيض أو كنت أعد "القلول" التي في جيبي، أو كنت أطلب من أمي أن تخيط لي ثقباً جديداً في "بنطلوني" الحافل بالرقع. حينما جاء

أخي محمود من الخارج وبيده ورقة، دفع بها إلي وهو يقول "خذ اقرأ هالقصيدة اللي كتبها طه العلي". كنت أستطيع القراءة بسهولة، فأنا مرفع إلى الصف الرابع وأبن مدرسة. وربما كان أخي فخوراً بي وهو يأخذ القصيدة من الشاعر ليقرأها أخوه الذي يعرف القراءة. فتحت الورقة وأنا مندهش مما يجري حولي فقال أخي "الملك عبدا لله "انكتل". لم أكن أعرف عن الملك عبد الله ألا أنه ملكنا ولديه مطبعة لطباعة نقود لا حصر لها، ويسكن في قصر. لم نكن قد رأينا صورته ولا سمعنا صوته. إلا أن استشهاده قد حفر في قلوبنا الصغيرة جرحاً لا يندمل. ورسم على وجوهنا حزنا لا يزول، وقرأت:

- نبدي بذكر اللي على المخاليق منان   راعي الأمة أول وتاليها
- يقول طه من ضمير فنان   بيض الليالي صار الحزن فيها
- طلال ولي العهد زينة الشبان   والأمير نايف وصي اليوم فيها

هذه الأبيات حفظتها فورا بعد قراءتي لها، وبدأت أدرك أن أمراً ما قد حدث، ألا أن بعد قريتنا عن مراكز المدن وعدم انعكاس الإحداث الخارجية عليها قد جعلني أنسى هذا الأمر وأعود إلى اهتماماتي باللعب وسماع الأغنيات من راديو المقهى بخاصة. بدأت أتفاعل مع بعض النغمات الموسيقية وتتشكل ذائقتي باتجاه هذا المطرب أو ذاك. كنت أستمع إلى النغمة إلى حد الذي تذوقت فيه مقدمة "نجوم الليل" لفريد الأطرش، وهي مقدمة موسيقية معقدة جداً. وكانت ذائقتي تلتقط بعض النغمات الأخرى في مطلع أغانيه أو في وسطها أو في آخر "كوبليهاتها". وحينما تابعت البرنامج التلفزيوني الذي أعده أحد النقاد الموسيقيين عن فريد الأطرش بعد خمسين عام والذي قدم في ٣٠ ساعة تلفزيونية، وكانت مقدمة نجوم الليل هي إشارة البرنامج أدركت كم كنت متقدماً في ذائقتي الموسيقية. وكانت كثير من النغمات التي حللها البرنامج وعلي جهاز الكمبيوتر أحياناً من بين النغمات التي عبرت ذائقتي آنذاك. ولم يكن فريد وحده هو شاغل رغبتي في الاستماع. كانت هناك اسمهان وفايزة أحمد وأم كلثوم في أغانيها القصيرة "غني لي اشوي اشوي" و"ياليله العيد" و"على بلد المحبوب". كان هناك كارم محمود الذي عرفته بأغنية سمرا. كان هناك عبد العزيز محمود وهدى سلطان بأغنية "تكسي الغرام" ولاموني. كان هناك

ياسين محمود بأغنيته الشهيرة: آلولي كن، كنت اتساءل: كيف تتكرر كلمة محمود علي ثلاثة من المطربين.

في تلك الإثناء تعلمت لعب الورق في المقهى. كنا نعبر ثلاثة أو أربعة صبية مدججين بأثمان نقدية أو عينيه لطلبات المقهى. تعلمت الباصرة أولا، ثم لعبة الهَد" ثم البناكل فيما بعد. تعلمتاها من الجلوس إلى جوار اللاعبين الأكبر منا سناً. اذكر أن بعضهم كان يقول وهو يسحب الورقة متأملاً أن "يضمن"، يعني ينهي اللعبة بالربح فيقول: تعال ضمنّ يقولها: باللهجة المصرية مشيراً بها إلى أغنية فريد الأطرش الشهيرة التي تحمل اسم أحد افلامه: تعال سلم. كنا نسمعهم يتحدثون عن مقتبساتهم من دور السينما التي يذهبون إليها في اربد ونابلس والزرقاء: نسمعهم يتحدثون عن أسماء مثل: أنور وجدي، أحمد رمزي إسماعيل ياسين وتوفيق الدقن. الأستاذ حمام "نجيب الريحاني" فكثير أما كانوا يغنون أستاذ حمام نحن الزغاليل. وأبجد هوز حطي كلمٌ شكل الأستاذ بقي منسجمٌ، بدل الماهيه راح أخذ صرمٌ. كان خيالي يسرح في عوالم مجهولة مترقباً الزمن الذي سيحملني إلى عوالم هؤلاء فألجها. لم أكن أعرف شيئا عن المدينة والسينما باستثناء تجربة صغيرة عشتها قبل دخولي إلى المدرسة، أو أثناء أجازتي في الصف الأول.

خلال تلك الفترة وعدني والدي أن يأخذني معه إلى نابلس حينما يسافر إليها في رحلته السنوية ليبيع فائض الحبوب وشراء أشياء من المدينة لاحتياجاتنا قبل أن نصعد إلى القرية. ظللت أترقب مراحل العملية الزراعية من التعشيب وحتى ظهور سنابل القمح الخضراء واختيار بعضها لاستخراج "الفريكة"، مروراً بأصفرار السنابل وحصادها ونقلها إلى البيدر ثم هرسها واستخراج القمح أوالشعير منها. واذكر في تلك السنة أن نقل السنابل من الحقل إلى البيدر كان يتم بواسطة شاحنة صغيرة بدل الدواب والقوادم. وكانت السيارة الوحيدة التي تتعامل مع الفلاحين آنذاك هي سيارة لرجل يدعى "الرديني" على ما أذكر، جاءت السيارة إلى حقلنا وامتلأ صندوقها بالسنابل وركب والدي إلى جوار السائق وركبت إلى جواره. وما أن بدأت السيارة بالتحرك حتى شعرت بخوف وبدأت ابكي واطلب النزول وضحك والدي والسائق وتمكنا من غرس الاطمئنان في قلبي. وما هي غير لحظات حتى هدأت والسيارة تتمايل بنا وتهتز من خلال

مسيرها وسط الحقول المليئة بالحفر حتى وصلنا إلى البيدر وافرغت الحمولة بالشواعيب[1]. وحين هبطت من السيارة تمنيت أن أعود إلى ركوب هذه الآلة التي تتحرك كجبل صغير، وتعلق أملي برحلة نابلس بعد البيدر.

وتأتي اللحظة المنتظرة، وتحمل أكياس القمح على سقف الباص الوحيد المسافر على خط مكتوب على واجهة: عجلون –كفرنجة –كريمة –نابلس وبالعكس. كان الباص ينام في عجلون ويهبط من الصباح الباكر إلى كفرنجة، ومنها إلى كريمة، ومن هناك إلى نابلس. جلست على المقعد، وتحرك الباص في رحلة العمر، كنت أنظر من خلال الشباك كيف تطوى الأرض تحته، وتمر أعمدة الهاتف مسرعة من إلى جواره وكأنها أبقار مذعورة. وكنت أحياناً التقط شاخصة حجرية مكتوبة عليها رقم يتناقص كلما ابتعدنا، أن قدرتي عل قراءة الرقم تشير إلى أن الرحلة قد تمت خلال إجازتي الطويلة في الصف الأول. فقد كنت قد حفظت الأرقام والأحرف الهجائية. ومما لاحظته خلال تلك الرحلة بعد دقائق من انطلاق الباص، أن سرعته قد خفت وأنه قد ترك الطريق الرئيسي المعبد، وانحرف إلى طريق فرعي ترابي، وقطع مجرى ماء بكل هدوء ثم عاد إلى الطريق الرئيسي مما يدل على أن هناك عمليات أصلاح لجسر أو ما شابه. وظل الباص مندفعاً حتى وصل إلى مثلث طرق عرفت فيها بعد أن اسمه "المثلث المصري" وهناك غير اتجاهه نحو الغرب، وقطعنا جسراً معلقاً فوق النهر. كانت ارضية الجسر خشبية متباعدة تحدث نوعاً من الارتجاج للباص الذي واصل طريقه نحو الغرب عبر طريق ضيق يلتوي أحياناً بين تلال قليلة الارتفاع وأحياناً يهبط على سهل منبسط إلى أن صعد منطقة جبلية فسار بها قليلاً ثم توقف عند وادٍ تتكاثف حوله الأشجار و تؤطره سفوح جبال صخرية. هبط الركاب تلقائياً وكأنها عملية الهبوط هي جزء من الرحلة. هبطنا وسألت والدي فقال: "هذا اسمه وادي الباذان"، هناك مقهى، وأعداد كبيرة من الكراسي منتشرة على ضفاف الجدول الذي يشكل هناك ما يشبه البحيرة الصغيرة وإلى جوارها تصطف سلال العنب والتين والعناب والدراق. شربنا الشاي واسترحنا قليلاً ثم واصلنا السير إلى مدينة نابلس.

---

(١) الشاعوب: أداه حديدية تشبه أصابع اليد الطويلة تنتهي بعصا طويلة تستعمل لتحريك كميات كبيرة من القش بجهد قليل.

عبرت إلى مدينة نابلس كالمذهول، أتأمل من خلال شباك الباص المباني ذات الطوابق العالية، والطرقات المعبدة، وسفوح الكروم المغطاة بأشجار الكرمة والزيتون والصبر. كان الباص يسير عبر طريقه المرسوم حتى وصل إلى تلة عالية وسط المدينة يصطف عليها عدد من الباصات: وقف باصنا إلى جوارها وكأنما ذلك المكان محجوز لوقوفه منذ الأزل. وما أن هبطنا من الباص حتى تهافت علينا الباعة المتجولون تميز من بينهم بائع من عربة عليها كعكٌ وبيض وجبنة وفلافل، "عرفت ذلك فيما بعد" فأنا لم أكن من قبل قد شاهدت الكعك والفلافل والجبنة"، وكان ينادي بصوته الموسيقي العذب:

"كعك السخن، فلافل وبيض وجبن".

لا أدري ماذا حدث بعد ذلك، ولا كيف تقل القمح من على ظهر الباص إلى تاجر الحبوب الذي سأصفه فيما بعد وأسمه جمال المصري.

ولكن ذاكرتي لم تسجل بعد هبوطنا من الباص سوى لحظة دخولنا إلى فندق التاج. صعدنا إليه من خلال درج. رحب بنا صاحبه المدعو "أبو يوسف"، وكأنه يعرفنا، أو كأنما ذلك الفندق كان مخصصاً لاستقبال الفلاحين الوافدين على نابلس من كل إرجاء المملكة. كانت ارض الفندق المبلطة على شكل نقوش هندسية رائعة هي أول ما لفت أنتباهي. واذكر أنه كان على الباب قفص فيه طائر زاهي الألوان قيل لي أنه "ببغاء، وانه يتكلم وانه يرد السلام". استرحنا قليلاً في الفندق ثم خرجنا فدخلنا إلى محل الحلويات عرفت فيما بعد أنه مشهور وأنه اسمه هو "العكر"، أكلنا نوعا من الحلوى اللذيذة اسمها "كنافة"، ثم لا أدري كيف وجدت نفسي مع أبي في دار للسينما عرفت فيما بعد أنها "سينما العاصي"، وهناك شاشة كبيرة كل ما اذكره من الفيلم أن هناك امرأة تغني غناء بطيئا ممطوطاً لم استمتع به ولم أميز كلمة واحدة منه، وربما سبب ذلك يعود إلى شعوري برغبة في التبول لم استطع الإفصاح عنها بسبب الخجل. وحينما عدنا إلى الفندق توقف والدي أمام "الببغاء" وقال كأنه يسلم على رجل في المضافة: "السلام عليكم"، ولم يرد الطائر وعبرنا إلى الداخل وهرعت أنا إلى الحمام دون تردد، واذكر إننا قد نمنا تلك الليلة فوق سطوح الفندق لكثرة مرتاديه.

وفي صباح اليوم التالي مشيت مع والدي في شوارع نابلس وعبرنا إلى السوق العتم، وخرجنا منه باتجاه سوق تجاري آخر. توقفنا أمام محل تجاري يجلس أمامه رجل سمين ذو كرش لم أشاهد

مثلها وعلى رأسه طربوش احمر وأمامه ارجيله، وحوله عدد من أكياس الحبوب قمح، شعير، عدس، حمص، سمسم. من كل عينه كيس. رحب بنا الرجل ورأيته يتحاسب مع والدي ويعطيه نقوداً، لقد بدأ واضحاً أنه هو الذي اشترى الحبوب التي كانت محملة على الباص، ولكن أين يضع كل تلك الحبوب التي يشتريها؟ فأنا لم أشاهد في دكانه سوى بضع أكياس من هذه الحبوب. وعرفت فيما بعد أن المحل لا يحتوي ألا على عينات، بينما هناك مخازن هائلة ملأي بالحبوب في مكان ما من المدينة. واذكر بعد ذلك إلى أننا قد تغدينا في منزله. منزل ذو حديقة واسعة في ضواحي نابلس. الحديثه معرشة بأشجار الدوالي المثبتة فوق مواسير حديدية. اذكر أن من بين الطعام ورق دوالي وأن الرجل قد أهداني بدلة كاكي ذات بنطلون قصير ماركة الخاروف، وعدنا.

وأعود أنا من رحلة ذكرياتي إلى ثلاث سنوات بعدها، إلى ذلك الصيف الذي استشهد فيه الملك المؤسس عبد الله بن الحسين، واقتراب موعد قطاف الزيتون الذي أعد له أحد المغامرين النشطاء من المزارعين معصرة آلية. اسمه محمد أحمد ولقبه "أبو اسعد" أو أبو العكوية. والعكوية هو لقب أمه، وأبنه عبد الله أحد أفراد مجموعتي هو أبنه ويدعى أيضاً عبد الله العكوية. جاءت المعصرة لتختصر زمناً وجهداً على أصحاب مزارع الزيتون، فالزيتون يقطف عن الشجرة ثم لا تمضي ساعة ألا والزيت في الجرار. وبعد ذلك بسنوات انشئت في القرية معصرة أخرى لنسيبنا "الخيزقيه"، وبني لها "بركس" واسع على تخوم داره.

- ٥ -

اكتمل في ذلك الصيف بناء مدرسة جديدة. موقعها إلى الشمال الغربي من القرية، تطل على الغور والتلال المحيطة به، ومن إلى جوارها تمر الطريق المؤدية إلى "سليخات"، والمدرسة أربع حجرات مبنية من الحجر الخالص. استخدمت أحداها كإدارة ونقلت إليها جميع الأوراق والكراسي والخزائن من المدرسة القديمة. ولم يأت ذلك الصيف بمدرسة جديدة وحسب بل جاء بمعلم جديد. نقل الأستاذ يوسف ولم يعد إلى القرية منذ ذلك الوقت وبقيت ذكراه، لأنه الأستاذ الأول المؤسس الذي لا ينسى. "قُدر لي أن أزور الرمثا بعد ذلك بخمسين عاما وسألت عنه فقيل لي أنه لا يزال على قيد الحياة. كنت حريصاً على زيارته ألا أن الوقت لم يسمح لي بذلك وهذه خسارة لي بكل تأكيد".

الأستاذ الجديد اسمه "محمد طلفاح". كان بعضهم يسميه محمد الطلافحة، وآخرون يقولون محمد الطلايحي. شاب وسيم ذو شخصية قيادية طاغية. عمل على تنظيم المدرسة بسرعة فائقة. خصص حجرة للإدارة، وأخرى للصفين الأول والثاني والحجرتين الأخريين للصف الثالث والرابع، وابرق إلى وزارة المعارف أنه لا يستطيع أن يدرس أربعة صفوف وحده فأرسل له معلم ثاني. اسمه تيسير على ما أذكر. حينها بدأت الدراسة وجد أن الطلاب لا يأبهون بدروسهم ولا بأوقات حضورهم وانصرافهم كانوا مدللين لدى الأستاذ يوسف. فثار ثورة الحَجاج على أهل العراق، فعبر إلى أعلى الصفوف الذي يضم أكبر الطلاب عمراً، وبيديه عصا. كانت الفوضى والصياح، والتنقل من مقعد إلى مقعد على أشدها. لم يأبه أحد بدخوله فقال ما معناه: "أهكذا عودكم من كان قبلي؟،" ثم صرخ آمراً أن يجلس كل واحد في مكانه. كان قد لاحظ أن أكبر الطلاب عمراً وجسماً هو مصدر الفوضى، فطلب منه التحرك إليه بسرعة. تردد الطالب مستهزئاً فصرخ به أن يفعل ذلك ثم شده من سترته وقذف به إلى الحائط الذي يتكئ عليه اللوح وقال له أفتح يدك. تردد الطالب فصفعه على وجهه عدة مرات أضطر الطالب بعدها أن يفتح يده وهوت العصا على يديه أكثر من عشرين مرة. ثم أمره أن يخلع حذاءه ففعل، وجاء بكرسي جلس عليه ثم

نادى أحد الطلاب وأمره أن يمسك بقدميه ويرفعهما إلى أعلى، وراحت العصا تنهال على قدميه وسط صراخ شديد، ثم أمره أن يعود إلى مكانه ثم نظر ألينا وقال ما معناه:

- أنا سأربيكم.

قال ذلك وخرج، وأصبح يُخاف بالرعب من مسيرة ساعة، وانتظمنا في صفوف دراسة نموذجية منذ ذلك التاريخ بعد أن علمت الصفوف الأخرى بما جرى لأكبرنا سناً، وأكثرنا مشاكسة. ولم يكن الأستاذ تيسير بأقل قسوة منه، فسارت المدرسة كما تسير الساعة. النظام، الهدوء، الاجتهاد. وحينما أقبل الشتاء كان على كل واحد منا، وطلاب الرابع بخاصة أن يحضر قطع من الحطب إلى حجرة المعلم، وألا تعرض للعقاب في اليوم التالي. وقد أختار الأستاذ أحدنا ليسجل أسماء المسددين لضريبة الحطب. أما أنا فقد نسيت أن أذكر أنني كنت مع أختي الوسطى كما في السنة السابقة، وأكثر المسارعين إلى تسديد ما علي من ضريبة الحطب.

وحينما جاءت العطلة الصيفية كنت أحمل شهادة تؤكد ترفيعي إلى الصف الخامس. ولكن أين الخامس؟ رفض الأستاذ "طلفاح" أن يفتح صفاً للخامس بمعلمين أثنين، وأخطر أولياء أمورنا أنه إذا لم ترسل وزارة المعارف معلماً ثالثاً فلا مجال لصف جديد، وعلى أولياء أمورنا نحن طلاب الصف الرابع تدبر أمر أولادهم وتسجيلهم في مدارس أخرى في عجلون أو كفرنجة. ولما كان سن الطلاب صغيراً، ومعظمهم لم يتجاوز الثانية عشرة، فقد كان من الصعب إرسالهم إلى تلك المناطق البعيدة نسبياً. ولم يكن هناك من مخرج لهذه المعضلة ألا أن يعيد طلاب الرابع صفهم من جديد في أنتظار متغيرين: الأول هو أن سنهّم سوف يرتفع ولو قليلاً، والثاني أن الوزارة قد ترسل معلماً ثالثاً. ومما أذكره في ذلك الصيف هو حدث دراما تبكي غير مسبوق هز القرية كلها، ذلك الحدث هو أن زوج أختي الكبرى قد شعر بمغص شديد في الجانب الأيمن من بطنه، ولما كان قادراً على دفع نفقات العلاج فلم يقتصر علاجه على الميرميه والمسكنات العشبية، بل طلبت له سيارة جواد ونقل إلى المستشفى المعمداني في عجلون. وتبين التهاب رائدته الدودية، حيث تم استئصالها بعد فتح البطن فتحة زاد طولها عن شبر. وحينما عاد إلى القرية ذهل البعض، ولم يصدق آخرون، كيف يفتح بطن الإنسان بسكين ثم يخياط كما يخاط الثوب دون أن يموت؟، وكيف احتمل ألم ذلك الشق الهائل في خاصرته؟ وحينما عادت به السيارة استقبل بالاحتفالات وإطلاق

الرصاص والزغاريد والولائم التي استمرت ثلاثة أيام، ألا أنه قد حمل منذ ذلك التاريخ لقباً جديداً هو لقب "المسطوح".

أعدنا الصف الرابع، ومر العام كسابقه. جهد قليل في المطالعة والاجتهاد لأن الدروس هي، هي لم تتغير، ألا أن الفلسفة النابعة من الإعادة هي في الواقع فلسفة عميقة. إذ بالإضافة إلى السببين: السن والأمل بوصول معلم ثالث. فهناك حكمة أخرى وهي عدم الانقطاع عن المدرسة، فلو تم الانقطاع بسبب عدم وصول المعلم لاختلفت المسيرة ومضى بعض الطلاب في اتجاه آخر، وأصبح الصف الرابع هو الصف الأعلى الذي سيصل إليه التعليم في قريتنا لسنوات طويلة، ولتغير مسار عدد من الطلبة الذين أصبح لهم فيها بعد شأن بارز في مجالات العلم والطب والاقتصاد والوظائف العامة. ولا بد أن أشير إلى أن التغير الوحيد الذي حدث ذلك العام بالنسبة لي هو حاجة أهلي إلى أختي الوسطى معهم في بيتنا بـ "كريمة". وكان علي أن أسافر كل صباح من كريمة إلى القرية وأعود في المساء، وأقطع كل يوم عشرين كيلومترا مشيا على الأقدام. فكان علينا أن نغادر كريمة مع آذان الفجر لنصل قبل الثامنة بدقائق والا نتعرض للعقاب بعدد من ضربات العصا على راحة اليد. وكنا نذهب إلى رجل في القرية يقال له "عطية كان صديقاً للأستاذ محمد طلفاح كي يذهب معنا ويتوسط لإعفائنا من العقاب فيقول: "تريدون أن أذهب معكم إلى الطلايحي، هيا" ونذهب. ويعد الأستاذ بعدم عقابنا، ألا أن العقاب ينفذ بعد ذهاب عطية، وأصبح الذهاب إلى عطية مضيعة للوقت وعلينا أن نتحمل العقاب الذي لا بد منه. لم تكن لدى أي منا ساعة وكنا حين نصل إلى ساحة المدرسة ونجدها خالية من الطلاب نعرف أن الجرس قد ضرب وأن العقاب آتٍ لا ريب فيه. وكان الطلاب القادمون من "سليخات" يسافرون مثلنا بين قريتهم والمدرسة، ألا أن المسافة هي أقل بمقدار النصف، وأن لدى احدهم ويدعى محمد نهار السواعي(١) ساعة يستطيعون من خلالها تحديد الوقت الذي يصلون فيه.

وكالعادة فقد جاء الخريف، وهبطنا إلى حقل الزيتون وأقمنا تحت زيتونه. وبدأ العمل بالقطاف. ولكن كان علينا أن نتدبر امر الصف الخامس الذي لم يتحقق في مدرستنا. إذ بدأت الدراسة ومن غير المعقول أن نعيد الصف الرابع للمرة الثالثة. وأصبح علينا أن نبحث عن مقعد

---

(١) محمد نهار السواعي: أحد زملاء صفي هو الآن بروفسور بارز يدرس في الجامعات الامريكية

في مدرسة عجلون أو كفرنجة. التقيت فجأة بأحد زملاء صفي وأسمه عبد الكريم العواد[1]. وهو من سكان "سليخات". وحقل الزيتون الذي نقيم به هو على طريق "سليخات" اتفقت معه أن نذهب معاً إلى عجلون للتسجيل، وأن يمر بي في طريقه فنصعد معاً. وفي الطريق إلى عجلون مررنا بالقرية واصطحبنا معنا أثنين أو ثلاثة لا اذكرهم آنذاك. وفي عجلون سألنا عن المدرسة، وصعدنا إليها على تله مشرفه على المدينة وعبرنا إلى مدير المدرسة، وطلبنا التسجيل للصف الخامس، فأعتذر وقال ما اذكره بالحرف الواحد: "متأسفين يا شباب ما عندنا مقاعد". وخرجنا مذهولين. ماذا سنفعل؟ هل سنعود إلى قريتنا باكين مولولين؟ أقترح أحدنا –قد أكون أنا –أن لا نيأس وأن نهبط إلى كفرنجة القريبة ونجرب حظنا في مدرستها. وبالفعل هبطنا الوادي المظلل بالأشجار الكثيفة التي تذكرني اليوم بـ "شعب بوان" ببلاد فارس ووصف المتنبي له:

- مغاني الشعب طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان
- وألقى الشرق منها في ثيابي دنانير تفر من البنان

كنا نسير في الوادي فرحين، سعداء، لم تشعر أقدامنا ولا أجسامنا بالتعب لنصل إلى كفرنجة ونصعد ثانية إلى مدرستها القائمة فوق تله مشرفة على القرية الكبيرة. وعبرنا إلى المدير. وكم كانت فرحتنا حينما سجلت أسماؤنا في سجل المدرسة الكبير، واعطينا أياماً كي ننتظم في الدراسة. وعدنا إلى القرية، ووصلت أنا إلى مكان إقامتنا في الزيتون عند المساء. وواصل عبد الكريم طريقه إلى "سليخات"، وأصبحنا بعد أن قطعنا في الذهاب والإياب مسافة تزيد على ٤٠ كيلو متر آنذاك وجها لوجه أمام مشكله الإقامة في كفرنجة. كنت أشاهد والدي يتركنا ويذهب إلى القرية ثم يعود، ثم يذهب ثم يعود حتى يتضح أنه كان يخطط مع أحد أصدقائه وأقاربه واسمه سليم لكيفية إقامتنا في كفرنجة ابنه محمد[2] كان قد سجل هناك. لا أدري هل كان في رحلة الأربعين كيلومتراً أو سجل وحده. كل ما أدريه أنني وجدت نفسي مع محمد وأبن عمه أحمد[3] على سدة

(١) هو الآن محام مشهور في عمان واربد

(٢) محمد سليم: أكمل دراسة الحقوق في القاهرة وباريس ثم عُين في المطبوعات وانتقل للتدريس في الجامعة الأردنية وأصبح عميداً لكلية الحقوق حتى تقاعد.

(٣) أحمد العبد الله: أحد أقرب الأصدقاء إلى، كنا نسكن معاً في كفرنجة حيثما تنقلنا سافر إلى المانيا؟؟ وعبرت عن ذلك بقصيدة شعر.

بيت قديم لامرأة عجوز اسمها أم داود. لا أدري ما صلة قرابتها بأبي محمد. البيت يشبه بيتنا في القرية ألا أنه أكثر قِدماً وأقل مساحة كما قدرت. تعبر من الباب ثم ترتقي بواسطة سلم أو درج لا أذكر إلى سدة قريبة من السقف، يكاد رأس الواحد منا أن يلامس خشب السقف. وفي نظرة من السدة إلى أسفل البيت كنا نشاهد مجموعة من الأبقار تنام هناك. لا أذكر أين كان ينام أهل البيت، ولا من هم باستثناء العجوز أم داود التي كنت أراها شديدة الاهتمام بـ "محمد" أكثر من اهتمامها بي وبابن عمه أحمد واضرب على ذلك مثلاً:

لقد صادف أن اقيم في القرية عرس لعمي محمد الذي كان بالكاد يحصل على إجازة من عمله في الجيش العربي الأردني. وكان قد خطب أخت صهرنا قبل عامين. وبعد أنتهاء العرس وذبح الذبائح أرسلت لنا قطع كبيرة من اللحم. طبختها أم داهود. ويبدو أنها قد خصصت الجزء الأكبر منها لمحمد فأصيب بما يشبه الاسهال فظل يراجع طيلة الليل فشعرنا أنا واحمد بالارتياح على اعتبار أن العدالة قد تحققت وأن الله كبير. كانت كفرنجة بالنسبة لقريتنا أشبه بالمدينة. فيها اسواق ولحامون ومكتب بريد ومدرسة ثانوية وباص يومي بينها وبين أربد مروراً بعجلون. وفي كفرنجة عرفنا حلوى لذيذة اسمها "الهريسة". كنا نشتري منها الاوقية بتعريفة أو قرش. وقد راهنّا أحمد ذات يوم بأنه يستطيع أكل "طبق" الهريسة كاملاً، وكان عبارة عن صينية تتسع لأكثر من أثنين إلى ثلاث كيلو غرامات، وتم الرهان، أذا أكلها كلها فحلال عليه ونحن ندفع ثمنها، واذا أعجز عن ذلك فهو مكلف بدفع ثمن ما أكل. وبدأ أحمد يأكل، ونحن نضع ايدينا على قلوبنا خوفاً من قدرته على ابتلاع الهريسة كلها. كنا أكثر من أربعة أو خمسة، وبدأ السدر ينفد، وبقيت اللقمة الأخيرة التي وضعها أحمد في فمه وهم أن يبتلعها فلم يجدلها مكانا، ولكنه تظاهر ببلعها وسرعان ما أنتحى جانباً وقاء بكل ما في بطنه، ودفعنا نحن الثمن. ويبدو أن كلينا قد دفع الثمن وتضرر من هذا الرهان الصبياني الخاسر.

في مدرسة كفرنجة تعرفنا إلى عادت ومشاهدات جديدة، منها على سبيل المثال المصافحة لبعضنا كلما التقينا في الصباح. ومنها رؤية تلاميذ كبار في السن رسخت أسماؤهم في ذاكرتنا: أبو عبيلة، حسن الجبالي، علي العزبي، أحمد غريز، محمد الجزازي.

كانوا في الصف الثانوي الثالث ومتقدمين علينا بخمسة صفوف. ومنها كذلك كثرة المعلمين وهَيْبَة المدير، وتشكيلات الصفوف في ساحة المدرسة وانسيابهم إلى الغرف الصفية بكل نظام

واتقان. ولم تطل اقامتنا في كفرنجة طويلاً، إذ جاء البشير من القرية أن معلماً ثالثاً قد جاء إلى القرية، وأن صفاً للخامس الابتدائي قد فتح، فعدنا إلى مدرستنا وأكملنا الصف الخامس فيها. ولقد تكرر هذا السيناريو مع الصف السادس، إذ كان نصفه الأول في كفرنجة ونصفه الثاني في مدرستنا. وبعد أن جاء معلم رابع وفتح صف للسادس الابتدائي، والخلاف الوحيد بين الخامس والسادس هو أنني لم أعد للسكن عند أم داهود، بل سكنت عند جماعة من أصدقاء أخي، ولدى سيدة فاضلة اسمها أم فواز وكان معي أثنان أظنهما زهير وعبد الله العكوبة،

الصف السادس في مدرستنا بالقرية كان مختلفاً وحافلاً بالمخاضات الذهنية والاجتماعية، وحافلاً بالنقلات اللامنهجية التي كانت تستعصي على مداركنا. الصف السادس الابتدائي هو الصف الاخير لنا في مدرسة القرية، والتي ودعناها هذه المرة إلى غير رجعة. كان في المدرسة أربعة من المدرسين ينتمي كل أثنين منهم إلى حزب سياسي معارض للآخر. كان هناك الأستاذ إبراهيم ابو خيط وهو مدير المدرسة. رجل متوسط الطول، باسم المحيّا ولكنه صارم إذا جدّ الجدّ يرتدي البذلة الرسمية وربطة العنق دائماً، شعره كثيف مفروق في الوسط، لديه نشاط وحيويه في أدارة المدرسة. في وجهة ندبة طويلة بارزة كأنها إثر لجرح قديم. و الأستاذ الثاني هو عيد جو يعد. من مدينة عجلون المجاورة. دمث الأخلاق، لديه جاذبية فطرية تجعله محبوباً لدى كل من يراه أو يتعامل معه، يتحدث اللهجة المحكية لاهل القرية. وجهه حنطي مائل إلى البياض شديد التاثير في كل ما يتحدث معه. كان يدرسنا الرياضيات والمواد العلمية. وهو متوسط الطول، قليل الاهتمام بمظهره وأن كان غالب الميل إلى اللباس الرسمي. أما الأستاذ الثالث فهو الأستاذ صبحي، طويل نحيل يرتدي الملابس الكاكي دائما، يتحدث اللهجة المحكية الفلسطينية. اشقر الوجه، ذهبي الشعر. بارز عظام الفكين، رشيق الحركة. كان هو المشرف على العابنا الرياضية وطابور الصباح. أما الأستاذ الرابع فهو الشيخ عامر. طويل نحيل يميل لون وجهه إلى السمره، يرتدي الملابس الشرعية، ويشبه في منظره العام الماذون الشرعي في الافلام المصرية يتحدث اللهجة الفصحى شديد التركيز على الدروس الدينية حفظاً وتطبيقا. كان يأمرنا بالصلاة ويتاكد من أننا قد أديناها بعد الوضوء الكامل. وأذكر أنه قد سألني مرة: هل صليت؟ قلت كاذباً نعم، فقال أرني يديك، وعندما رآها قال لا أثر للماء على جهك ويديك، قلت له: تيممت يا أستاذ. ضحك الأولاد، وهمّ أن يضربني ثم تراجع فقد كنت في مقدمة المتفوقين في أكبر صف دراسي.

أسوق هذه الأوصاف للمدرسين الأربعة لأصل إلى كيفية تصنيفهم إلى فريقين، واثر ذلك على الطلاب، وربما على مستقبلهم فيما بعد: كان المدير أبو خيط و الأستاذ عيد بعثيان. ألا إن الأستاذ عيد هو الأكثر حماساً وبثاً لأفكاره من المدير الهادئ المتزن، وفي الجانب الاخر كان الأستاذ صبحي والشيخ عامر من الأخوان المسلمين. وكان الشيخ عامر هو الأكثر حماساً للجماعة وكان الأستاذ صبحي يؤازره في الظل. ونظراً لانقسام المعلمين فقد انقسم الطلاب أيضاً. ومن الجدير بالتاكيد أن خلاف المدرسين لم يكن ظاهراً. ولم نسمع أو نلاحظ أي طالب منا مشاجرة أو حوار يدل على ذلك الخلاف. ألا أن الميل كان واضحاً كل إلى مجموعة من الطلاب. ووجدت نفسي دون أن أدري في فريق الأستاذ عيد عن طريق زهير، فقد لاحظته يُخفي دفتراً أخضر الغلاف، صغير الحجم بين كتبه ويحرص على أن لا يراه أحد. وكنت أسمع كثيراً أنه مع الأستاذ عيد وينظران إليّ، حتى اسرّ زهير لي عن ما يخفيه واعطاني ذلك الدفتر وطلب مني التزام السرية التامة في قراءته على غلافه:

حزب البعث العربي الاشتراكي

أمة عربية واحدة. ذات رسالة خالدة

وقرأت أسماء مثل: ميشيل عفلق، أكرم الحوراني، بهجت أبو غريبة، صلاح الدين البيطار. وقرأت ما في الداخل فلم أعثر ألا على تنظيرات غير مفهومة لنا، ولكننا وجدت نفسي مشدوداً إلى الأستاذ عيد ومن ورائه المدير إبراهيم أبو خيط. ثم اكتشفت أن معنا كل من أحمد العبد الله ورفائيل عيسى بدر، واميل نور بدر، وعبد الله الفرحان، وفي الجانب الآخر مع الشيخ عامر كان معظم طلاب "سليخات" لا حبا في الجماعة بل اقتراباً من الشعارات الاسلامية المطروحة والمعادية للفكر البعثي الذي يدعو إلى الكفر كما يظن آنذاك. وكانت تلك التهمة كفيله بالقاء صاحبها في السجن أو طرده من المدرسة إذا كان طالبا ومن الوظيفة إذا كان معلماً. وأذكر أنني حضرت ذات يوم قراءة قصة المولد النبوي الشريف، فجاء فيها أن كل من اسمه محمد وأحمد فقد حرم جسده على النار، تساءلت أنا وصديق آخر هو محمود العبد الله كيف ذلك؟ هذا غير صحيح. فقد لا يكون محمد وأحمد هذا مكتملي الايمان والعمل بالشريعة. فصرخ أحد الحاضرين واظنه "ابو السيد " السمكري. هذا كلام (شوعيّين)، وأقسم أنني سأذهب غداً إلى عجلون وابلغ عنكما. وغمرنا خوف شديد وأنتهى بتدخل الحاضرين واعتبرنا صغاراً جهلة ومن غير المعقول أن انلاحق على هذه الافكار الصبيانية.

كان أكثر البعثين الصغار حماساً واظهار المبادئ حزبه هو أحمد العبد الله، وكان أكثر الحاقدين عليه هم طلبة "سليخات" فاستدرجوه إلى مكان خارج القرية بين الاشجار، وضربوه ضرباً مبرحاً حتى كاد يموت. وفي اليوم التالي أنتفضت العشائر وكادت تصل إلى حد الاصطدام بين الغزو والسواعي لولا أن المدير الحازم قد أجتمع بهم وطلب منهم التروي، وأن يتركوا له حلّ هذا المأزق بطريقته الخاصة. ففي اليوم التالي استدعى إليه الطلاب المعتدين وأذكر منهم اثنين كبار في السن هما محمد أحمد موسى وحسين مصطفى السواعي أبو نفس وآخرين، وأغلق عليهم باب الإدارة وظل يضربهم ضرباً مبرحاً حتى كنا نسمع أصوات صراخهم من خارج الحجرة وهم يصيحون ويستغيثون. وخرجوا يجرّون أجسادهم المنهكة من الضرب على اليدين والقدمين والظهر. وكان في هذا درس بالغ لهم ولكل من نسول له نفسه الاعتداء على زميله بأي شكل من الاشكال. ألا أن هذه الحساسية بين العشيرتين قد ظلت مستمرة حتى نهاية السنة حينما جاء موعد أعداد الشهادة المدرسية للصف السادس. حيث كانت معدلاتي في الامتحانات متقاربة مع علامات محمد نهار السواعي. احتار مدير المدرسة والأستاذ عيد الذي كان مربياً لصفنا لمن يعطي الدرجة الاولى لي أم لمحمد؟ولو اعطيت لاحدنا دون الاخر لنزف الجرح من جديد، فاعطيت الدرجة الأولى لكلينا: أنا الأولى (أ) ومحمد الأولى (ب).

ضمتنا حجرة أم فواز في كفرنجة من جديد. أصبحنا في الصف الثانوي الأول. أنا وزهير وعبد الكريم العواد. كان أخي صديقاً لفواز صاحب مقهى على شكل معرش في " كريمة"، كان المقهى يمتاز بشدة الاقبال عليه من أهل البلدة الصغيرة ويمتاز بوجود شراب "الكازوزة" الذي كان يؤتي به من نابلس مع لوح من الثلج ملفوف بالخيش. كما يمتاز بالسماعتين المربوطتين بقوائم المعرش واللتين تبثّان بصوت عالٍ ما تذيع المحطات من أغنيات وأخبار. كان بعض الشباب كبار السن يتأخرون في السهر لدى المقهى ويلعبون القمار كما كنت أظن دون كلل أو ملل لأكثر من ثلاثين ساعة متواصلة. في تلك السنة كان أبو عبدالله العكوية قد بنى داراً قريبة لدارنا في كريمة، وأصبح شريكاً لأبي في الزراعة. وفي تلك السنة أيضاً أعطى والدي صديقه سليم مساحة من الدار بني فيها حجرة كان ينام بها حينما يهبط إلى الغور لمتابعة نواتج اراضيه الكثيرة هناك. وفي تلك السنة كذلك كان دكان على الدراج الذي تعود ملكية إلى عمي محمد قد أنتقل إلى كريمة وأذكر حادثة:

كنت أنا وعبد الله صديقين حميمين. وكان والدانا شركاء في الزراعة. وذات يوم خطر لنا أن نسرق من بيدرنا كمية من القمح نشتري بها الراحة. رسمنا خطة السطو على البيدر. أحضرنا كيساً هو في الأصل بطانة لجيب جاكيت قديم، واتفقنا أن نقتسم المهمات: أحدنا يقترب من كومة القمح فيملأ الكيس ويسلمه للآخر الذي يحمله حتى الدكان. كان عبد الله قد ملأ الكيس وأنا حملته: وكان الاتفاق بيننا "ديحه وانا بزمه" أي أملأه وأنا احمله. وذهبنا إلى الدكان. تمّ استبدال القمح بالراحة وجاء دور قسمتها بالتساوي، ألا أن أحدنا قد رفض التساوي على ما أذكر، على اعتبار أن مهمته أكثر خطورة من الآخر. فتشاجرنا وهرست حبات الراحة حتى لم تعد صالحة للأكل، واذكر أنني قد حملت الكيس القيته في القناة تعبيراً عن رفضي التعامل معه بهذا الشأن مرة أخرى. وحينما علم والدانا بالأمر ضحكا كثيراً، وكان أبو عبد الله كلما رآني قال: "ديحة ونا بزمّه"، حتى بعد أن ضربته إحدى السيارات في عمان وفقد الذاكرة جزئياً، وأصبح يصلي الصلوات الخمس بعد أن كان يمنع أحد أن يصلي في داره. حتى بعد ما أصابه كان حين يراني تعود إليه الذاكرة ويقول: "ديحة ونا بزمّه" ثم يضحك طويلاً.

وأعود إلى ذلك الخريف الذي ضمتنا فيه حجرة أم فواز مرة أخرى. كان إبنها الأكبر في كريمة وعندها طفل وطفلة أصغر منا قليلاً. كانا يستعينان بنا لشرح بعض الدروس، وكنا نحن قد تعرفنا إلى مجموعة أخرى من الأصدقاء: أذكر منهم ياسين طشطوش واحسان الراشد الخزاعي، وعبد الرزاق ابن الحاج منصور فريحات وآخرين. في تلك السنة عرفنا شيئا اسمه الاضرابات والمظاهرات، كانت حين تشتد قبضة الاحتلال الفرنسي على الثورة الجزائرية، يندفع عدد من الطلاب الكبار إلى صفنا وهم يقولون مظاهره يا شباب. نندفع إلى الخارج ونسير ونحن نهتف ضد الاستعمار الفرنسي. لم يكن صوتي جهوريا للخطابة، فكان دوري أن اكتب كلمات معبرة عن الموقف فأعطيها لاحسان الراشد الخزاعي أو احمد غريز فيلقونها في جموع المتظاهرين. كانت ملكة الميل إلى الكتابة في النثر والشعر قد بدأت تظهر علي، هي كلمات واشعار بدائيه ساذجة ولكنها فطرية، كما كانت لدينا نزعة قومية بالفطرة. كنا نتعامل مع الوضع في الجزائر وكأنما العدوان هو على قريتنا، فحينما القي القبض على جميلة بوحيرد الجزائرية وجرى تعذيبها، وأنتج المصريون فيلما عنها مثلته ماجدة، وفرنا من مصروفنا بضعة قروش لكل منا وذهبنا في سفره جماعية إلى اربد حيث حضرنا الفيلم الذي كان يشهد اقبالا جماهيرا منقطع النظير. وحينما عدت إلى حجرتي كتبت عددا من أبيات الشعر اذكر منها:

- جميلة أصبري فينا الفداء	فقلبي كله جزل الثناء
- زهوراً كللت هام الجزائر	لأنك أنت أوفى الأوفياء
- لنا عمان تبشرنا بنصر	كذا بغداد تهتف بالدعاء
- رياض ثم نجد ثم مصر	تسير بموكب ياللبهاء
- وما لبنان عنا في صدود	وليس بجلق تأبى العطاء
- فرنسا أبشري بعصاً طويل	نجردها فتخترق الفضاء
- لأن العبد لا يهتاب شيئاً	سوى ضرباً تسيل به الدماء
- نريد الموت كي نبقى خلوداً	خلوداً في سحيق أو سماء

أبيات من الشعر ساذجة مركبة خالية من الصور ولكنها عبرت آنذاك عن حالة ما، احترت ماذا أفعل بها؟ ارسلتها إلى مجلة كانت تصدر في عمان بأسم "رسالة الأردن"، فنشرت وفرحت بنشرها كثيراً. واذكر أن الطلبة الكبار قد اقتادونا ذات يوم في مظاهرة ضد حلف بغداد واعتصمنا في بريد كفرنجة حتى جاءت برقية من عمان تفيد باستقالة هزاع المجالي. ولم نكن آنذاك نعرف ما هو حلف بغداد، وما هي اهدافه المعلنة أو غير المعلنة.

في تلك السنة كذلك وقع الاعتداء الثلاثي على مصر، وبدأنا نعرف اسمه جمال عبد الناصر. ونسمع الاغنيات الحماسية المصرية، وطني حبيب الوطن الاكبر، و"أصبح عندي الأن بندقية"، و"والله زمان يا سلاحي" واذكر انه قبيل الامتحانات النهائية وبينما كنت أضع أمامي "مفرمة" على أرض الحجرة وأكتب عليها شعرت أن الخشبة بدأت ترتفع بالجهة الأخرى وتميل بإتجاهي وما هي غير لحظات حتى كانت الأصوات في الخارج تصيح: هزّة، هزّة. وهدأت الهزة بامر الله، وقدمنا الامتحان النهائي ونجحنا وعدنا إلى قريتنا وقبل ان نودع كفرنجه في ذلك العام اذكر بعض اللقطات منها انه فوق أعلى لدار المجاورة لنا وهي لابن عم فواز واسمه فريد وعليّه يقيم فيها طبيب ارمني وعليها لافته مكتوب عليها: عيادة طب الأسنان للدكتور مويس خاشريان[1]. والدار المواجهة لنا هي أيضاً لابن عم آخر لفواز واسمه حسني امه شركسية مشهورة بأسم ام

(١) قرأت هذه اللافتة في عمان بعد أربعين عاما من ذلك التاريخ وذهبت إليه في استشارة وذكرته بذلك التاريخ فتذكره بكل وضوح

حسني، لديها حجرة أجرتها لزميلين من زملائنا اسم كل منهما محمد. وكانت تميز بينهما بقولها محمد الكبيره "محمد مصطفى الحسن"، ومحمد الصغيره "محمد علي السلمان" [1]. كانت على مدخل الدار وعلى طرف الشارع من الجهة الاخرى دكان صغير مبني من الحجر المتراكم دون طين أو اسمنت. كنا نشتري من دكانه على الدفتر، اسمه ابو كرعيش. وكانت معظم مشترياتنا من السجائر نشتري السجائر ونسجل بدلها "لبن". وذات يوم زارنا والد محمد علي السلمان وذهب إلى الدكان ليسدد الحساب عن ولده فذهل لكثرة ما استدان من لبن. فعاد يخاطبني: عموه، ما أكثر ما تأكلون من اللبن وأذكر أنه عند أقتراب نهاية العام أصبح مطلوبا مني أن اسدد بعض الالتزامات، منها أجرة المنزل ودكان أبو كرعيش، وبعض الالتزامات الاخرى. فهبطت إلى اهلي، وكان يقيمون في بيت شعر على رأس ارض لنا واسعة تقارب الاربعين دونما وفي منطقة "قافصه" الواقعة بين كريمة والقرية. وكانت مزروعة بالسمسم. قضيت الليلة الأولى وانا أفكر كيف أفاتح أبي بطلب خمسة جنيهات، إذ لا أستطيع تسديد التزاماتي بأقل من هذا المبلغ. تحدثت إلى أمي. توقعت ثورة أبي. حينما فاتحته أمي في الصباح جن جنونه، فهذا أكبر مبلغ أطلبه منه منذ بدأت الدراسة خارج القرية. زمجر وغضب وقال لأمي: ما بدي مدارس، خليه يطلع"، بدأت أبكي، رأيته قلقاً حائراً، يذهب ويأتي ويفكر ويصيح بأمي وإخوتي. وبعد ساعة، فتح محفظة نقوده وأخرج منه ورقة يتيمة ذات خمسة جنيهات ليس في حوزته غيرها، دفع بها إلي فترددت في أخذها، وفكرت فعلاً بترك المدرسة بدل أن أكلف أبي هذا الغرم الكبير. ولكن حتى لو تركت المدرسة، اليس من الواجب سداد ديون الآخرين؟، أخذتها،

في السنة التالية لم نعد إلى حجرة أم فواز. كنا قد كبرنا وأصبح من غير المناسب أن نقيم عند سيدة لا رجل في بيتها. تحدثنا إلى صديقنا أحسان الراشد الخزاعي، فدلنا على دار قريبة من دار والده الباشا لرجل يدعى الحاج مصطفى المنصور. استأجرنا الغرفة أنا وعبدالله العكوبه وأحمد العبد الله وعبد الله الفرحان. وكان أهم ما يميزها وجود الكهرباء فيها، وقربها من بيت صديقنا الشهم الكريم أحسان الراشد [2]. كان أخوه من أمه الحاج حسني الخزاعي رئيسا للبلدية، وأبوه

---

(١) محمد علي السلمان: من اوائل زملائنا في الصف، بل هو الأول حتى في كفرنجة. كان يحفظ الدرس غيباً. وله معي قصة طويلة سيأتي ذكرها. وهو بالمناسبة شقيق الشاعر طه الذي كتب قصيدة أستشهاد عبد الله الأول.

(٢) إحسان الراشد: علمت من الصحف أنه توفي حديثاً ٢٠١٠م

راشد باشا ذو تاريخ عريق كان قد تجاوز المائة. كنا نراه يمشي يتوكأ على عصاه، طويل شامخ لا يحني ظهره، كان يمر من أمام بيتنا فيطرق البوابة الحديدية للدار التي نستأجر حجرة فيها. نفتح الباب فنراه قد ابتعد. كان يقولون لنا أنه يمر في السوق فيضرب بعصاه طرف الباب أو أنباء البضاعة فيسرع إليه البائع ملبياً أمره. يطلب بعض الحلوى أو حبات الجوز غير الفارغة ويمضي في طريقه حتى يرى صبيه فيعطيها لهم. ثم يواصل طريقه والناس يحيونه بأحترام شديد. كنا نعرف أنه راشد باشا الذي يتغنى به الناس في جبل عجلون كله ويقولون:

راشـــد باشـــا القريـــة يـــا شـــميعة الـــديوان

لم نكن نعرف تاريخه آنذاك، ولكننا كنا سعداء ونحن نرى الباشا الذي يتغنى به الناس، كان سنجق جبل عجلون من قبل الاتراك، وأحد اعضاء حكومتها التي شكلها: على خلقي الشرايري. واظنني قد غادرت كفرنجة بعد سنه، وكان لا يزال على قيد الحياة، ابنه الحاج حسني شخصية مهيبة، ذكرني ب الأستاذ يوسف الزعبي: أبيض طويل يلبس البدلة وربطة العنق وغطاء الرأس. مهيب وقور، لم أتحدث معه، شاهدته عن بعد، ولكنني كنت أعبر إلى مكتبته حينما كنت أزور صديقي إحسان فأرى صفوف الكتب والمجلات والمطبوع على كعوبها كلمات لا أنساها بل حاولت تقليدها عند تجليد مقتينات مكتبتي فيما بعد: مكتبة حسني الخزاعي. كما كنت أسمع عن شقيق أحسان الأكبر محمود الراشد الذي كان نائباً في البرلمان. ولكنني لم اتمكن من مشاهدته ألا بعد ذلك بسنوات[1]، كان يترشح عن منطقة جبل عجلون هو ومرشح آخر اسمه فهمي أبو عناب. أمه سيدة فاضلة لها مكانتها اسمها "فضية الندى"، واذكر اسمها لانها كانت من الفطيمات من اقارب أمي، كان النجاح سجالا بين محمود الراشد وفهمي أبو عناب، وكانت تحدث مشادات واتهامات بين العشيرتين الكبيرتين في كفرنجة الفريحات والعنانبه. كانت تصل أحياناً إلى حد مقتل أحد أفرادهما وينتج عن ذلك اشكالات ثأرية بالغة الخطورة.

واعود إلى حياتي مع الأصدقاء الثلاثة معي في حجرة الحاج مصطفى المنصور. كان الحاج رجلاً حريصاً دقيقاً واعياً لا يعجب عبد الله العكوبة زميلي في الحجرة الذي كان مسرفاً مبذراً أهوج. كان الحاج على عكس ولده عبد الرزاق صديقنا الذي كان بالغ الاناقة كثر الإنفاق يهتم

(١) سافصل ذلك عند الوصول إلى البحث عن وظيفة

كثيراً بمظهره. وأظن أنه كان ولده الوحيد. ومن طريف ما أذكر في تلك الفترة أن الكهرباء قد قطعت عن الحجرة لعجزنا عن دفع فاتورة الكهرباء الشهرية، وكان قطع الكهرباء يتم بأزالة العظمة الواصلة بين قطبي التيار داخل الساعة. فما كان من عبد الله ألا أن جاء بمسمار وثبته بين القطبين وعاد التيار، وفي هذا خطورة شديدة. ولا بد هنا أن اتوقف عند صديقي عبد الله هذا، والذي هو ظاهره غريبه لا تكاد تصدق. أنه لا يعرف التخطيط ولو ليوم واحد. كان مغامراً كأبيه منذ صغره. أبوه هو اول من أشترى "تراكتر" لحراثة الارض. وأول من اشترى حصاده ومعصرة، وأول من ادخل الكهرباء إلى بيت الشعر الذي كان يسكنه في حقوله الزراعية المستأجرة الكثيرة. كان يصل سلك الكهرباء بمحرك التراكتور الذي يظل دائرا طوال الليل، وهو أول من تغلب على تجار نابلس فكان ندا لهم، كان يعمل بمئات الدونمات من الارض وهو لا يملك دونما واحد، ويشتغل بآلاف الجنيهات وهو لا يملك في رصيده جنيها واحداً، كان ظاهرة غريبة حقاً، فجاء ابنه مثله من حيث المغامرة، وطيب النفس، وعدم الخوف من المستقبل. ألا أن الوالد كان أكثر جرأة، وذا عقلية تجارية تقوده دائماً إلى الربح. ولولا ذلك الحادث الذي جرى له في عمان لأصبح من أصحاب الثروات المعروفين في المنطقة كلها، إذ دعسته سيارة خاصة وفقد الذاكرة إلى ان توفي.

واعود إلى عبد الله الذي كان يلبس افخر الملابس، ويعتني كثيراً بشعره المبلل بالكريمات. متوسط الذكاء في المدرسة، يبحث عن متعة آنيه بأي ثمن. ترك المدرسة وعندما سألته عن السبب قال: "الحياة في لمدرسة مش لذيذة"، له نوادر كثيرة ساورويها في حينها إلى أن تفرقت بنا السبل واصبحت أسمع عنه اخباراً ليست غريبة عليه: فمرة في السجن لانه لم يستطيع تسديد شيك بمبلغ بسيط من المال. ومره شبه مليونير يلعب بالاوراق الماليه ويركب افخم السيارات. ويروي احدهم أن الأمير الحسن بن طلال قد زار منطقة الاغوار ذات يوم وكان عبد الله من مستقبليه. فقال الراوي أنه قد تاه في أي سيارة هي للامير الحسن وأيها لعبد الله، فقد كانتا متشابهتين ومن الموديل ذاته، واسمع عنه أحياناً بأنه يستأجر اراضٍ زراعية في سورية ولبنان وانه يعمل على نطاق واسع. ومرة أخرى لا يملك ما يسد به رمق يومه وحاجاته الاساسية. واسوق هنا حادثة طريفة ربما لا يشعر بطرافتها ألا من يعرف الشخصيات فيها معرفة حقيقيه: ارسل لي والدي ذات يوم مع عقله

الفالح[1] اغراضاً تموينيه بسيطه وعند وصوله إلى غرفتنا لم أكن موجوداً. كان عبد الله وحده. رفض تسليمها إلى عبد الله خوفاً من أن يبيعها وينفقها في لحظات. وظل ينتظرني حتى أقترب المساء إلا أنه استسلم في النهاية وسلمها لعبد الله وهو يقول " على كل حال ما لهاش وحده، أنا برجع لحسن الغباش واخبره بالقضية كلها" وضحكنا كثيراً يومها، ولا زلنا نضحك حتى بعد مرور عشرات السنوات على تلك الواقعة التي تدل على براءة عقله، وخبث عبد الله الذي ربما لم يسعفه. الوقت لبيعها. ولو بأعها لأنفقها في نفس الليلة. اذكر مرة أن جاءته قروش من والده، ظل ينفقها دون توقف. وعند المساء بقي معه منها بضعة قروش، لم يتمكين من النوم، فنهض في الليل وخرج باحثاً عنه أي بائع واشترى بها ما وجده ثم عاد ونام هادئاً لأنه قد انفق كل مع معه. عبد الله هذا إذا كان رفيقك في أي مكان وكانت معه نقود فلن يسمح لك بأن تنفق من جيبك قرشاً واحداً. هو يتكفل بكل شيء، وإذا نفدت نقوده فاهرب منه لأن لديه كل الوسائل لاستخراج كل ما معك وانفاقه أيضاً وهو يقول لك: اقرضني اياها، وسأدفع فيما بعد، وبالطبع لا يدفع.

كنا في الحجرة اربعة اصدقاء: أنا وعبد الله العكوية واحمد العبد الله وعبد الله الفرحان. كان إذا اقبل المساء وحان موعد اضاءة الحجرة نختلف في من "يكبس" المفتاح، وكان عبد الله الفرحان يقول اليوم هاذا أنا "بتكهّا" أي أضغط على مفتاح الكهرباء لأنه يصدر صوتاً "تك"، كنا نسعد كثيراً بسماعه ونقارنه بذلك السراج الذي تركناه في القرية. وفي المدرسة كنا في صف واحد، وكان أكثر معلمينا تأثيراً فينا هو الأستاذ جودت مدرس اللغة العربية والذي كان متيماً بحب الشاعر المتنبي. كان يتحدث عن المتنبي بلهجة العاشق العابد في محرابه فكان يقول بلهجته الفصحى التي لا يتحدث ألا بها:

- "أحمد بن الحسين المتنبي يا أستاذ كان لا يرضى بما دون النجوم اليس القائل:

- إذا غامرات في شرف مروم   فلا تقنع بما دون النجوم

- فطعم الموت في أمر حقير   كطعم الموت في امر عظيم

وكان حين يجري لنا اختباراً شفوياً يسأل الواحد منا:

- هل تحفظ شيئاً من شعر المتنبي يا هذا؟

---

(١) هو أبن العجوز صاحبة الحجرة المجاورة لنا، فقير خدوم يضرب به المثل في الضياع

فأن قال لا، خفض علامته، وان اسمعه شعراً للمتنبي زادها: وذات مرة عبر زميلي "محمد علي السلمان" المعروف عنه يحفظ الدرس غيباً وكان الحاصل على الدرجة الأولى في الصف، فسأله الأستاذ جودت واجاب اجابه كامله، فاستدرك.

- هل تحفظ شيئا من شعر المتنبي يا سلمان؟

وارتبك محمود، فلم يكن في خياله ألا الدرس المقرر الذي يحفظه عن ظهر قلب فأجاب بالنفي، فقال الأستاذ

- هذا لسوء حظك يا سلمان.

وخفض علامته، وكان تخفيض العلامة لدى محمد مأساة فخرج وهو يسب المتنبي واليوم الذي أصبح فيه شاعرا.

وكان إذا اقبل الامتحان تعلن حالة الطوارئ في حجرتنا فالشباب يدرسون حتى مطلع الفجر، ويسفحون في حلوقهم عشرات الأكواب من الشاي، ألا أنا. فكنت أفتح الكتاب، وأتصفحه في دقائق ثم أقذف به إلى سقف الحجرة وأغطي راسي باللحاف وأنام، وفي اليوم التالي أنا ٩٥٪ وهم لا يزيد أكثرهم ذكاهم عن ٧٠ ولا زالوا حتى اليوم يذكرونني بهذه الواقعة. وقد غادرنا كفرنجة بعد الامتحانات، على أمل أن نعود إليها في العام القادم، ولكنني لم اعد.

-٦-

لماذا لم أعد؟!، اقبل شهر آب في ذلك العام. كانت الشلة تكبر وتزداد، العطلة الصيفية حافلة بالحركة واللعب والخروج إلى الشارع والجلوس على المقهى، ولعب الورق، أو الجلوس والمراقبه للاعبين الكبار. "الكسدره" في الطريق المؤدي إلى مشارف القرية. كان هناك مبنى انيق لم نعتد على مثله لا في قريتنا ولا في كفرنجة هو دير اللاتين. كنا ندور حول الدير وقد بدأت المراهقة تنبت في اعماقنا، ونرنو إلى الجنس الآخر كنجوم بعيدة في السماء. وعلى مشارف الدير كانت اثنتين أو ثلاث من مدرسات "اللاتين"، بملابسها المدينه القصيره، وبشرتهن البيضاء الشفافة، وشعرهن المتطاير مع نسمات الصيف العليلة. كنا نرنو إليهن بعيوننا، وحين نعود نرنو إليهن بخيالنا. لم يصدر أو يبدر منا ما يسيء إلى الادب أو الحياء. كنا ثم نركض ونتحدث ونتأمل. كنا نلعب على التلة المجاورة للدير ثم جنوباً لنشرف على وادٍ سحيق ونتأمل تشكل التضاريس الطبيعية للجبال المسننة على شكل قطاعة حديدية هائلة. وأحياناً نلعب بالسهل المجاور شرقاً للدير تحت أشجار الزيتون بكرة الإسفنج المتطور عن كرة "الخرق". وخلال تلك العطلة بدأنا نستمع إلى مطربة جديدة اسمها "فايزة أحمد"، سمعنا لها أغنيتين احداهما: يمه القمر عالباب، والاخرى" "أنا قلبي اليك ميال"، سمعتها للمرة الأولى فعرفت من الملحن، ولا زلت احفظه، انه محمد الموجبي. لم تعجبي. "يمه القمر عالباب" كثيراً رغم لحنها الراقص ألا أن الأغنية الأخرى بدأت تتسلل إلى اعماقي كمعادل موضوعي للاحساس النامي نحو الجنس الآخر. أنا قلبي اليك ميال، ومافيش غيرك عالبال، أنت ويس اللي حبيبي. كانت لفظة الحب آنذاك تشحن خيالنا بألاف الصور الملونة وكانت كلمات الاغنية تتسلل إلى أعماقنا كنسمة باردة في صيف حار.

أما حركتنا داخل حارات القرية وأزقتها ومشارفها فلم يكن يأبه بها أحد. كنا كالأشياء أو كائنات تتحرك دون أن يأبه بنا حتى آباؤنا. حين أعود من المدرسة وحتى بعد غياب اشهر لا أشعر أن هناك أثراً لعودتي. لا أكلة خاصة ولا ترحيب أو قبل من الوالدين، ولا أنتباه من

الجيران. كنا مجرد كائنات اليفة أحياناً، ومشاكسة أحياناً أخرى، واستمر هذا الوضع حتى بعد أن أكملت الثانوية العامة وعدت بشهادة المترك، نظر أبي نحوي وسأل: "نجحت يا ولد؟" قلت "نجحت يابه"، لم يطلق الرصاص ولم تحضر الهدايا، ولم تذبح الذبائح ولم تتشكل حتى لهفة الفرح على وجوه من حولي، بل نظر نحوي وقال: "مليح"، ثم خرج إلى مضافات أصدقائه.

وقبل أن أوثق ماذا حدث في شهر آب من تلك العطلة، لا بد أن اشير إلى حادثه، لا أدري ما هي دلالاتها، هل هي الخوف من الوالد؟، هل هي الخوف من الضرب؟، هل هي الخوف من السمعة والعيب؟، كنا مجموعة نلعب خلف دير اللاتين، اذكر اننا كنا اربعة: أنا وعبد الله العكوبة وآخرين لا أستطيع تحديد اسمائهم. لعبنا، وترقبنا خروج المعلمتين فلم تخرجا. انحدرنا نتراكض بأتجاه سهل على كتف الوادي مزروع بالفقوس على ما اذكر. شعرنا بأن ثمار الفقوس اللذيذة تنادينا، فتسللنا إلى طرف السهل ورحنا نقطع الثمار. وما هي غير لحظات حتى شاهدنا صاحب الحقل يندفع نحونا وهو يهدد ويسب ويتوعد ويقذف نحونا بالحجارة، عرفناه، أنه الشيخ خليل[1].

واعتقد أنه لم يعرفنا، ولكننا افترضنا أنه قد عرفنا. وان القرية كلها سوف تتحدث عن اللصوص الصغار، وأن ما سوف يلحقنا من عار وسمعة سيكون فوق احتمالنا، بالإضافة إلى ما سوف نناله من تأنيب أو ضرب من أهلنا. أندفعنا راكضين إلى أسفل، منحدرين إلى قعر الوادي السحيق، نركض ونلهث حتى ابتعدنا كثيراً باتجاه الغرب. وحينها تجمعنا تشاورنا في الأمر وافترضنا أن الشيخ خليل يرابط لنا على تخوم القرية وانه سيقبض علينا الواحد تلو الآخر ويسلمنا لمصيرنا المجهول. قررنا أن لا نعود إلى القرية وأن نواصل طريقنا بأتجاه الجنوب الغربي إلى كريمة. وهكذا كان وحينما اقتربنا من كريمة "راحت السكره وجاءت الفكره"، أين سنذهب؟، والمساء قد أقبل. وتذكرت، دارنا في كريمة، كانت أحدى غرفتيها مؤجرة لخياط اسمه "مشرف"، يعرفه أبي ويعرف أهل القرية جميعاً. لم تكن مؤجرة بالمعنى المعروف، ولكنها كانت معطاة له هكذا خلال اشهر الصيف مقابل أن يحافظ على الحجرة الاخرى الملأي بأكياس القمح

---

(١) الشيخ خليل: هو واحد من العلامات البارزة في صفحة حياتنا. كنا نحبه. ونتندر بالكلمات الفصحى التي كان يتحدث بها. فهو يقرأ ويكتب ويميل إلى القراءة الدينية اصبح فيما بعد أماما للمسجد.

والتبن والشعير. دخلنا إلى مشرف فأستقبلنا بحفاوة، وهو شديد الكرم بطبعه، احتار ماذا يقدم لنا على العشاء. واذكر أنه قد "قلى" لنا أكثر من عشرين بيضة، وظللنا نتندر بهذا الامر مرة طويلة، ونمنا. فقد كان الصيف حاراً وهو في غور الأردن أكثر حرارة. في اليوم الثاني عدنا إلى القرية، وتسللنا إليها ونحن نتوقع أن القبض علينا سوف يتم دون أبطاء، وأن القرية كلها لا حديث لها ألا هذه الموضوع، وكم كانت مفاجأة لنا حينما رأينا أن ما فعلناه هو زوبعة في فنجان، وأنه أحداً لا يتحدث بهذا الامر، وان الشيخ خليل حينما رآني ابتسم وقال بلهجة فصحى: "لو قلت لي اريد الفقوس، اعطيك اياه لا تفعل ذلك مرة أخرى". ولم أفعل ذلك مرة اخرى طيلة حياتي. كما أن من الغريب أن غيابنا لم يحدث ردة فعل صاخبة عند الاهل، لم يبلغوا الدفاع المدني ولا الاسعاف ولا مراكز الا من. كل ما هنالك، سؤال وجواب واقتناع. وذات مرة عضني كلب وانا العب فلم أجد ما اطهر به جرحي ألا عند الخوري في دير اللاتين.

بعدها بأيام، وفي آب من تلك العطلة الصيفية أقبل حارس القرية، الذي كان يذهب إلى عجلون كل شهر أو شهرين لامور تتعلق بالمختار والذي كان اسمه ولقبه "احمد الصغير"، وهو من عشيرتنا. ولا أدري من أين جاءه اللقب دون إخوته، جاء الحارس من عجلون وراح يسأل عني بالاسم، وحينما عثر علي أعطاني مغلف مغلق بداخله رسالة عليها عدد من أختام البريد، فتحتها فكانت من عمي محمد الذي كانت وحدته العسكرية في "العيزرية" القريبة من القدس. ومضمونها: أن قسم الثقافة بالقوات المسلحة الأردنية يعرض على كل منتسب للجيش ولديه أخ أو أبن يرغب بإكمال دراسته في مدارس القوات المسلحة وحسب مناهج وزارة المعارف "التربية والتعليم"، فليقدم طلباً لذلك أما داخلي واما خارجي، والداخلي يتضمن الدراسة والنوم والطعام مقابل خمسة دنانير ونصف لكل ثلاثة أشهر أي دينار ونصف لكل شهر دراسي. وطلب عمي مني القدوم إليه ليذهب معي إلى الزرقاء ويسجلني إذا ما رغبت في ذلك.علماً بأنه تسجيلي هو غير مؤكد لان درجة القرابة للمجند يجب أن تكون الابن أو الاخ، أما ابن الاخ فأنها ستكون مجرد محاولة.

بدأ خيالي يعمل. مدنية؟! مدرسة؟! داخلي؟! بعد شديد عن القرية، ولكن لم لا؟ ستكون هذه نقلة كبيرة. تجربة جديدة، ولكن هل والدي قادر على دفع ستة عشر ديناراً ونصف في العام؟

هل سيوافق؟ وهل، وهل، واخيراً عزمت، ووافق أبي وذات صباح مبكر من شهر آب هبطت أنـا ووالدي إلى الطريق العام القريـب مـن "سـليخات" وجـاء البـاص القـادم مـن أربـد إلى نـابلس ووصلنا نابلس في المساء، وسألنا عن باصات القدس فركبنا احدها. أكثر مـا لفـت نظـري آنـذاك السرعة الفائقة للباص، وفي القدس سألنا عن "العيزرية" ووصلنا إلى معسكر هو عبارة عـن عـدد من الخيام المتجاورة ذات اللون الأخضر الداكن، وما أن ذكرنا اسم عمي حتى هرع ألينا أكثـر مـن جندي وهم يرددون: النائب محمد عوض، ضيوف عند وكيل الفئة النائب محمد عـوض. وكانـت درجة الترحيب بنا غير عادية، حيث نمنا تلك الليلة، وفي الـصباح البـاكر مـن اليـوم التـالي ركبنـا نحن الثلاثة الباص من القدس إلى نابلس. وفي نابلس تفرقنـا، حيـث ذهـب والـدي إلى باصـات اربد ليعود من حيث أتى وذهبت أنا وعمي إلى باصـات عـمان، ووصـلنا إلى عـمان بعيـد الظهـر. وانتقلنا إلى باص ذاهب إلى الزرقاء. وهناك هبطنا، ومضيت مع عمي لنعبر من باب معسكر كبير، يقف على بابه رجال من الشرطة العسكرية. وعبرنا سيراً على الإقدام من خلال شارع معبـد تحـيط به الأشجار ولا ترى على جانبيه ألا السيارات العسكرية وبعض الماره من الجند. شـعرت بالرهبـة من هذه النقلة التي ستجعلني وحيداً في هذا المكان الغريب. كانت يدي تقبض على يد عمي بـشدة حينما تركنا الشارع الرئيسي واتجهنا شمالاً باتجاه مبنى مكتوب عليه" مدرسة النصر الثانوية" عبرنـا إلى حجرة مكتوب عليها: الإدارة. كان هناك عدد من المجندين يعبرون ويخرجـون، وكـأنهم مثلنـا يعملون على تسجيل أبنائهم أو نقلهم. ادي عمي التحية العسكرية للمدير الذي كان برتبـة مـلازم ثاني على ما أذكر ووقف منتظراً دوره، وأنا إلى جـواره. وحيـنما فـرغ المـدير مـن أحـد المـراجعين. التفت إلى عمي، لا أدري فيما كانا يتحدثان ولكن المدير كان ينظر إلي بين الحين والأخـر، سـمعت عمي يقول: نعم هو من الأوائل سـيدي. وبعـدها أخـرج المـدير سـجلات كتـب فيـه عـدداً مـن المعلومات، ثم أخرج ورقة مطبوعة قدمها لي. ثـم قـال لعمـي وهـو يـشير إلى جنـدي إلى جـواره ويبدو أنه المحاسب:

-خمسة دنانير ونصف.

دفع عمي المبلغ فأحسست بالأرتياح لأن حملاً مؤقتا قد ازيح عن كاهل أبي، وسـمعت مـدير المدرسة يقول لعمي:

-ليحضر في ١/ ١٠ ومعه ما هو مكتوب في الورقة.

خرجنا من المعسكر، وضعني عمي في الباص الذاهب إلى اربد، وعاد هو إلى عمان كي يعود من هناك إلى القدس ومن ثم إلى معسكره، جلست في الباص. مد عمي يده إلى جيبه ليعطيني أجرة العودة فقلت له: معي، كان أبي قد ترك معي ديناراً، دفعت منه أجرة الباص وأخرجت الورقة لأقرأ الإغراض المطلوبة قبل دخول القسم الداخلي في المدرسة:

١- حقيبة ملابس عدد ١

٢- بشكير عدد ٢

٣- بنطلون عدد ٢

٤- بيجاما عدد ١

بالإضافة إلى غيارات داخلية، وقميصين.

أحسست بروعة هذه النقلة التاريخية. أنا امتلك بنطلونين غير مرقعين؟!، أنا أمتلك بيجاما؟!. وحقيبة ملابس وقميصين؟وحقيبه أضع فيها أشيائي وأغلقها وافتحها ساعة أشاء؟، وتذكرت الماضي كان ذلك حلماً بعيداً، كنت حينما آوي إلي الفراش انظر إلى النجوم وأخاف أن أعدها خوفاً من الثآليل، فينشغل خيالي الذي هو زادي دائما بأحلام اليقظة، هل سيأتي يوم أمتلك فيه بنطلونين احدهما كاكي والأخر صوف مثل عبد الله العكوبة؟ وعند الصباح أحتار وماذا البس: الكاكي أم الصوف؟. كنا قد قرأنا ونحن في الصف السادس أنّ "هذا الصوف يأتي من ماعز بالبرازيل اسمها: "اللاما"، وأخرى اسمها "الالبكا"، كنا نقول لعبد الله: صوف اللاما ها لا ها الله، ويلبسك هالعبد الله، بدأت أتخيل كيف سأخلع البنطلون والبس البيجاما في المساء. كم هو رائع هذا!، طالما حلمت أن امتلك الراديو: فافتحه ساعة اشاء، وأغير محطاته كيفما اشاء. كم هو رائع هذا!، طالما تخيلت أنني سأمتلك الساعة، أعرف بها الزمن، أعرف متى يأتي الظهر والعصر ومتى نفطر في رمضان؟ كنت أنظر إلى عقاربها وهي تدور على معصم زوج أختي، فتعلقت بها. كنت أجلس إلى جوار شيخ المسجد وهو شيخ شاب كان يحادثنا ونأنس به. كانت بيده ساعة، أظل محدقاً في دورانها الأزلي. لاحظ الشيخ خالد تعلقي بها فخلعها من يده ووضعها في يدي. استأذنته أن أذهب بها مسافة ثم أعود، ذهبت بها إلى ظلال شجرة غرب القرية اسمها "القباة". وجلست هناك أنظر إليها وإلى الشمس، ثم عدت وارجعهتا إلى صاحبها. وها أنا إذا

أوشك أن أحقق بعض أحلامي ويتحول الحلم والخيال إلى واقع. ولكن هل يستطيع والدي شراء كل ما ورد في هذه القائمة من بنود؟، وقد أستطاع، وكنت في الأول من تشرين الأول على مقاعد الدراسة في مدرسة النصر الثانوية، وأشيائي على سريري في القسم الداخلي الذي سأصفه تاليا في مرحلة جديدة تماماً من حياتي، جديدة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى:

تعبر إلى المدرسة –كما أسلفت –بالانعطاف يسارا من الشارع الرئيسي في وسط المعسكر. تواجهك الإدارة، وإلى جوارها مدخل ضيق إلى ساحة واسعة تصطف حولها الغرف الصفية العديدة ذات الطابق الواحد وهي إلى يمين الداخل ويساره، وبعد تلك السلسلة من الغرف الصفية تطل على ساحة أكثر اتساعاً وهي شبه خالية ألا من عمارة شاحبة اللون ذات ثلاثة طوابق. وفي وسط الساحة مبنى ارضي صغير ذو قاعة طعام مستطيله واسعة، يطل عليها شباك صغير هو للمطبخ وتخزين المواد الأساسية. وهناك على غير بعيد منه يقوم مبنى صغير هو للاستحمام، حيث تتشكل الحمامات المتراصه على شكل كابينات التلفونات وعددها يزيد على العشرة، في كل منها دش ماء فاتر وليفة وعدد من الألواح الصابون. تشرف على الحمام مجندة عجوز عرفناها بأمس "الماما"، كانت تعبر إلى الحمام وتراقب كيفية غسل أجسادنا بالماء والصابون. فتقول لهذا افرك ظهرك جيداً، وللأخر لم تضع كمية صابون كافية، وللثالث قدماك أفركهما جيداً، وهكذا، أما المطبخ فيشرف عليه طباخ بملابس مدنية نعرفة بأسم "أبو عصام" طويل مهيب يشبه إلى حد ما الممثل سراج منير يساعده طباخ عجوز. أبو عصام هذا طباخ ماهر خفيف الظل، مغرم بإفلام السينما، كان يشجعنا أن نأكل وهو يقول: "يالله يا شباب بدنا نلحق المفارز "المنازر" المناظر وهي اللقطات الدعائية تقدمه دور السينما آنذاك لأفلام قادمة.

إما البنايه فتقوم على مقربه من المطعم الذي عرفناه باسم " الميس " وهي قريبه من شيك المعسكر، حيث تطل ساحتها الخلفية على الشارع الرئيسي في الزرقاء، إذ تقوم على الجهة المقابلة سينما عرفناها باسم " سينما ركس". سأعود إلى ذكرها عند الحديث عن نمط حياتنا واوقات فراغنا وهواياتنا الموسيقية. تعبر إلى هذه البناية من باب واسع حيث تقوم على اليمين واليسار " بركسات " واسعه لأسرة الطلاب. واذكر أن البركس الأيمن في الجناح الأيمن في الطابق الأرضي كان مخصصاً لكرة طاولة تغص دائماً باللاعبين. وفي الطابق الثالث هناك حجرة يقيم فيها مدير المنزل. كنت في الطابق الثاني إلى جهة اليسار، قريب من الشباك المطل على دار سكن وظيفي

لطبيب عسكري ذي رتبه عالية. وحولي عدد من الأسرة لطلاب أكبر مني سناً واصغر أحياناً. واذكر أن السرير المجاور لي كان لطالب أكبر مني سناً اسمه "إسماعيل وادي" لم يكن صديقي، ولكنني كنت معجباً بأناقته وهدوئه. وأصبحت أتخيل إنني سأغدو مثله بعد سنوات. كنت أراه غالباً يضطجع على سريره ويقرأ، وحينما يراني أو يرى مدير المنزل يخفي ما بيده تحت مخدته. وذات يوم قررت أن أعرف لماذا يخفي عني ما يقرأ. تذكرت ذلك الكتيب الأخضر الصغير الذي كان يخفيه عني زهير في قريتنا المتضمن دستور حزب البعث العربي الاشتراكي. فهل هذا الكتاب الذي يخفيه إسماعيل هو مثله؟ هل أنتقلت الأحزاب الممنوعة بشدة إلى أسرتنا؟ أنها إذا كانت ممنوعة في الخارج فأنها هنا داخل المعسكر جريمة كبرى.انتابني عاملان: احدهما خوفي والأخر هو حب استطلاع وعزمت على أن اكتشف ذلك السر الذي يخفيه إسماعيل في أول فرصة تلوح.

ذات يوم شاهدت إسماعيل في غرفة "التنس" مشتبك في لعبة مع زميل أخر. إذن فقد جاءت فرصتي إذ كان "البركس" كله خالياً. أسرعت وقلبي يرتجف خوفاً إلى مخدة إسماعيل واستخرجت من تحتها كتيباً صغيراً قرأت عنوانه طفولة نهد، للشاعر نزار قباني. لم أكن أعرفه ولا سمعت عنه. ورغم خوفي فقد بدأت اقرأ، وأحفظ، واستمتع، التمس العذر لإسماعيل في سرية التعامل مع هذا الشاعر المختلف عن كل من سمعنا وحفظنا لهم من الشعراء: احمد شوقي، حافظ إبراهيم، أبو القاسم ألشابي، المتنبي - أن عنوان ذلك الديوان وحده كفيل بمنعه، وإحساس من يقرأه بالخجل، واذكر إنني حفظت قصيدة منه آنذاك، كنت أتراقب غياب إسماعيل فأخرجه واقرأ وأحفظ واطل على نمط جديد من الشعر لم تالفة ذائقتي ولكنه معبر، يخاطب كل أحاسيسي وغرائزي، ويصور لي التلاطامات الداخليه في مشاعري، فهذه امرأة تخاطب زوجها الذي يرى فيها مجرد وعاء لشهوته وهي ترفض ذلك:

- للمرة الخمسين إني لا أريد،
- يا جبالا من جليد،
- من أنت حتى تريدني أولا تريد،
- مالي أراك دفنت راسك في المخدة يا بليد.
- هل نحن أوعية الصديد؟

- يا ويح أوعية الصديد!

كنا نتفتح ونطل على الدنيا من بابها الواسع. كانت النقلة لي ولعدد من أصدقائي الذي جاءوا من القرية كبيرة وواسعة. اصدقاء لم يعرفوا اسرة النوم، نظام شديد حتى في الذهاب إلى قاعة الطعام، حمام بأشراف، نوم بأشراف، الخروج إلي المدينة ما وراء الشيك بأجازة. كرة طاولة، تعلمتها وأتقنتها. ألا أن امهرنا فيها كان شاب يدعى محمد فايق. أصبح لي أصدقاء من القسمين الداخلي والخارجي. كنت ألاحظ أن المعلمين قد لمسوا شدة ذكائي، كنت أحس باحترامهم وتقديرهم. كان ينافسني على التفوق طالب اسمه منير فوزي، أبوه مدرس في الثقافة العسكرية وهو الطالب في القسم الخارجي، واذكر أن أخاً له قد عرفته فيما بعد اسمه أسامة، كان معنا طالب اسمه "حسن الكسواني"، ذكي شفاف محب للفنون. كان متفوقاً أيضا. لم نره في العام التالي، وعرفنا انه قد مات وكان معي أصدقاء: ماجد الروسان، محمد العمري، سمير عصفورة، نوح فرحان، ونوح هذا هو مجالنا الرحب للمرح. كانت أمه مجندة، وكان هو متوسط الذكاء، ولكنه كان يقول لنا: سجلوا عندكم: أنا سأكون الدكتور نوح فرحان وسوف تعترفون بي ذات يوم، كنا نضحك، وكان يضحك. كان معنا سلطي صالح، جون بطرس، عبد الكريم عثمان، عدنان كرادشة. عيسى نزهه، عبد القادر الرباعي، نبيل شاكر، ظاهر عزت، وآخرين. نصحو في الصباح عند ساعة معينه، نخرج إلى طابور الرياضة، ومنها هناك نتوجه على هيئة الطابور إلى " الميس "، فنفطر ونعود إلى أسرتنا، كي نستعد للذهاب إلى المدرسة. نذهب إليها بينما يكون الطلبة من القسم الخارجي يتوافدون إليها من باب فتح في المعسكر لهذا الأمر. وطلاب القسم الخارجي هم الأكثريه، كان في المدرسة أكثر من إلف طالب بينما لم يزد طلاب القسم الداخلي على الخمسين.

وامام المدرسة نصطف طوابير نعبر بعدها إلى الصفوف وكان المدرسون يحملون الرتب العسكرية تتدرج من ثلاث شرائط " نائب " حتى وكيل. إما الضباط فلم يكن هناك سوى المدير الذي كان يضع على كتفه نجمه أو اثنتين. أما ما دون ذلك فأنها مدارس عاديه حسب مناهج وزارة التربيه والتعليم. وفي فسحة الظهر نذهب إلى الغداء ثم نعود إلى الفترة المسائيه. وبعد ذلك فنحن احرار في التحرك داخل البنايه أو غرفة الرياضة، اوالتمشى في الساحة والجلوس على الارض والاستماع إلى الاغنيات التي كانت تطلقها سماعات سينما ركس المقابله لنا. وغالباً ما تكون تلك الاغنيات هي من فليم غنائي لفريد الاطرش أو عبد الحليم حافظ، الذي بدأنا نسمع

به في كفرنجة، كان قد جاء بنمط جديد من الاغنيات التي استهوت الشباب، وانتشرت بسرعة، وهاهو في الزرقاء يعزز هذا الانتشار بافلام ينافس بها افلام فريد الاطرش، وكان له جمهور كبير بين الطلبة. كان معجبوه يميلون كذلك إلى مدرسة محمد عبد الوهاب الغنائية، اما أنا فلم يهتز اعجابي بفريد الأطرش مع شيء من الانفتاح على عبد الوهاب وعبد الحليم. وكان أول فليم أشاهده في الزرقاء هو لفريد الأطرش، وعلي أن اصف تلك اللحظه التاريخية –بالنسبة لي - جيداً.

كانت عملية الربط في خيالي بين الشخصية المؤثرة وبين الواقع صعبة. كان خيالي يصور لي أولئك المشاهير بأنهم ليسوا مثلنا، يسيرون ويتحدثون ويأكلون. كانوا يعشعشون في خيالي ظواهر وحالات ولست قادراً على تصورهم كإفراد مثلنا. ولعل أول هذه الظواهر، هو الشيخ المقرئ عبدالله يوسف الذي كان اسمه يتردد في الراديوا وهو يقرأ القرأن. انطبع اسمه في اذهاننا واصبح خيطاً في نسيج ذاكرتنا. وذات يوم قال عمي محمد بأنه شيخ ضرير في القدس وانه قد شاهده كثيراً، هل هذا معقول؟ عبد الله يوسف رجل مثلنا؟ صدقوني هذا هو ما خطر في بالي آنذاك وتمنيت لو أن عمي يأخذني لأراه. وهذا ما حدث مع الموسيقار فريد الأطرش، الذي كان صوته قد عبر إلى ذاكرتنا وهي صفحة بيضاء فاتطبع فيها، اغنياته، الحانه، مقدماته الموسيقية، كنت ارفض أن اصدق أن هذه الانجازات تصدر عن رجل واحد يتحرك مثلنا ويمشي ويضحك ويأكل. وحينما عبرت إلى سينما ريكس لأول مرة ورأيته خفق قلبي خفقاناً شديداً، واشتعل خيالي بين ماضٍ وحاضر، ماضٍ كنت أنتظر فيها الدجاجة أن تبيض لأحمل البيض واسمعه، أو اقف عند الشباك واصيخ السمع للصوت القادم من داخل المقهى. وبين هذه اللحظات، ها هو فريد امامي، رجل مثلنا، يمشي، يتحدث مع الاخرين. لم اصدق انه هو حتى جاءت احدى الاغنيات، فوقف وغنى وصدقت، ما اروع ما ارى !!

أصبح فريد الأطرش وعبد الحليم حافظ شغلنا الشاغل في اوقات فراغنا. كانت هذه الذائقة الفنية قد قسمتنا إلى مجموعتين تحاول كل مجموعة أن تسوق وجهة نظرها، كان انصار عبد الحليم يقولون. انه مطرب شاب في صوته شجن وعاطفيه. كانت اغنياته قد بدأت في الانتشار: اسمر يا اسمراني، على قد الشوق، ياسيدي امرك. حبك نار. الليالي،بتلوموني ليه، بكره وبعده. وكانت تصل إلى الشباب من خلال افلام عاطفية دسمة كتبها احسان عبد القدوس وغيره وتلاقي

استحساناً مفرطاً وخاصة من قبل الفتيات. كان هؤلاء يقولون: فريد أنتهى، ماذا تعني هذه الاغنية التي يقول فيها ها، ها، ها، ينادي عليك؟ هل هذا غناء؟. وكنا نرد على ذلاك بقولنا هذا فن لا يرتقي إليه حتى محمد عبد الوهاب صانع عبد الحليم: وكنا نقول أن فريد ملحن، وكان هو نفسه يرفض مقارنته بعبد الحليم، ويقول أنا موسيقار، ومقارنتي تكون مع محمد عبد الوهاب. كنا نتجمع خلف المنزل ونستمع إلى سماعات سينما ركس وهي تبث خلف المنزل أغنيات مثل: وحيات عينيكي، زينة.زينة، ودعت حبك حضرنا هذا الفيلم للمرة الثانية في سينما النصر. كان فريد يقوم فيه بدور ضابط مصاب بمرض القلب، وأيام معدودة. فيغني لشاديه التي تبكي ويبكي معها المشاهدون. كان فريد قد اكتسب شعبية كاسحة في العالم العربي من المحيط إلى الخليج وهو الذي أحيا أول أفراح الملك الراحل الحسين ١٩٥٥ بأغنياته التي رددها الشارع الأردني والعربي سنوات طويلة

يا زينة الكل دينا يا أحلى من أغانينا

واغلي من أمانينا

كنا نشاهد فريد الأطرش في السينما وهو يقود فرقة موسيقية فيها عشرات العازفين وهي تعزف لحن الخلود، وحكاية غرامي ونجوم الليل. كانت اغنياته تتردد على السنة الناس من كل الطبقات وبعضهم يحب الأغاني ذات الإلحان الصعبة المعقدة، وبعضهم يحب الأغاني الراقصة: هلت ليالي،دقو المزاهر،ما قلي وقلقلة، يا خوفي بعده، الحياة حلوة، أنا وأنت لوحدنا، والحقيقة أن هذا لا يعني أن ذائقتنا ترفض عبد الحليم، ولا عبد الوهاب الذي كان نهراً دافقاً من الإلحان أكثرها لغيره. كان وجداننا يتفتح على عصر غنائي وموسيقي جميل، لم نكن فيه قادرين على صم الآذان عن كارم محمود ومحمد فوزي ومحمد عبد المطلب، ولا عن هدى سلطان وشادية وفايزة احمد ونجاة الصغيرة وفيروز، فيروز هذه عبرت إلى آذني من خلال أول أغنية سمعتها لها:

وقف يا اسمر في الك عندي كلام

قصة عتاب وحب وحكاية غرام

هالبنت ياللي بيتها فوق الطريق،

حملتني اليوم لعيونك سلام

و كذلك أغنيات مثل: عالهدى، ياريت ، يا جارة الوادي التي غنتها بعد أن غناها محمد عبد الوهاب وأضافت إليها بعداً فنياً جديداً زادها جمالاً على جمال. وبمناسبة ذكر جمال، فقد كان جمال عبد الناصر يسكن في قلوب الشعوب العربية من المحيط إلى الخليج يتجلى بجسده العملاق، وحضوره الطاغي كريزميته المتجددة خطاباته النارية ضد الاستعمار، من هم وراء الاستعمار كما كان يقول. وكذلك القوة المتميزة للإعلام المصري في ذلك الوقت. وكان العدوان الثلاثي على مصر قد جعل منه بطلاً قومياً لا يشق له غبار، فغناه مطربون وفي مقدمتهم محمد عبد الوهاب: بطل الثورة إحنا معاك، أنت معانا وإحنا فداك، وكذلك أغنية ناصر كلنا بنحبك ناصر، يا حبيب الكل يا ناصر. وكذلك غنت له فايده كامل وعبد الحليم ومجموعة للفنانين.

- وطني حبيبي الوطن الأكبر،
- يوم ورا يوم امجاده أبتكبر،
- وانتصاراته مالية حياته
- وطني بيكبر وبيتحرر.

و كذلك جاءت أغنية محمد سلمان: لبيك يا علم العروبة كلنا نحمى الحمى. وغنت شادية أغنية في منتهى الروعة من حيث اللحن والأداء: ضربة معلم وغنى عبد الحليم: ابنك بقولك يا بطل هاتلي أنتصار، ابنك بقولك يا بطل قبل النهار، ابنك يقول أنا حوالي الميت مليون العربية ولا فيش مكان للأمريكان بين الديار،

جاءت هذه الأغنية بعد اعتذار الولايات المتحدة عن بناء السد العالي وقيام الاتحاد السوفيتي بهذه المهمة. وتدل هذه الأغنية على أن عدد سكان الأمة العربية آنذاك كان مائة مليون،

وكانت هناك أغنية أخرى لعبد الحليم:

إحنا بيننا وإحنا حنبني السد العالي،

كنا آنذاك نصفق دون أن ننتبه إلى كيفية أن نكون بنينا ثم سوف نبني، ودون أن نلتفت إلى أن بناء السد على النهر لا يحتاج إلى كل هذه العاصفة من النتاجات الفنية ذات القيمة الفنية العالية في اعتقادي. وإنا اليوم أتساءل لو أن كل دولة في أوروبا أو أمريكا أو الصين بنت سداً ورفدته بعشرات الأغاني لاصبحت لاغاني السدود البومات خاصة، هناك مطربة وأظنها شادية قد غنت:

شــافني خطيبــي وقــلي تعــالي   إنــا منقــول للــسد العــالي

وهناك أغنية اخرى لعبد الحليم عن حرب ١٩٥٦ والتي اعتبرها ضربة معلم:

ضربــة كانــت مــن معلــم   خــلا الاســتعمار يــسلم

جــه بــسلاحه ودباباتــه   وطياراتــه واعتــدى عــشان نــسلم

هــو مــين، لا ده بعــده   هــو الــلي اخلــف في وعــده

واعتــدى عــشان نــسلم

كنت مع المصفقين. ملايين المصفقين آنذاك لاعتبار الضربه ضربة معلـم، وان الاستعمار قـد سلم، واصبح عبد الناصر في اعماقي رمزا حيا للنضال. كنا ننسج حوله الأساطير. وكـان يخطـب ويهاجم الانظمه العربية، ونظامي الأردن والسعودية بخاصة، كان يقول للجماهير المحتشدة:

"امريكا" عايزه مننا ديون ميت مليون دولار، مش حنديهم ولا مليم" وكانت الجماهير تـضج بالتصفيق هيييييييه. وتضج بتصفقيق كذلك حينها كان يهاجم الملك سعود والملك حسين بعبارات نابيه. ولم تكن لننتبه لان عين الحب عمياء، إلى تصريحات الملك حسين حينها يسالونه عـن رأيه في هجوم عبدالناصر عليه فيقول: سامح الله سيادة اخي الرئيس جمال عبـد النـاصر، وينبغـي أن نترفع جميعاً عن مثل هذا. بقي عبد الناصر في قلبي رمزاً حياً كدت ادفع حياتي ثمنـاً لـه حتـى جاءت نكسة سنة ١٩٦٧، فذاب الثلج كله. وساتحدث عن ذلك في حينه. وبعد الخروج مـن دفـق الذكريات التي فجرتها كلمة "جمال "اعود إلى مدرستي وزملائي وقـسمي الـداخلي لنـستمع مـن الاخبار أن طيارة جلالة الملك قد هوجمت فوق الاراضي السوريه، وخرجـت ميج ١٧ سـوفياتيه لاسقاطها، فاستطاع جلالته أن يناور بها وان يعود بسلام إلى قصره العـامر، فهـب الأردن كلـه إلى قصر رغدان مهنئاً الملك بالسلامه وان طلاب الثقافة العسكريه قد ذهبـوا أيـضا، وعبرنـا البـاص العسكري من باب الديوان الملكي الهاشمي، وصعد بنا طريقاً متعرجاً حتى وصـلنا امـام القـصر، وهبطنا من الباص وانضممنا إلى جموع غفيرة من الناس كانت تهتف بحياة الحسين. فخـرج ألينـا، وشاهدته: كان في الثانيه والعشرين، ولكنه يبدو وكانه الوالد والجـد والقريـب لكـل الحـاضرين، هتفوا طويلاً، كنت قد كتبت عدة أبيات شعرية لالقائها امامه، ولكنني لم اتمكن من الوصول إليـه، وتقاصرت خطاي خجلاً وخوفاً ورهبه. وعدت دون أن اسمع صوتي. وحينها عـدنا أنتشرت في الافاق الأردنيه اغنيه تقول كلماتها:

- إني لاقسم بالاله قسماً تخر له الجباه.

- إني سأخلص للمليك وللبلاد مدى الحياه.

وشاعت لدينا في القسم الداخلي أن مدير منزلنا الأستاذ زيدان حسين وكان برتبه نقيب " رقيب أول " هو الذي كتب كلماتها، لم يجرؤ اي واحد أن يسأله. فقد كان شخصيه فريده متميزه – بالنسبة لنا على الاقل – كان ذا حيويه ملفته للنظر. يشرف على الطابور الصباحي. يصدر ألينا التعليمات ويبلغها إلى عريف المنزل وهو من الطلبة واظنه كان الطالب محمد فائق لاعب التنس المعروف لدينا. والأستاذ زيدان كان عبقري في الرياضيات، وكان يقضي وقته في العمل بزراعة الأشجار حول المنزل. لايهتم كثيراً بمظهره الخارجي ولكنه لا يتهاون في فرض النظام. كانت اية مخالفة لانظمة القسم الداخلي تبعث بصاحبها إليه لينال العقاب الذي هو في العاده ضربات في العصا قد تتجاوز العشرين. وكان بعضنا معجباً به وبنهجه، والاخرون معجبون بإستاذ نقيض له تماماً اسمه عدنان الداغستاني الذي تجند كأستاذ للغه الإنجليزيه في مدرستنا التي لم يكن فيها مدرس انجليزي. كان فوزي يوسف والد زميلنا منير يأتي في أوقات متفرقه من مدرسة الملك فيصل بالعبدلي ليعطينا بعض الحصص، وكنا نترقب استاذ الانجليزي بفارغ الصبر حتى جاء الأستاذ عدنان.

عبر ألينا بملابسه المدنيه، بدلة زرقاء انيقه، وقميص منش وربطة عنق زاهيه يسبقه عطره وتصفيفة شعره المشبع بالكريمات العطريه. كان طويلا مهيباً شديد البياض. ذكرني بإلاستاذ يوسف الزعبي ولكن مع مهابه أكبر. طلب منه أن يداوم في ملابسه المدنيه حتى تتم خياطة ملابسه العسكريه بأناقه. كان كل يوم يأتي ببدله جديدة طيلة أكثر من عشرين يوماً، لم نشاهد البدله عليه مرتين. كنا لا نشعر بما يقول أكثر من شعورنا بما يلبس. لم أكن مع المتاملين به كنت معجباً بنقيضه زيدان حسين. يبدو كفلاح بملابس عسكريه غير مرتبه. يتحرك في كل مكان، يمسك الفأس ويعمل طيلة أوقات الفراغ، مع انه كان برتبة لابأس بها وكان يشغل وظيفة مدير المنزل ومعلم الرياضيات. بينما كان الأستاذ النائب محمد رضوان " ثلاث شرائط " هو مشرف المنزل. ويعيش معنا في غرفه خاصة بالطابق الثالث. ونعود إلى زيدان الذي كان عبقرياً – في اعتقادي بكل فعل يقوم به، وحتى في دروس الرياضيات، كان يشرح لنا المسائل بصورة متقنه

ومقنعة، وبجهد يبذله وكانه يعمل في الحقل، ثـم ينظـر ألينـا بعينيـه العسليتين الشـاقبتين ويبتـسم ويخرج تاركاً وراءه موجات من الاعجاب. ألا أن دخول الأستاذ الداغستاني علينا ببدلتـه الانيقـه وربطة العنق الحريريه الناصعة الألـوان والمرفقـه بقطعـه حريريـه مـن نفـس اللـون تعلـو جيـب الجاكيت الايسر فوق القلب تماماً، يأتي ألينا ويطلب منا أن نفتح الكتاب، ونقرأ، ويفسر لنـا معـاني بعض الكلمات باورسـتقراطيه مفرطـه بالهـدوء وعـدم الاعـادة. كـان لا يبـذل جهـداً حقيقيـاً في الحصه، وكأنه لا يعنيه أن ننجح أو لا تنجح. كان معظمنا دائـب التحـديق في أناقتـه، وربـما حملتـه احلام اليقظه لأن يغدو ذات يوم في مثل وسامته واناقته. وبدخولـه يغيـب الأسـتاذ زيـدان حتـى ليكاد يتلاشى هو وعبقريته الرياضيه والأدارية والزراعيه من الاذهان. الا انـه سرعـان مـا يعـود. نراه في المنزل فنرتعش خوفاً، نراه يلعب كرة الطاوله مع فائق حـسن فيغلبـه وهـو امهرنـا في هـذه اللعبه، ثم يحمل فأساً ويخرج للحفر تحت الأشجار القريبه من المبنى، كـان شخـصيه فـذه طاغيـه مؤثره دون أن يتكلم كثيراً أو يصدر المزيد من التعليمات. كثيراً ما كنا نرى سترته العـسكريه ملوثـه بالتراب، وشعره المجعد القصير لم يمسه المشط منذ ايام، اما محمد رضوان مشرف المنزل، فقد كـان رخواً بطيء الحركة، له جسم ضخم مهيب، وشعره اسـود طويـل، ووجـه مـدور، قلـما يـرى الا بسترته المفتوحة التي تبدو من تحتها فانيلا بيضاء نظيفه، وكأنه يقول لنـا أن نعتنـى بنظافـة ملابـسنا الداخلية مثله..

وهكذا كانت التشكيله الأدارية في القسم الداخلي، مدير المنزل هو الأستاذ زيـدان، ومـشرف منزل هو محمد رضوان، وعريف من الطلبة لكل طابق من طوابق المبنى، ورئـيس عرفـاء مـشرف على طابور الصباح وطابورالطعام. بالاضافه إلى الطباخ ابو عصام ومساعده. والماما التي ما كنـت اراها الا عند الاستحمام تتجول في" كرادور" الحـمام وبيـدها عـصا أمـرآة هـذا بإسـتخدام الليفـه جيداً، وذاك بفرك قدميه، وثالث باعادة تلييف جسده، كنا نصحو في الـصباح بعـد أن يطلـب منـا عريف الطابور المخصص، ثم نغسل وجوهنا ونغير ملابس النوم ونهبط إلى الـساحه الكائنـه امـام العمارة، فننتظم في صفوف يتقدم العريف الصف المكون من قاطني طابقه. وفي الامام يقف رئـيس العرفاء محمد فائق لاعب التنس المتميز، والى جواره مدير المنزل محمد رضوان. وكان يراد من هـذا تدريب الطلبة على القيادة الوسطى، فيكون قائدهم منهم ولكن تحـت اشراف القيـادة العليـا التـي هي مشرف المنزل المستخدم رسمياً لهذا العرض. ويتحرك الطابور بايعـاز مـن رئـيس العرفـاء إلى

قاعة الطعام، وهي عبارة عن طاولة رخاميه طويله إلى يمين الداخل حولها عدد من المقاعد، والأخرى مثلها إلى اليسار. يأخذ كل طالب مكانه وراء الطاولة بعد إن يتناول وجبته من شباك يفتح على المطبخ، ثم يجلس. وحينما ينتهى الجميع من الجلوس يصدر الأمر من رئيس العرفاء قائلاً: ابدأ، وفي الحال نسمع اصوات الملاعق وهي تتراقص في محتويات الصحون، وبعدها تكون هناك حبه من الفاكهة، أو قطعه من الحلوى، واذكر إنني أكلت في ذلك المطعم أكلات أعرفها لأول مرة، منها على سبيل المثال: الفاصوليا البيضاء، ومنها المقلوبه بالزهرة. ومنها الملوخيه على ما اذكر، وقد أحببت الفاصوليا البيضاء حباً شديداً ولا ازال، وكنت اترقب اليوم الذي حدد لها في برنامج طعامنا واظنه يوم الثلاثاء.

وبعدها نذهب إلى المدرسة، ثم نعود ونتناول طعام الغداء على نفس الوتيره السابقة، ويوم الجمعه يقل عدد الذين يبقون في المنزل. في يوم الجمعه اجازة رسميه تعطى لمن طلبها فيذهب الكثيرون إلى اهلهم. وكنت أنا اخرج طوال النهار فاجلس في مقهى الكواكب أو الكوكب، واظنه مازال باقياً في الزرقاء حتى الان. اواذهب إلى سينما النصر أو ركس إذا ما اعجبني فيلم فيها. كانت افلام فريد الأطرش وعبد الحليم حافظ الغنائيه هي التي تجذبني إلى السينما، بالاضافه إلى الصور المعلقه على مدخل السينما لمشاهد من الفيلم. كنت التقى بالزرقاء بشقيق زوج اختي محمود الملقب "بالقط "، كان جندياً في الجيش، ويأخذ أجازة يوم الجمعة، ويجلس في مطعم اسمه " المطعم الابراهيمي " واظنه مازال باقياً حتى اليوم. كنا نتغدى معاً، وكان هو الذي يدفع الحساب لانه يعرف الحاله الماديه لتلميذ لا دخل له. كنت أحاول التخلص منه وادعي إنني سأتغدى في المنزل مع زملائي، فيصر على طلب وجبتنا المفضله وهي علبه من " البولابيف اكسترا "، كم كان طعمها لذيذاً آنذاك. وكنت اذهب وحدي أحياناً حينما تتوفر معي ثمن الوجبه واظنه كان خمسه إلى سبعة قروش. ثم أعود إلى المنزل. وفي تجولاتي عبر شوارع الزرقاء لفت نظري كتاب يحمل عنوان " ماجدولين "بخط كبير، وتحته بخط صغير أو "تحت ظلال الزيزفون "، اعجبتني صورة فتاة حزينه تظللها شجرة خضراء وارفه، وفي خيالها فتى وسيم كثيف الشعر كأنه في الخلفيه، كنت احمل بضعة قروش أريد الذهاب بها إلى المطعم الابراهيمي الا إنني وجدت نفسي مشدوداً إلى الكتاب، سألت عن ثمنه فقال البائع عشرة قروش. لم اصدق.كان السعر مرتفعاً إلى حد لايصدق. كل ما معي لم يتجاوز القروش السبعه، لا أقول كل ما معي، ولكن كل

ما هو مخصص لانفاقي في ذلك اليوم. كنت احسب كل شيء، أعرف الايام الباقيه على نهاية العام، واقارنها بما معي من قروش. لقد كنت قادراً في ذلك اليوم أن انفق سبعة قروش، وعزمت أن اذهب بها إلى المطعم الابراهيمي، ولكن هذا الكتاب قد استوقفني. عندما عرفت سعره مضيت في طريقى، ناداني البائع:

- بكم تريده؟

- لا أعرف ولكن عشرة كثير.

- هات ثمانيه وليعوضني االله.

- وثمانيه كثير.

نظر إلي البائع شذراً، خفت من نظراته، لم أكن قد اعتدت التعامل والمفاصله مع البائعين، فسمعته يقول:

أنت تريد الشراء حقاً ام تتلاعب؟

أريد الشراء.

هات سبعة، وهذا آخر كلام.

اغراني تنازله السريع بالحصول على مكاسب أضافيه علماً إنني قد قررت الشراء، ولكن الشطارة ليست عيباً فقلت

معي ثلاثه، هل تكفي؟

نظر إلي شزراً وكأنني ارتكبت جرماً خطيراً، وقال:

أنت أهبل يا ولد ام تستهبل؟،

ادفع اربعة،

هات خمسه، وعوضي على الله،

اربعه.

هات اربعه. هذا اليوم كله خسارة بخساره.

قال ذلك وناولني الكتاب الذي تابطته وعدت به إلى المنزل وجلست فوق سريري، فقد أصبح لدي ما أقرأه، وليس إسماعيل وادي وحده هو الذي يقرأ، ويخفي ما يقرأ اما أنا سوف اقرأ دون خوف.

وبدأت أقرأ: من ماجدولين إلى ستيفن، من ستيفن إلى ماجدولين، هكذا بدأت القصه على شكل رسائل متبادله تحمل في طياتها تطورات الرواية الخالدة، التي عرفت فيما بعد أنها قصة فرنسيه من العصور الرومانسيه في القرن الثامن عشر، تتحدث عن حب خالد بين فتى وفتاه. الحب رومانسي روحي طاهر، فعبر إلي الخط شاب جلف مادي النظره، كثير المال اسمه "ادوارد" فاغرى عم الفتاة " الشيخ مولر" بكثرة ماله، ثم دفعت بها رسائل ستيفن التي انقطعت إلى قبول عرض ادوارد، والحقيقة إن الرسائل لم تنقطع، فقد كانت تحملها الخادمه"جنفياف " إلى عمها البخيل "موللر " فيحرقها، فظنت ماجدولين أن ستيفن لم يعد يحبها، اوانه قد تزوج من غيرها، ولكنه في الحقيقه لم يفعل ذلك، بل كان مشغولاً ببناء مستقبله كموسيقى ناشئ، ويترقب الوصول إلى المجد والشهرة كي يغدو جديراً بها. وقد لعب فريد الأطرش في احد افلامه دوره في هذه القصة من خلال فيلم شهير من أفلامه.

حينما عدت إلى القريه في صيف سنة١٩٥٨، كنت قد قرأت هذه القصة عدة مرات، ورحت أقصها على أصدقائي: طعمه العيسى، عبدا الله العكوبه، زهير المطلق، وأعرتها لبعضهم فقرأها، وبعضهم تمثلها وفهمها، حتى أصبحنا نتنور بإحداثها ونسقطها على شخصيات من القريه. فأذا رأينا رجلاً بخيلاً اطلقنا عليه لقب" مولر "، واذا رأينا شاباً ثرياً ينفق دون حساب قلنا هذا ادوارد، وأذا راينا شاباً هادئاً مفرط الحساسيه وحب الفنون قلنا هذا "ستيفن "، وكان هذا اللقب يطلق علي في اغلب الأحيان وكنا خلال العطله الصيفيه قد عدنا إلى ما كنا عليه، التامت شلتنا، فلعبنا الورق واصبحنا هذه المرة نلعب عن شرط، عن طلبات شاي أو قهوه، عن سجائر، عن"جلول ". ووصل بنا الأمر إلى اللعب عن ثلاث من علب السجائر، " السبورت" كان هناك ثلاثة انواع من السجائر: سبورت بخمسة قروش وسيد بخمسة قروش ونصف. وجولد ستار بسبعة قروش ونصف، وكان هناك نوعاً رابعاً قليل الاستخدام اسمه " لولو " بثلاثين فلساً. ولابد هنا أن اعترف إنني قد انغمست مع شلتي في خطأ شديد لابد من الاعتراف به، تحدثنا معاً، أنا وطعمه العيسى وعبد الله العكوبة حول الدخول في مغامره للعب "الهند " على ثلاثه من علب الدخان ماركة جولد ستار، والخاسر يدفع لصاحب المقهى ثمن ثلاثة علب من السجائر أي مبلغ اثنين وعشرين قرشاً ونصف. وتم الاتفاق بيننا نحن الثلاثه أن المغلوب يجب أن لا يكون واحداً

منا، لأنه لا يوجد بيننا من يحمل هذا المبلغ وان المغلوب يجب أن يكون هوا لرابع، هو زهير المطلق، هو الوحيد الذي يستطيع أن يدفع دون خوف، ويملك أن يدفع المبلغ.

جلسنا حول الطاولة، وكان المقهى هو احد البقالات التجاريه لرجل مسيحي من القريه اسمه ايوب، وضع طاوله في دكانه للعب الورق، عن أشياء محسوسه، لم يكن يقدم الشاي ولا القهوة ولم يكن لديه " راديو". لم يعد الراديو يجذبنا أو يهمنا. جلسنا نحن الاربعة حول الطاولة، وبدأنا اللعب من خلال تنسيق شديد بيننا نحن الثلاثه لان خسارة أي واحد منا ستكون فضيحة لها ما بعدها. وجاءة اللعبه الاخيرة كما نشتهي، فقد تأمن اثنان من الاعبين هما طعمه وعبد الله، واصبح على زهير أن " يضرب " الهند الكامل قبل أن أنزل، أي أن عليه أن يمسك بيدي ما اتينا ونحسب له"ستون ماينوس " حتى أكون أنا هو المغلوب. وهذه حاله نادرة وشبه ميؤس من حدوثها. أن مجرد اكتمال نزولي يعني أن الموضوع قد حسم، وكأنما شاء القدر أن يعاندني ويثبت لي أن الرياح لا تجري دائماً بما تشتهي السفن. فما أن امسك زهير بأوراقه حتى جاءت كلها منسقه وجاهزة للهند قبل أن يصلني الدور. فأعلن هند وهبطت أوراقه إلى الطاولة صحيحة مائه بالمائة، وأصبحت أنا الخاسر، فماذا أفعل؟، وهذه ورطه وقعت فيها مع أيوب صاحب المقهى؟. وفجأة لاح في ذهني خاطر شرير، وقررت أن اطعن بالهند الذي أعلنه زهير. نظرت إلى أوراقه المنسقة المرتبة التي لا يأتيها لباطل من بين يديها ولا من خلفها، وفجأة لاح الحل في ذهني، نظرت إلى أوراقه فرأيت أحداها هو الأربعة البستوني، وكان معي مثلها فقلت:

- زهير، هذه الأربعة البستوني لي، من أين أتيت بها؟ حاول الدفاع عن موقفه فقلت:

- الأربعتان معي منذ أن مسكت بالورق، هذه واحدة معي فكيف ذهبت الثانية إليك؟

أقسم أنه لم يأخذها، وإنها من أوراقه، نظرت إلى شريكيّ فأيدا رأيي وهما يعرفان إنني لست صادقاً. وتجادلنا طويلاً إلى أن اتفقنا على إعادة ألّلعبه، وهيهات أن تعود الفرصة لزهير مرة أخرى، فغلب ودفع. وحملت العلبة الثمينة ومضيت بها فرحاً أبي لأعطيه إياها، وحينما سألني عن مصدرها، أخبرته بأنني قد كسبتها في اللعب، فصفعني ثم أخذ العلبة وهرسها والقى بها بعيداً. وهكذا جاء العقاب سريعا على ثاني ذنب ارتكبته بعد سرقة الفقوس قبل ذلك بأعوام عديدة، ولم أعد إلى مثلها طول حياتي.

لم تكد تنقضي ايام على العطلة الصيفية: حتى هـزا اسـماعنا نبـأ فـاجع. انقـلاب عـسكري في العراق، ومقتل الأسرة الهاشمية كافة وكل اركان نظام الاتحاد العربي وفي مقدمتهم رئيس الـوزراء آنذاك ابرهيم هاشم. كان وجودي في مدينة الزرقاء، ومشاركتي في تهنئة الملـك حـسين مـع جمـوع ابناء الشعب، قد جعلني التمس طريقي في فهم ما يـدور حـولي مـن امـور سياسـية. كـان الاتحـاد العربي قد جاء رداً على الوحدة السورية المصرية تحت اسم: الجمهوريـة العربيـة المتحـدة في اوائـل العام نفسه. واصبح جمال عبد ناصر يتطلع إلى بـسط هيمنتـه عـلى اقطـار عربيـة اخـرى مـدججاً بشعبيته الطاغية حتى بين ابناء الشعب الأردني. كانت الاعلام المـصري هـو المهـيمن مـن خـلال تعداد الاذاعات: القاهرة، صوت العرب، الشرق الاوسـط، وكـان معلـق صـوت العـرب أحمـد سعيد يشكل غذاء اعلامياً لـشعوب العربيـة في كـل مكـان ممجـداً لمـصر، ولجـمال عبـد النـاصر، ومهاجماً للانظمة الاخرى وبخاصة السعودية والأردن. وكان الناس يـسمعونه سراً، وكـل ممنـوع مرغوب. وكان عبد الناصر بشخصيته الطاغية، وقدرته على مخاطبة الجماهير قد أصبح رمز الامـل للامة من المحيط إلى الخليج. حتى إنني اصبحت من معجبيه والمروجين له، والاملين بقدرتـه عـلى القاء اسرائيل في البحر بواسطة صواريخه المسماه: بالقاهر والظافر. وقد دفعت ثمن هذا الاعجـاب غالياً كما سأبين ذلك فيما بعد.

في تلك العطله تحدث الي محمد علي السلمان، شـقيق الـشاعر طـه الـسابق الـذكر. وصـاحب الدرجة الأولى دائماً عن مدرسة الزرقاء والقسم الداخلي، فأثنيت عليها، مما دفع به إلى الطلـب مـن شقيقه طه الذي كان في سلاح البحرية بالجيش أن يـسجله. فـسجله واصـبح زمـيلاً لي في القـسم الداخلي للسنة الدراسية١٩٥٨- ١٩٥٩.

-٧-

تميزت بداية العام الدراسي لتلك السنة بغياب الماما. أبو عصام ومساعده في المطبخ على حالهما. الأستاذ زيدان ومحمد رضوان على حالهما. صديقي محمد أصبح سريره إلى جواري. وبصفتي صاحب خبرة متقدمه عليه هناك فقد كان يستشيرني في كل الامور. وكعادته ابدى تفوقه العجيب على كل طلاب الصف، وكعادتي لم استخدم ذكائي كله في المنافسه على الدرجه الأولى. ولكنني كنت الاحظ أن الاساتذة والمشرفين ينظرون الي نظره خاصه، يجدون لدي الذكاء، والذكاء الامنهجي. وقد فوجئت ذات يوم حينها استدعاني مشرف المنزل محمد رضوان وسألني:

- هل ترغب أن تكون رئيس للعرفاء في المنزل؟

كانت مفاجأه تامه ومذهله بالنسبه لي. لم أكن اتوقع ذلك ولم أكن اسعى إليها. كان محمد فائق قد غاب عن الساحه لاأدري أين ذهب، وشغرت مكانة رئيس العرفاء. كان هناك من هو أكبرمني سناً، واعلى مني صفاً، ولاأدري لماذا وقع أختيارة علي لاقوم بهذا العمل. ترددت قليلاً ثم قبلت. وفي اليوم التالي كنت أقف امام صفوف طلبة القسم الداخلي، والى جواري مشرف المنزل الأستاذ محمد رضوان أو أنا إلى جواره. صدرت الكلمات من فمي بطيئه هادئه خفيفه، " إلى اليمين در "، استدار الطلاب إلى اليمين فشعرت الأول مرة بأهمية ما أقول. ثم واصلت بصوت أكثر جرأة" معتداً مارش "، وفجأة بدأ الطلبه بالانسياب صوب" الميس" وعندما وضعت وجبة الافطارامام كل منهم ترقب الجميع كلمتي، وتذكرت ماكان يقوله محمد فائق "أبداً ". وخرجت الكلمه من فمي فضجت صالة المطعم باصوات الملاعق ورشفات الشاي واصوات المضغ، وبعدان أنتهى الطلبه من أفطارهم خرجوا تباعاً ليعدوا كتبهم ويتحركوا إلى المدرسه، بينها كنت أنا اتناول طعام أفطاري مع بعض العرفاء الذين كانوا يقفون على رأس كل صف، بينها كان الأستاذ محمد رضوان يتناول طعامه في غرفته بعد أن يرسل إليه بواسطة مساعد ابوعصام.

في تلك الاثناء كنت قد تعلمت لعبة التنس " كرة الطاوله" ولكن ليس إلى درجة الاحتراف والتفوق. في تلك الاثناء كذلك نقل عمي محمد إلى الزرقاء وجاء باسرته واستأجرمنزلاً في

الغويريه وكنت اذهب إليه في ايام الجمع والعطل الرسميه. ولكنني أعود في المساء لانام في المنـزل. وهناك كنت التقى بمحمود شقيق زوج اختـي الكـبرى والملقـب "بـالقط" لحالـه معينـه في نـبرة صوته. وكان هو كذلك شقيق أمرأة عمي محمد كما أسلفت. واذكر أن محمود هذا قـد تعـرف عـلى اسرة وخطب أحدى بناتها. ولا اذكر هل تزوج ام لا، ويبدو أن خلافاً قد نشب بينهم وبينـه. اثنـاء الخطبة فطالبوه بفسخ الخطبه وارغموه على ذلك فاراد الانتقام منهم وقال لي ذات يوم:

تعال، اريد أن اذهب أنا وانت في مهمه عاجلة.

لم أكن أنقاد بسهوله فتساءلت:

الى أين؟.

اريد أن اعلم على دار "نسايبي " لأريهم من أنا.

لم أكن أعرف ماهي كلمة التعليم، فشرحها لي أنه يريدان يضع أشارة ما أو مـصدر نـاري مـا، أو يكسر زجاج أحد من الابواب، لكي يعرفوا أنهم ليسوا أمنين لما فعلوه. وعليهم أن ينـدموا بعـد أن يخافوا وقد يعود إلى خطبة أبنتهم التي قال أنه يحبها كثيراً، وأنه يذكر أنها كانت تقـشر لـه التفـاح حينما يزورهم وتضع القطع في فمه. رفضت بـشدة. لم أكـن أريـد أن أخـالف القـانون الكـامن في داخلي منذ تلك الصفعه التي نلتها من والدي على علبة الدخان التي ربحتها دون حـق مـن زهـير. اتهمني بالجبن فقبلت ومضيت عنه ولا أدري ماذا فعل بعد ذلـك. لم أكـن انقـاد بـسهولة، وكنـت حكيماً في تدبير أموري فأنا أعرف فقر أهلي. وآمالهم التي يعلقونها علي، والجنيهات القليلة الـصعبة التي يؤمنون بها لنفقات دراستي. هذا فضلاً عن ساعه بيولوجيـة تـرفض الخـروج عـن الطريـق كالقطار، اذكر أن مشرف المنزل أستدعاني ذات يوم بعد تعييني رئيساً للعرفاء إلى غرفتـه، ورحـب بي وطلب مني الجلوس فجلست متهيباً. كان أمامه ابريق مـن الـشاي وحولـه أكـواب. صـب لي كوباً، فاعتذرت. قبلت بعد أصراره الآمر. ثم بدأ يحدثني عـن الاغـاني. كـان الراديـو في حجرتـه يبث أغنية "حبك نار " لعبد الحليم حافظ. قال لي أعرف انك تحب فريد الاطرش فما رأيـك بهـذه الاغنيه؟ تشجعت وأجبته انني أحب كل اغنيه متقنة الالحان، وقد وجدت هذا النمط من الاغـاني عند فريد أكثرمن غيره، ضحك وقال:

"هذا حقك ياأبني، عبر عن رايك ولا تخف.

كان شيئ ما في أعماقي يتساءل عما يريده الأستاذ، وبعد قليل زالت رهبتي من الجلوس في حجرته فبدأ حديثه يتطرق إلى شوؤن سياسيه، الاحزاب، البعث، الاخوان، طائرة الملك فوق الاراضي السوريه، قال لي أن كلمات الاغنيه الشهيرة:

اني لاقسم بالاله قسماً تخرله الحياة

أني سأخلص للمليك وللبلاد مدى الحياة

هذه الكلمات ليست للاستاذ زيدان كما يظن الجميع. قلت في نفسي وما دخلي أنا؟ الاأنني اكتشفت أنه يغار من الأستاذ زيدان مسوؤله المباشر والذي كان يتقدم عليه برتبتين: النقيب والوكيل. وكان النقيب آنذاك هو الرقيب أول هذه الايام. عاد يسألني عن رأيي بالاحزاب والحركات، وفجاة هبطت عليه جراة لا أدري من أين وقلت وأنا أقف:

استاذ، أنا جئت هنا كي أدرس. فقط كي أدرس.

أمتقع وجهه وغير الحديث بما معناه أني فهمت بشكل خاطئ ما قال، ثم أمرني بأن لا أتحدث بهذا الامر إلى أحد، وصرفني من غرفته بلهجة أمرة، وخرجت. وبالفعل لم اتحدث بهذا الامر إلى أحد لانني قد نسيته تماماً. وواصلت عملي كرئيس للعرفاء بعد أن توقعت عزلي، ويبدولي أن أمر تعييني كان من الأستاذ زيدان وليس منه. كما واصلت دراستي وتفوقي، وتفاعلي مع الأصدقاء الذين تبادلت معهم الصور: ماجد الروسان، محمد العمري، شكري جرى، عبد القادر رباعي، سميره عصفور، نوح فرحان وأخرون، إلى أن جاء الشهر الثالث أو الرابع من صيف سنة ١٩٥٩، أي قبل الامتحان النهائي للصف الثانوي الرابع بشهرين أو ثلاثة. وقد حمل ذلك الشهر إلى حياتي زلزالاً مدمراً غير مجرى حياتي تغيراً جذرياً من اقصى االيمين إلى أقصى الشمال وأطاح بكل ألامال التي كنت ارجوها لنفسي ويرجوها مني من حولي. من المدرسة والمعلمين قبل الاهل و الاقارب، كيف حدث ذلك الزلزال،؟ ! ولماذا أصابني وحدي دون غيري،؟

في تلك الاثناء كنا قد بدأنا نسمع عن مرض خطيرلادواء له اسمه " السرطان ". وكنا نعتقد أن السرطان هو نفسه ذلك الذي نراه في الماء" ابوجنيب " له ذراع ومخالب عديدة. وانه يتشكل في "مخ" الإنسان ويبدأ بالتمدد داخله حتي الموت. وكان الاعتقاد آنذاك أن السرطان هذا لايصيب ألا "المخ ". وكنا نتحدث عن شخصية عالميه مرموقه قد اصيبت بهذا المرض، هي: جون فوستر دالاس وزير الخارجيه الامريكية آنذاك. كنا نتعاطف مع هذا الرجل كإنسان.

ونتخيل ذلك الاخطبوط ذا الاذرع العديدة الطويله كيف يسرح ويمرح داخل جمجمة رأسه وهو يصرخ من الالم. ارتبط الموضوع في أذهاننا بالخوف رغم بعد تلك الاصابه عنا هناك بعيداً في واشنطن. إلى أن جاء ذلك اليوم المشؤوم، أو ذلك الصباح من اليوم المشؤوم حينما كنت اقف على رأس صالة الطعام واوشك أن اصدرالامر بالطعام "أبداً"، حينما اشار لي الأستاذ محمد رضوان بيدة أمرا بالانتظار فانتظرت، بينما طلب هومن الزملاء أن يستمعوا إليه جيداً. ترى ماكان قد ضره لو غاب في ذلك اليوم؟، ما كان ضره لو لم يقرأ تلك المجله أو احتفظ بما قرأ لنفسه؟ ترى ما كان ضرني أن لو غبت في تلك الساعه لأي سبب من الاسباب؟، ولكن ما كان مقدراً قد حدث قال محمد رضوان:

اسمعوا ياشباب، كلكم قد سمعتم عن مرض اسمه "السرطان"، همهم الجميع بما معناه أنهم قد سمعوا فاستدرك:

لعلكم تظنون خطأ أن هذا السرطان لا يصيب ألا الدماغ كما في حالة جون فوستر دالاس.

همهمه أخرى وكان البعض يستعجله كي يبدأ بالافطار دون أن يعنيه جون فوستردالاس ولا ما سيقوله محمد رضوان. ألا أنني قد أصغيت له بأهتمام شديد وقد بدأ الخوف يتسلل إلى قلبي، بينما كان الأستاذ محمد رضوان يستعرض ثقافته الواسعه في متابعة ما تنشره المجلات العلميه المتخصصة.

- قرأت في أحدى المجلات العلميه أن السرطان قد يصيب الحلق أيضاً، فأذا أحس أحدكم بأي الم أو حشرجه في حلقه فعليه أن يراجع الطبيب دون ابطاء.

وما أن اكمل جملته حتى شعرت بحشرجة مفاجئة في حلقي، واجتاحتني موجة هائلة من الرعب زادت بها الحشرجة حتى تحولت إلى الم فاكتملت حسب شروط المجلة العلمية كل أعراض الاصابة. أشار لي أن أصدر أمر البدء بالطعام فأصدرته بصوت خفيض. أكل الشباب بشهيه بينما غابت شهيتي أنا، وذهبت إلى المدرسة ساهما خائفاً مفكراً. كانت الاعراض تتشكل عندي أكثر وأكثر. حينما صحوت في اليوم التالي كان حلقي جافاً فتأكدت أكثر أنني مصاب وبدأت اتحرك بايامي الباقيه - حسب اعتقادي آنذاك - على نحو مختلف، قدمت أستقالتي من رئاسة العرفاء. قبلها مدير المنزل مستغرباً لم اعد أذهب حتى إلى " الميس " كان أصدقائي يأتون الي

بالطعام إلى سريري. وحينما اذهب إلى المدرسة اجلس شارداً وحينما أعود لاأراجع دروسي، ولا أحل المسائل ولاأقوم بواجباتي. تحملوني في المنزل لمكانتي وحبهم لي، وتحملوني في المدرسه لشدة ذكائي وأدائي وتعاوني. أما أنا فكنت اتصرف على أعتبار أيامي أو أشهري قد باتت معدوده وانني أعيش في الوقت الضائع، وان أي قرش ينفقه أبي علي هو خساره لالزوم لها. إلى أن أعلنت عن تلك الالام التي شعرت بها في حلقي ولكنني لم أطلع أحداً على هواجسي.

ذهبت إلى عيادة المدرسه. فحصني الطبيب فحصاً دقيقاً، طلب مني أن أفتح فمي، ووضع قطعة من الخشب خفض بها لساني وحدق وعلى عينيه نظارتان مشعتان في حلقي وقال:

-احتقان بسيط في الحلق. سلامتك يأبني.

أعطاني بضعة أقراص من الدواء. وطلب مني أن أشرب شراباً فاتراً وان أبتعد عن المثلجات. والحقيقة انه لم يكن هناك احتقان ولا يحزنون. بل كان هناك حساسية تسبب من الوهم وما جرني إلى ذلك الوهم من الحشرجات المصطنعة. وأكملت العلاج ولم يتغير شيئ، والسبب، انه لم يكن هناك شيئ كي يتغير. ألا أن اعتقادي بما أصابني، كان بمنزله الإيمان. كان أصدقائي هم الأكثر حيرة بما أصابني، كان احدهم على قرابه مع الطبيب العسكري الذي تقوم داره التي هي سكن وظيفي في الجهة الجنوبية من المبنى. حدثه عني فطلبني إلى داره وفحصني فحصاً دقيقاً ثم ربتّ على ظهري قائلاً، اذهب يا بني، أنت سليم تماماً. وذهبت وانا اعتقد جازماً أن ذلك الطبيب لا يعرف في الطب شيئاً، ولو عرف لاكتشف ما أصابني. أنتهت السنة، وقدمت أمتحان الثانوي الرابع من الذاكره، ونجحت، وعدت إلى القريه شاكياً محيراً كل من حولي، والدي " كوى " رقبتي بقطعه صغيرة من " القدحه "، آلمتني كثيراً، ولا زال مكانها بارزاً حتى الان دون فائدة. أمي لم تترك عشبه الاغلتها وسقتني أياها. حتى حكيم القريه الشاويش حسن حسين قد أصبح من كونسولتو المعالجين. وقبل أن ابين كيف لابد وأن احدثكم عن الشاويش حسن الحسين كما عرفته:

لقبه هو الشاويش. هو من عشيرتنا. الا أن لقب الشاويش قد غلب عليه وأبناؤه وأحفاده حتى اليوم يسمونه " دار الشاويش ". أكتسب اللقب حينما كان محارباً بالجيش التركي. كان أكبر من والدي سناً. كنا كثيراً ما نستمع إليه وهو يتحدث عن " سفر برلك "، وكيف شربوا بول الخيول واكلوا حبات الشعير المستخرجه من " روثها " كان يقول أنا ذهبت إلى الهند والسند

والبورغال يعني " بلغاريا " كان الناس يقصدونه للعلاج وخاصة لخلع الاسنان، شاهدني ذات يوم وأنا أجلس على حجر أمام المقهى تحت أشعة الشمس واضعاً يدي على أعلى رقبتي، قال بعد أن أقترب مني:

مالك عموه؟،

حلقي عموه، يؤلمني كثيراً ولم ينفع معه أي علاج.

أفتح فمك.

فتحت فمي وحدق فيه لبرهه ثم قال:

- كله من أسنانك عموه. عندك سن خربانه.

- وماذا أفعل عموه؟!

- أنا بقلعلك إياه، وعمرك ما بتشوف الوجع.

كنت كالغريق الذي يتعلق بالقشة، قلت:

ماشي عموه، متى ستقلعه؟

أذهب أنت إلى بيتكم، وأنا اذهب إلى بيتي فاحضر الكماشه والحق بك.

لم ترهبني كلمة " كماشة ". وهل ضررها سيزيد على ما أعانيه من مرض خطير؟

أسرعت إلى البيت، وجدت ابي هناك، حدثته عما حدث بيني وبين الشاويش فضحك وقال:

لايابه لا، هاذا ختيار مخرفن، أوعك.

بعد قليل جاء الشاويش وبيدة " الكماشه". رحب بـه أبي فقـد كانـا صـديقين، شرب الـشاي عندنا ثم سأل عني كي يخلع ضرسي فقال أبي:

لا، لا، ضرسه سليم، وما بيه خلاف.

دعني أخلعه يا أبا محمود، سوف يرتاح، حركه واحدة بالكماشة وستراه يطير إلى هناك،

قال ذلك وأشار إلى مكان بعيد، ولم يوافق أبي. وعاد الشاويش حسن الحسين من حيث أتـى. واكتشفت فيما بعد أن والدي كان أبعد مني نظـراً. تـرى مـاذا كـان سـيحدث لـو أسـلمت فمـي لكماشة الشاويش المعدة أصلاً لخلع المسامير من حوافر الخيل؟

مضت العطلة الصيفية لسنة ١٩٥٩ حزينة بائسة. الإقبال على الحياة يتلاشى، أمام ضربات الوهم. شلة الأصدقاء تفرقت بعد أن ذهب بعضهم إلى عجلون وآخرون إلى كفرنجة، وبعضهم في أربد. كنت واسطة العقد بينهم فانطفأت شموعي وانطفأ الفرح. في تلك ألسنه أو التي بعدها لا أذكر تزوجت أختي الوسطى من شاب قريب لاحد أصدقاء أبي وكان معي في المدرسه، صديق ابيْ اسمه "أبو سليم "، وهو غير ذلك الذي سجلني في الصف الأول. وسكنت أختي في بيوت مقامه على أراضي لابي سليم وأخواته اسمها " المزار ". وعدت أنا إلى مدرستي أجرجر أذيال الحزن. وانتشر حزني في القسم الداخلي والمدرسة والمطبخ والساحة، قال لي أحد الأصدقاء:

- لماذا لم تراجع المستشفى الرئيسي في ماركا.

كان المستشفى الرئيسي تابعاً للقوات المسلحة، وأنا مؤمن صحياً لدى القوات المسلحة. طلبت تحويلاً إلى ذلك المستشفى فتمت الاستجابة للطلب. ذهبت إلى المستشفى فراجعت قسم: "الانف والاذن والحنجرة"، ولحسن حظي فأن رئيس القسم نفسه هوالذي فحصني: كان برتبة رئيس "نقيب حالياً". شخصيه عسكرية مهيبة، وزادته مهابه تلك النظارات التي وضعها على عينيه ساعة الكشف. وعرفت آنذاك أن اسمه هوعبد السلام المجالي الذي نعرفه الآن جميعاً. ولم أخرج من عند المجالي الا ببعض أقراص من الادوية فخرجت غاضباً لان ذلك الطبيب لم يكشف ذلك السرطان الذي يعيث في حلقي فساداً وتخريباً، فعدت إلى المنزل والى مدرستي التي كانت تتعامل معنا نحن أبناء الصف الثانوي الخامس تعامل الكبار. لم يكن الصف الثانوي الخامس متضمناً لكثيرمن الدروس الجديدة. كان أشبه بالمراجعه لما حدث استعداداً لامتحان الثانويه العامه" المترك "الذي سيجري في الشهر السادس من ذلك العام سنة ١٩٦٠. لم استوعب من الصف الثانوي الخامس إلا لقليل. كنت أهوي يوماً بعد يوم أن لم تقل ساعه بعد ساعه في مهادي اليأس والقنوط، وكان الاستغراب قد بلغ مني مبلغاً شديد حينما مرعام على احساسي بالمرض ولم أمت. ويتحدد موعد أمتحان المترك، واصبح علينا التسجيل لذلك الامتحان حسب مناهج وزارة التربيه والتعليم، وكان علينا أن ندفع رسوم الامتحان البالغه نصف دينار عن كل ماده دراسيه. وكانت المواد المطلوب سته، أي أن مجموع المطلوب عنها هو ثلاثة دنانير. وحينما جاء دوري للدفع قررت أن لا أدفع، لماذا أُخسر والدي ثلاثة دنانير ما دمت لن أعيش حتى اردها له، قلت للاستاذ الذي كان يجمع منا رسوم الامتحان وكان في جيبي مايغطي تلك الرسوم:

- أنا يا أستاذ لاأريدأن أقدم.

- بدت الدهشه الشديدة على وجه الأستاذ وقال:

- أنت؟ أذا لم تقدم أنت فمن يقدم يا أبني؟

- هكذا يا أستاذ، أنا لاأريد.

صمت الأستاذ قليلاً، ورأيت تفاعلات عديدة ترتسم على وجهه، ثم نظر الي وقال بحنان الاب بعد أن أنتحى بي جانباً:

- اسمع يا بني، أذا لم تكن معك النقود، فأنا أدفع عنك.

أنتفضت كأن ثعباناً قد لدغني، وشعرت بإهانه شديده:

- لايا أستاذ لا، ليس هكذا، أنا لا أريد أن أقدم وكفى.

- يابني، أدفع أنا عنك وحينما تتوظف تعيدها الي، المهم عليك أن تتقدم هذا أمر.

وفجأة مددت يدي إلى جيبي ودفعت الرسوم. وبعد شهرين كنت أسكن في فندق متواضع بالزرقاء وأقدم الامتحان. أجرة الفندق على ما أذكرعشرة قروش يومياً. وما أن أكملت الامتحان حتى عدت إلى القريه كي أكون مستعداً للموت الذي أنتظره في كل لحظة. لم يكن يهمني أن أنجح أولا أنجح. لقد قدمت الامتحان ثأراً لكرامتي ودفعاً لنظرة الشفقة علىّ من المعلم الذي يجمع الرسوم، أما الان فلم يعد لدي ما أخشاه. وواصلت رحلة البحث عن تجارب علاجيه تنقذني مما أنا فيه. وكان لابي سليم الآخر صديق أبي الذي اصبح صهرنا دور في البحث عن العلاج، كنت أذهب إليهم في المزار لزيارة أختي الوسطى في المناسبات. كانوا يستقبلونني وكأنهم يستقبلون أبي أوشيخ عشيرة كبيرالسن. كانت الفرشات توضع تحتي، وغدائي هو المنسف، وأفطاري هو البيض والزبدة واللبنه والعسل والرايب و المعلاق المقلي وغيرذلك. وأحياناً يكون "لقناً" واسعاً طافحاً بالرز والحليب تتماوج على سطحه السمنه البلديه المسالة، وحينما أعود يحضرون لي فرساً اركبها ويأتي معي أحدهم ماشياً ليعود بالفرس إلى أن كان ذات يوم.

جاء ابوسليم الينا فحدثه ابي عما أعاني، وسمع مني، ثم فكر قليلاً وقال:

- مارأيك أن تقطع " الطنطيف "؟

والطنطيف هوا لزائدة المدلاه من سقف الحلق. وقطعها يجنب الحلق كثيراً من الامراض. ولما كنت كالغريق الذي يتعلق بالقشه فقد وافقت وسألت أين يقطع هذا الطنطيف؟ فقال ابو سليم.

- عند الحاج ابو صيني في فارة " الهاشميه حالياً ".

واتفقنا أن أذهب إليهم في المزار، وأنام عندهم، وفي الصباح اليوم التالي أتوجه مع أبي سليم إلى فارة لمقابلة الحاج ابو صيني الذي يعرفه ابو سليم جيداً، وهكذا كان. صعدنا من المزار صباح اليوم التالي، وقطعنا طريقاً طويلاً عبرالوديان والجبال حتى وصلنا إلى فاره، ومضينا إلى دار الحاج ابو صيني، فلم نجده في البيت. قيل لنا أنه في حقله، خارج القريه يحرث. وصف لنا الحقل فمضينا إليه. سلم علينا وكفاه معفرتان بالتراب. شرح له أبوسليم الحاله فطلب مني أن أفتح فمي ونظر فيه فقال: "طنطيف "جاء بسكين معقوف معفر هو الآخر بالتراب، وادخله في فمي وأطاح بنصف الزائدة المدلاه من أعلى الحلق وسال دم غزير. أنتظرت حتى أنقطع ومضيت عائداً مع " أبوسليم " ومرت الايام التاليه في معاناه والم شديد حتى التأم الجرح وترقبت الشفاء فلم يبُد له أثر.

وفي الموعد المحدد لظهورنتائج الثانويه العامة، وهوعلى ما أذكر الشهر الثامن لسنة ١٩٦٠. وكان الاتفاق أن نلتقى في عمارة القسم الداخلي وهناك نبلغ بالنتائج، لم يكن يهمني ماذا ستكون النتيجه، ناجح أم راسب سواء، مادام الموت قريباً فلامعنى للنجاح ولا الرسوب. سمعنا ونحن في القسم الداخلي أن النتائج قد جاءت إلى الادارة، أحدنا واسمه عبدالكريم عبدالرحيم عثمان لم يطق صبراً. مضى مسرعاً إلى الادارة، وبعد دقائق عاد وهو يلهث ويشيرالينا واحداً واحد: أنا ناجح، أنت ناجح، أنت ناجح، أنا ناجح، وكنت ممن أشار إليهم بالنجاح. فلم تعني لي هذه الاشاره شيئاً. بينما شاهدت الفرحه على وجه زميلي وأبن قريتي محمد على سلمان. فعدنا معاً نحمل أخبار النجاح. وما عبرنا إلى مشارف القريه من جهة الغور حتى تلاشت فرحة محمد بخبرعن موت ابيه الذي كان مريضاً من أشهر. أما أنا فقد عبرت إلى دارنا فقابلني أبي وهوخارج إلى مضافات بعض أصدقائه فسألني: - شوصار معك يا ولد؟

- نجحت

- مليح

قال ذلك ومضى خارجاً، دون أن أشاهد على وجهه أي فرحه، وحينما اذكر ذلك اليوم اقارن بين الماضي بالصورة البسيطه التي رسمتها، والحاضر بالاحتفالات والهدايا وأطلاق الرصاص والزغاريد. أما أنا فقد نسيت أنني قد حصلت على شهادة المترك، مع عدد من زملائي أظنهم سته. وهم أول من حمل هذه الشهادة في قريتنا بعد شاب مسيحي يكبرنا بأعوام اسمه سالم بدر، أخوه رفاييل نجح معنا، ولاأعرف شيئاً عن أخباره بعد ذلك. كان عدد كبير من زملاء الطفولة قد تخلفوا عن مواصلة الدراسه حتى المترك منهم أبن عمي وعبدالله العكوبه، وطعمه العيسى وآخرون ذهب بعضهم إلى الجيش، وانصرف آخرون إلى مشاغل أخرى. أقولَ بأننى نسيت بأنني حاصل على شهادة لها وقعها آنذاك، وكانت القاعدة التي ينطلق منها صاحبها باتجاه مستقبله بعد ذلك. ذكرني والدي ذات يوم بهذا الامر:

- ماذا تريد أن تفعل " يابه " هل ستظل قاعدا؟

- ماذا أستطيع أن أفعل؟ سأقدم طلباً للتوظيف.

كان من المتعارف عليه أن يقوم كل من اجتاز امتحان الشهادة الثانوية بنجاح أن يقدم طلبا للتوظيف لدى ديوان الموظفين في عمان ثم يعود إلى بيته ويترقب الاستدعاء، قلت لوالدي:

- حينما نذهب بعد أيام ونحصل على الشهادة.

كان ما حصلنا غليه هو إشعار بالنجاح، أما الشهادة "الكرتون" فقد كانت تصدر بعد شهر عن وزارة التربية والتعليم. ذهبنا لاستلامها من المدرسة. وهناك عرض علينا مديرها بتكليف من قسم الثقافة العسكرية العمل كمدرسين في مدارس الثقافة برتبة نقيب "رقيب أول" اليوم لمن يحمل ألمترك، ورتبة نائب "نقيب" اليوم لمن يحمل شهادة الدراسة الثانوية فقط. تسلمت شهادة الدراسة الثانوية باحتفال عسكري مهيب تحت رعاية عطوفة القائد العام للقوات المسلحة. وكنا ثلاث مدارس: النصر الثانوية "مدرستي" ومدرسة الفتح الثانوية وكلية فيصل الثاني. وقد ظهر اسم عشيرتي مقترنا بأسمي لاول مرة على شهادة الدراسية الثانوية ولم يظهر على شهادة المترك. وحينما عدت إلى قريتي متأبطا شهادتيّ المترك والثانوية. وحدثت أبي عن العرض الذي قدم لي للعمل مدرساً برتبة نقيب، غضب غضباً شديداً ألا أني اخبرته بأنني على استعداد للعمل في أي مجال ألا التدريس، فآلام حلقي لا تسمح لي أن اقف أمام الطلاب واتحدث واشرح الدروس

لساعات. اقتنع والدي بعذري على مضض ورأيته بعد أيام قد عاد من الشارع "الجامع" وهو يقول:

- اسمع يا ولد، حضرّ حالك، اريدك أن تدرس دكتور بالشام.

- والمصاريف يا أبي؟

هكذا أجبت من اعماقي رافضاً الفكرة من أساسها فقال:

- أبيع المارس بالتقسيط على ست أو سبع سنوات، وقسط كل سنة يكفيك حتى نعود.

كانت كلمة المارس تعني قطعة ارض في منطقة "قافصة" تقارب الأربعين دونما، أرض منبسطة ذات تربة حمراء خصبة، على رأسها بئر ماء لجمع ماء المطر، تزرع زراعات شتوية بالقمح والشعير الذرة والسمسم. تخيلت هذه الأرض وقد ذهبت لغيرنا على غير طائل، ستذهب الأرض وثمنها إدراج الرياح. هل من المعقول أن أعيش سبع سنوات أخر حتى أصبح طبيبا وارد إلى أبي ثمنها أما بالمال وأما بالفرح. رفضت الفكرة رفضاً باتاً. عجب كل من سمعني، فهم لا يعرفون أنني أترقب الموت. لم أكن أبوح لأي كائن كان عما يدور في أعماقي، كنت أكتم سري في أعماقي فأزداد كآبة وحزناً.

كان قد مر عامان تقريباً على حالة الوهم التي استوطنت كل خلايا جسدي. وكنت أعجب كيف استطعت أن أعيش هذين العامين؟ وكيف لم أمت حتى الآن؟ كنت في العشرين حسب تقدير للسن حصلت عليه قبل عامين. كانت المدرسة قد طلبت من كل واحد منا شهادة ميلاد. ذهبت إلى عجلون فلم أجد لي اسماً في سجل النفوس، وجدت اسماً لمولود بعد أختي الوسطى اسمه "سالم" من مواليد الخامس من نيسان ١٩٤٥، فهل هذا هو أنا؟ استأنست كثيراً بذلك كثيراً بذلك الاسم "سالم" واستخدمته كثيراً في قصصي وتمثلياتي المعدة للإذاعة والتلفزيون. وأعجبني الخامس من نيسان غرة الربيع، وأعجبني ذلك التداعي الرقمي فيه ٥/ ٤/ ١٩٤٥، ولكن لم يكن من الممكن اعتماده لان الاسم يختلف، فذهبت مع أبي إلى طبيب الصحة. وكان آنذاك مخولاً بإعطاء تقدير سن مختوم ومعتمد من وزارة الصحة، قدمت طلباً وعبرت إليه، كان اسمه الدكتور "ونيس" على ما أذكر، نظر نحوي وابتسم وقال: شاربك خاطّ ما شاء الله، ١٨ اكويس؟

أجبت بالإيجاب فاصدر لي شهادة تقدير سن خاليه من اليوم والشهر وموثقة ١٩٤٠م.

إذن فقد صرف النظر عن دراسة الطب بالشام، رغم أنني كنت متفوقاً بالموضوعات العلمية: الفيزياء، الكيمياء، الرياضيات، وكذلك باللغة العربية والاجتماعيات، وأصبح من غير الممكن أن أظل قاعداً مترقباً لموت طال أنتظاره. كان يجب على أن أسعى. قدمت طلباً لديوان الموظفين، وطلبا لشركات ومؤسسات أخرى، كما قدمت طلباً للعمل في مشروع قناة الغور الشرقية الذي كان في بداياته آنذاك وكان المشروع تحت أشراف مهندس اسمه "سويلم حداد" أظنه لا يزال على قيد الحياة حتى كتابة هذه السطور، وكنا نسمع باسم سامي جودة يتردد مقترناً بمشروع القناة، وكان بمرتبة أعلى من سويلم حداد. وسوف أورد هنا وصفا لصورة من صور الخروج للبحث عن عمل، منذ الصباح وحتى المساء. كان والدي يعرف انه سوف يخسر ديناراً كاملاً كلما ذهبت لتقديم طلب، اهبط في الصباح الباكر من القرية إلى الطريق الرئيسي في الاغور، أترقب الباص القادم من اربد إلى نابلس، اصعد إلى الباص واهبط عند المثلث المصري. وهناك أترقب الباص القادم من نابلس إلى عمان، فاركب إلى عمان، وهناك اذهب وأقدم طلبات جديدة، وانظر ماذا تم في أمر الطلبات القديمة، ثم أعود إلى مواقف الباصات الذاهبة إلى نابلس. كانت تقف عند جسر الحمام في شارع متفرع عن شارع طلال. هناك مطعم أظنه لا يزال حتى اليوم اسمه مطعم القاهرة، كنت أعبر إليه لتناول وجبة أحبها كثيراً هي الكفته بالطحينة، ببضعة قروش، ثم أنتقل إلى الباص الذي يحملني إلى المثلث المصري، ثم إلى مفرق "سليخات" بالغور، ثم أصعد مشياً على الإقدام حتى أصل القرية. فيسألني أبي عما حدث فأقول له: قدمت طلبات ولا جديد. وذات يوم وجدت عندنا أبو سليم الأول، وهو ميال إلى المزاح وقذف الكلمات الخفيفة الظل فقال:

- وبعدين عموه؟، أنت ما فيه عندك غير، شفنا الطلب وقدمنا الطلب؟!

وذات مرة كنت ازور أبن عمي الذي كان قد سجل بالجيش وسكن في حجرة ينادي السباق بماركا. كنت أنام عنده حينما يتأخر المساء. وذات مرة أخبرني بأن محمود "القط" قد خرج من الجيش وفتح بقاله على سفح الجبل المجاور. ذهبت إليه وباركت له وبالدكان، وكان من جملة زبائنه "ختيار" أعرج يشبه كبار السن في قريتنا لقبه "أبو عوده". رآني فقال بعد أن عرف أنني أبحث عن وظيفة:

- شو رأيك بوظيفة يصل راتبك فيها لثلاثين ليرة؟

فرحت، وتخيلت الرقم الأسطوري، فوافقت على الفور بعد أن وعدته بالحلوان فقال:

- تعال بكره عالمطار وقدم طلبا للأرصاد الجوية.

وفي الصباح كنت في مبنى متواضع على أطراف مباني المطار مكتوب عليه "قسم الأرصاد الجوية"، يتبع الطيران المدني. قدمت طلباً لرئيس الديوان مدعوماً من "أبو عوده" الذي كان يعمل مراسلاً في القسم. رئيس الديوان أسمه محمد ولا أعرف الاسم الأخر، وعدت من هناك أدراجي إلى القرية بعد أن طلب مني الانتظار، وأنهم سوف يتصلون بي إذا ما احتاجوا إلي.

في تلك الفترة لا بد وأن أذكر حادثة تتعلق بعبد الله العكوبة. كنت قد أهديت عبد الله صورة من شهادة الدراسة الثانوية ألمترك، وكانت قد جرت العادة آنذاك إهداء الصور بين الأصدقاء كذكرى. ألا أن عبد الله قد حرف الصورة وقدمها وليتوظف بموجبها ولكنه تراجع بعد تهديد مني لأني سأكشف امره. ولعبد الله هذا كثير من المواقف الطريفة ولكنها خطيرة. هو لا يخاف من أي عاقبة ويسعى دائماً لأن تكون في جيبه نقود. كان لا يتورع أبداً عن شراء جهاز راديو بعشرين ديناراً بالتقسيط، ويوقع على وكمبيالات، ثم يبيعه نقداً بخمسة دنانير ينفقها في ساعة واحدة. واذكر له موقفين من قبيل التندر: كنا نجلس معاً على مقهى السنترال بعمان، شكالي بأنه يبحث عن وظيفة ولكنه لم يجد قلت له بأن يذهب إلى "سليم" والد زميلنا محمد، فهو على علاقة وصلة حميمة مع نائب عجلون آنذاك المحامي سلمان القضاة. وكان سلمان هذا يفتتح مكتباً له في عمان بشارع السلط، طلبت منه أن يحضر كتاباً من سليم هذا طالبا منه مساعدته للعثور على عمل. فكر قليلاً ثم قال:

- ولماذا اذهب إلى سليم؟. أنا سليم.

وفجأة هبط إلى الشارع فاشترى ورقة وقلماً ومغلفاً وكتب عليه رسالة أذكر بدايتها: عزيزنا سلمان، وأصلكم أبن أخينا عبد الله، الخ، التوقيع سليم المحمد، طوى الرسالة ووضعها في مغلف ومضى بها إلى مكتب سلمان، وما هي غير أيام حتى كان قد أوجد له عملاً سرعان ما تركه كالعادة.

أما الموقف الثاني فكنت بصحبته حينما عبرت إلى محل لبيع الأقمشة في عمان لشراء ثلاثة ياردات من الصوف لتفصيل بذلة لي. قصّ لي التاجر ثلاثة أمتار وأعطيته ثمنها واذكر انه ستة دنانير، وفجأة قال له عبد الله: "قصّ كمان ثلاثة"، عجبت لما رأيت، فلم يكن عازما على الشراء،

ولم أكن أعرف انه يملك الثمن. وفجاه أخرج من جيبه ستة دنانير أعطاها للتاجر، ويبدو أنـه كـان متعباً من تلك الدنانير الستة ويريد إنفاقها بأية وسيلة. وصعدنا شارع الخيام حيث تقوم أعداد مـن دكاكين الخياطة. عبرنا إلى خياط اسـمه عابـدين أظنـه لا زال موجـوداً حتـى الآن. أخـذ الخيـاط مقاس كل منا ثم حدد لنا موعداً "البروفة" الأولى. كانت خياطـة البذلـة تتطلـب ثـلاث إلى أربـع بروفات، وأجرتها بحدود عـشرة دنـانير أي أكثـر مـن ثمـن القـماش. وحيـنما أنتهـت البروفـات الثلاث، تسلمت بذلتي ودفعت أجرتها عشرة دنانير واستأذنت بالانصراف فقال الخياط:

- هذه أجرة بذلتك، أريد أجرة بذلة أخيك.

تساءلت بدهشة:

- من أخي؟

- الذي جاء معك أول مره، أخذ بدلته وقال حينما يأتي أخي يدفع لك.

لم استغرب كثيراً، انه عبد الله.

وأعود إلى محاولات البحث عن وظيفة، فأذكر محاولتين بارزتين. أولاهما حيـنما غـادرت مـن "كريمة" أنا وصديق أبي أبو فواز الملقب بالأشقر وهو من عشيرة "الوحشات" إلى دير أبو سـعيد، وكان حاكمها الإداري شقيق المرحوم احسان محمـود الراشـد الخزاعـي الـذي سـبق ذكـره. هـو صديق لأبي فواز. ركبنا الباص من كريمه إلى مثلث دير أبي سعيد، ومن هنـاك صـعدنا مـشياً عـلى الإقدام عبر التلال والوديـان حتـى وصـلنا. وفي الطريـق تـذكرت صـديق أبي الأخـر أبـا سـليم والمسافة التي قطعها معي إلى "فارة" بحثاً عن الحاج "أبو صيني"، فانظروا كيـف كانـت الـصداقة ايام زمان. وصلنا إلى مكتب محمود الراشد فرحب بنا، طبعاً الترحيـب بـأبي فـواز وانـا في معيتـه. حدثه عني بأنني أبن صديقه، وإنني قد حصلت على ألمترك وابحـث عـن وظيفـة. وعـد خـيراً ولم يسمح لنا بالمغادرة حتى الغداء. حيث تغدينا في داره وعدنا مشياً هبوطاً هـذه المـرة إلى المثلـث ثـم كريمة. ثم لا أدري ماذا فعل محمود الراشد وفشلت المحاولة إلى أن جاءت المحاولـة الثانيـة. هـذه المرة شددنا أنا وأبي الرحال إلى عمان، إلى جماعة من اقارب امي من الفطيمات الذين كانوا قـد تركـوا القرية قبل ولادتي وسكنوا في منطقة المصدار بعمان، وفتح الله عليهم. وكان أهل القريـة يتحـدثون عن نفوذهم من خلال معارفهم الكثيرون هناك، لا أذكر الطريق التي سلكناها إلى عـمان، ولكننـي

وجدت نفسي مع أبي في بيت أخوالي بمنطقة المصدار، حيث رحب بنا حسن الوهداني وابنه الأكبر مصطفى. وأكرمونا ولم يسمحوا لنا بالمغادرة حتى اليوم الثاني، حيث عدنا وقد حصلنا على وعد منهم في بذل جهودهم للتوظيف. ولكن هذه المحاولة قد فشلت أيضا.

مرت الأيام دون أن تلوح في الأفق فرصة عمل لي، فطلب مني أبي أن اذهب إلى عمان وأراجع الدوائر التي قدمت فيها طلبات للعمل، كانت أولى الدوائر التي راجعتها: مشروع قناة الغور الشرقية، وقد فوجئت بأن الموافقة قد تمت على تعييني عاملا فنيا في مشروعها، والعامل الفني كلمة تطلق على العامل الذي يحمل شهادة، ولا يعمل بالفأس إنما تكون مهمته تسجيل العمال وتسليم أدوات العمل ثم استلامها منهم، أو حراسة خيمة أو تنفيذ أمر مهندس وهكذا. أعطوني كتاباً موقعاً من سويلم حداد إلى مهندس أحدى الورش في الأغوار مفاده أنه قد تقرر تعييني عاملاً فنياً في المشروع بأجرة يومية مقدارها ٤٠٠ فلس، شعرت بالفرح، لا لأنني قد بدأت العمل للتأمين مستقبلي بل لأنني قد حققت لأبي شيئا، وأن مشواري ذاك إلى عمان قد أثمر عن شيء ما. عدت إلى القرية. لم يكن أخي راضياً، كان يفترض بأنني سأغدو موظفاً لا عاملاً، فكيف سيعمل أخوه الحاصل على شهادة مع عمال هو يعرفهم؟ سوف يتندرون ويتحدثون، أن لم يكن بالعلن فبالسر. ولكنني عزمت على أن أذهب للعمل. حيث أعدت لي أمي فرشة وبطانية ولحاف، وبضع أدوات لازمه لوجودي هناك في الخيمة، كي تحمل كلها على حمار أو فرس وأهبط بها الغور صباح اليوم التالي.

خرجت إلى شوارع القرية وكأنني أودعها، تمشيت في أزقتها وتحدثت إلى بعض الأصدقاء، وفجاه رآني حارس القرية فأقبل نحوي وكأنه يبحث عني منذ الصباح. اخرج من جيب سترته مغلفاً كاكي اللون فقدمه لي وهو يقول: "هذا لك، جئت به من عجلون" فتحت المغلف وإذا به كتاب من قسم الأرصاد الجوية بمطار عمان يدعوني إلى المقابلة غداً من أجل التوظيف في الأرصاد. حينها انقلبت كل مخططاتي للعمل في مشروع القناة رأساً على عقب، وبدل أن أهبط إلى الغور ومعي دابة تحمل امتعتي، اسرعت إلى عمان. كنت أعرف آلية الوصول إلى المطار لأنني كنت قد قدمت طلب العمل قبل ذلك، باصات المحطة وماركا كانت تقف أمام مطعم السلام ألان. الأجرة إلى المحطة خمسة فلسات وإلى ماركا عشرة. دفعت القرش واحتللت مقعدي في الباص، وما أن وصلت إلى مبنى القسم الكائن في الزاوية الجنوبية الشرقية من مباني المطار، حتى وجدت

العشرات قد قدموا إلى المقابلة، أصابتني خيبة أمل. فقد كنت أظن أن هذا الكتاب يعني قرار العمل. كانت الساحة وردهة القسم تغص بالقادمين إلى المقابلة، لا يقل عددهم عن الخمسين كما قدرت آنذاك. وعرفت من أحدهم أنهم يريدون سبعة من هؤلاء الخمسين: "ياهملالي"، هكذا همست لنفسي، وشعرت باليأس، فهل أعود من حيث أتيت أم أنتظر؟ وقررت الانتظار. وجاء دوري للمقابلة. عبرت إلى مكتب رئيس القسم آنذاك محمد أبو غريبة. وجدته يجلس وإلى جواره مسؤول المناخ منير أبو خضر –هكذا عرفته بعد ذلك- وخبير الماني اسمه "مستر هوفمان". سألوني فيما إذا كنت أتقن اللغة الانجليزية فأجبت بالنفي. تحدث معي الخبير بكلمات بسيطة فهمتها ورددت عليه بلغة انجليزية، ركيكة، كان طلبي المرفق به صورة عن شهادة الدراسة الثانوية أمامهم، ينظرون إليه ويتحدثون إلي بكلمات عامة. ثم طلبوا مني الانصراف والانتظار في الخارج للاستماع إلى نتيجة المقابلة. واستمرت المقابلات حتى الساحة الواحدة بعد الظهر، وفجأة خرج علينا أبو غريبة ليقرأ أسماء من ثم اختيارهم وكم كانت دهشتي كبيرة حينما استمعت إلى اسمي من بين المقبولين رغم هشاشة موقفي أثناء المقابلة، عرفت فيما بعد أن تفوق الفيزياء في الشهادة ألمترك هو سر ذلك القبول.

طلب من الآخرين الانصراف وبقي المقبولون. قالوا لنا بأننا سندخل في دورة تدريبه تمتد لستة أشهر اعتبارا من الأول من حزيران، وحتى نهاية تشرين الثاني. كنا في نهاية أيار من ١٩٦١ طلب منا العودة إلى بيوتنا، والحضور في الموعد المحدد لبداية الدورة في الأول من حزيران. قالوا لنا بأن تدريبنا سيكون على حساب سلاح الجو، ونعطى إثناء الدورة أجرة يوميه مقدارها خمسة وخمسون قرشاً، أي ستة عشر ديناراً ونصف شهرياً، وهو أفضل من راتب مشروع القناة شكلاً ومضموناً. عدت فرحاً، لا لنفسي بل لأنني سأحقق لأبي شيئاً ملموساً. في عمان، وعملاً يتناسب مع شهادتي. حينما بدأت الدورة احترت كيف سأتدبر أمر السكن. طلبت من ابن عمي أن أسكن معه في الحجرة التي يستأجرها في ميدان السباق. كان يسكن فيها مع ثلاثة آخرين ومن غير المعقول أن تستوعب الحجرة شخصاً خامساً. نمت بضعة أيام ثم وجدت أن هذا غير ممكن، فتم العثور على حجرة قريبة منها عند أسرة فقيرا جداً، تتكون من سيدة مريضة وابنتها العانس التي تخلو من أية مسحة من الجمال. كنت ازور المرأة المسجاة على فراشها فأرى في عينيها توسلاً

واستغاثة لرعاية ابنتها بعد موتها، كانت مريضة بسرطان المعدة، وكنت أسمع تأوهاتها وتوجعاتها طوال الليل. وكانت الابنه طويلة نحيلة تخلو من كل مظاهر الأنوثة، وكنت أراها تحاول التقرب مني بأدب يفضي إلى رغبة في الزواج، ولكنها لم تنجح لا هي ولا أمها بذلك.

كنت أهبط شارع ميدان السباق صباح كل يوم لأصل إلى شارع المحطة الرئيسي، ومن هناك اركب بتعريفه إلى المطار، وكنت أحياناً أكملها مشياً على الإقدام. وبدأنا مناهج الدورة. كان المراسل في القسم رجل في الأربعينيات قصير نحيل يدعى "أبو يوسف" لبق، خفيف الحركة، محبوب من الجميع، اقترب مني ذات يوم وسألني فيما إذا كنت ابحث عن سكن، وحينما أجبته بالإيجاب قال انه لديه غرفة في داره، وان محمد رئيس الديوان يسكن عنده في غرفة اخرى، وأن الدار قريبة، الذهاب والاياب منها واليها يتم بدون مواصلات. ودعاني لرؤيتها أن كنت أرغب في ذلك. وبعد أنتهاء الدوام مضيت معه إلى بيته. البيت يقع في سفح جبل يطل على منطقة عين غزال التي تقوم بها الآن المؤسسة الاستهلاكية والمسلخ. شاهدت ولديه يوسف وآمنة ثم تعرفت إلى زوجته التي كان يناديها بأم يوسف، ألا أنني أدركت أنها ليس أما ليوسف ولا لآمنة. فهما سمراوان بينما أم يوسف ناصعة البياض ثم عرفت أنها زوجته الثانية وأن الأولى هي غورانية مطلقة أو متوفيه ألا أن الولدين يتعاملان مع امرأة أبيهما كأم أصيله. شاهدت الحجرة وسرعان ما اتفقنا على الأجرة ونقلت أمتعتي إليها وودعت المرأة المريضة متمنياً لها الشفاء. ولا أعرف ماذا جرى لها أو لابنتها بعد ذلك. إذن بدأت أذهب إلي عملي من حجرتي الجديدة في بيت أبي يوسف، ولم أكن التقي بزميلي المستأجر الأخر رئيس الديوان. وربما لأنه كان يراني صبيا متدرباً، بينما هو موظف مثبت وله كيانه وموقعه.

وفي أواخر حزيران جاءت لحظة قطاف الثمرة الأولى حينما دعينا إلى محاسب سلاح الجو لقبض الراتب الأول. خرجنا من المدخل الرئيسي للمطار وسرنا مسافة في الشارع المؤدي إلى المحطة ثم انحرفنا شمالاً إلى داخل معسكر سلاح الجو، فعبرنا إلى حجرة واسعة يجلس في الصدر منها ضابط إلى جواره صندوق كبير وإمامه دفتر مفتوح، يدعونا واحداً واحدا حيث نوقع ونتسلم الراتب. ولما كان شهر حزيران هو ثلاثون يوماً فقد كان راتبي هو ٣٠×٥٥= ١٦.٥ ديناراً، قبضت عليها بشدة، وراح خيالي يوزعها حسب الأولويات: اجرة الغرفة. مصروف الشهر القادم دفعة لوالدي سداد لبعض دينه. فكرت في دفع جزء لمؤسسة الاقراض الزراعي التي كان والدي

مدينا لها بمبلغ يتجاوز الاربعين ديناراً ولكنني أجلته إلى الشهر الاخر وهكذا كان. سارت الامور بما اشتهت سفني، فقد وعدنا أننا سنوزع على محطات الرصد الجوي في المملكة بعد التخرج، وأن راتبنا سوف يتحول إلى الراتب الشهري المصنف أو المقطوع، وأن الأمور سوف تسير على ما يرام ولكنها لم تكن كذلك.

ذات يوم من الأيام الأخيرة من شهر آب ١٩٦١، وكنا قد انهينا الشهر الثالث من الدوره، جاءنا الخبر الصاعق. بالنسبة لي لم يكن صاعقاً، فقد كنت أعيش يومي، وانتظر موتي، ولا أخطط لمستقبلي، في ذلك اليوم صباحاً، وقبل بداية الحصة الأولى عبر ألينا محمد أبو غريبة وقال والأسى على وجهه:

- يؤسفني يا أبنائي أن أبلغكم خبراً غير سار بالنسبة لكم.

سمعت همهمات ثم ساد السكون والترقب والاستماع للرئيس.

- سوف ننهي دورتكم هذه بشكل مفاجئ، في نهاية آب أي بعد أيام.

همهمات وحركات، وسحائب من الأسى عمت الوجوه ثم ساد الترقب والاستماع.

- سوف تتسلمون راتبكم يوم ٣١/ ٨، ثم تعودون لأداء الامتحان النهائي للدوره.

تساءل احدنا عن سبب هذا الإنهاء المفاجئ للدورة فقال:

- لم تعد هناك موازنة في سلاح الجو. نحن آسفون، ولكن لدينا وظيفة واحدة مصنفه، سأجعلها لمن يحصل منكم على الدرجة الأولى في الامتحان.

- والآخرون يا أستاذ؟

هكذا تساءل احدنا فقال أبو غريبة:

- سوف ندعوهم تباعا كلما تحقق لدينا شاغر.

ويوم الامتحان بدأ السباق المحموم باتجاه الحصول على الدرجة الأولى وبالتالي الحصول على الوظيفة المصنفه، جلس كل منا على مقعده. ثم عبر ألينا المستر هوفمان ومعه اوراق الامتحان فوزعها على كل واحد منا وإعطانا ثلاث ساعات للإجابة. كانت الأسئلة لا تتطلب الشرح الطويل بل تعتمد على الإجابة بنعم أو لا. هذه الاجابة المتركزة على الفهم لما كان يشرحه الخبير والمدرسين أثناء الدورة. قرأت الأسئلة، وبدأت الاجابة، وخلال عشر دقائق كنت قد أكملت

الاجابة وخرجت إلى السيد هوفمان الذي دهش لسرعة تسليمي للورقة. ولم يكن هو وحده من أصابته الدهشة، بل كل الزملاء الذين رثوا لحالي، ولعلهم قالوا في أعماقهم، "لقد صرفه اليأس عن أية إجابة". سلمت الورقة وأشرت بيدي إلى الزملاء الذين كان العرق يتصبب من على وجوههم وقلت:

- بخاطركو شباب.

وخرجت وقد تنفست الصعداء، فقد حققت بعض ما أريد، فقد سدّدت جزء كبيراً من دين أبي للإقراض الزراعي. وبقي معي راتب شهراً ٨ وهو ٣١×٥٥= ١٧.٠٥ أي سبعة عشر ديناراً وشلن.

وكان علي أن استثمر هذا المبلغ في محاولة لدفع مرضي الذي يأبى أن يفارقني، ذهبت إلى طبيب أخصائي في الأنف والإذن والحنجرة اسمه: حسام وفا الدجاني، قال لي ما قاله الأطباء الآخرون، وأبديت رغبة ملحّة في التخلص من اللوزتين، فاستجاب بناء على طلبي، وحدد لي موعداً في مستشفى ملحس. واخبرني أن أجرة المستشفى وأجرته تكلف عشرة دنانير، فوافقت دون تردد. وفي اليوم المحدد كنت أنا وأخي الأكبر في المستشفى، وجاء الطبيب، وبدأ بقصّ اللوزتين بعد "بنج محلي"، كنت أسمع صوت المقصّ وهو يطيح بجذورهما من الأعماق. وحينما أنتهى وذهبت إلى غرفتي وتلاشى مفعول المخدر، بدأت آلام شديدة لا تطاق جعلتني اندم على ما فعلت. وخرجت لا أدري في اليوم نفسه أم في اليوم التالي، وبدأت أتعامل مع الآخرين بما أكتبه على ورقة. واذكر وإنا في السوق كنت أريد أن أقول لأخي شيئاً، فكيف أقول؟ كان يجب أن أكتب ما أريد أن أقوله له على ورقة واريها لأحد التجار في السوق، كان التاجر لا يدرك ما يعني هذا الذي يراه من كتاب وإشارات وقال احدهم: ماله؟! هل هو أخرس؟!

وعدنا إلى القرية، وجلست أترقب ما تأتي به الأيام، بينما كان الأمل بالعودة إلى الأرصاد قد تلاشى إلى حد كبير.

- ٨ -

كان من بين المدرسين في الدوره شاب وسيم متميز في الشرح، وقادر على الوصول بـالمعنى إلى الطالب دون عناء اسمه علي عبنده. أحسست أن هذا المـدرس يهـتم بي اهتماما خاصـاً نابعـاً مـن سرعة تجاوبي وفهمي أثناء اشرحه للدرسّ، لاحظت أنه قريـب منـي وأنـه يهـتم بـأمري. وكنـت اذهب لزيارته خلال فترة تراقب نتائج الامتحان في الدوره فيعدني خـيراً. وذات يـوم مـن أواخـر شهر تشرين الثاني من العام ذاته ومع الحارس ذاته كتاب يحمل قرار تعيني بـأدنى مربـوط الدرجـة العاشرة في مديرية الطيران المدني وعلي الحضور إلى قسم الأرصـاد الجويـة لتـسلم عمـلي. وحينـما ذهبت إلى هناك استقبلني رئيس القسم محمد ابو غريبـة، وقـدم لي التهنئـة بحـصولي عـلى الدرجـة الأولى بالدورة، وعلى الوظيفة المصنفة وقال لي بلهجته الخليلية المميزة لإظهار عدالته:

- أبتعرف؟ بينك وبين حلمي نص علامة بس.

وكان حلمي هذا هو أبن أخيه، وقد تم تعينه فيما بعد، طلب مني أن أتدرب عمليـاً في مكتـب المطار، مكثت شهرين عدت خلالهما إلى السكن في غرفة بمنـزل أبي يوسـف، وأحـضرت لـه مـن القرية كمية من الزيتون والزيت، فأبى أن يأخذ مني أجرة. وظللنا أصدقاء. حتى أننـي قـد دعوتـه هو وزجته إلى حفل خطوبتي فيما بعد، كانت أم يوسف تداعبني وتقول: "لو لم تكن أبنتـي سـمراء لزوجتك إياها، " وبعـد شـهرين صـدر قـرار نقـلي إلى محطـة الأرصـاد الجويـة في لا جفـور H.٤ الرويشد حالياً. كنت في عـمان قـد تـدربت عمليـاً عـلى أعـداد النـشرة الجويـة برموزهـا العلميـة ودلالاتها، وكيفية تسجيلها وإرسالها متضمنة درجـات الحـرارة العظمـى والـصغرى والـسطحية ودرجة الندى وضغط البخـار وسرعـة الريـاح واتجاهـهـا ومـدى الرؤيـة مقـدرة بـالكيلومترات والغيوم بإشكالها وتراكماتها، وعدد ساعات سطوع الـشمس. كنـت قـد أصـبحت راصـداً جويـاً محترفاً نظرياً وعملياً. وآن لي أن أسد فراغاً في إحدى المحطات الثانية. وكانت محطة الاجفـور التـي تحمل رقماً دولياً من منظمه الأرصاد الجوية العالميـة هـو ٢٥٠. وضـعت أمتعتـي: فرشـة ولحـاف

وبطانية وبابور كاز وبعض الملابس في سيارة إل بك أب الوحيدة في الأرصاد الجوية، والتي يقودها أبو شوقي. وسأتحدث مطولاً عن أبي شوقي هذا. نظراً لأثره وتأثيره في الأرصاد الجوية منذ تأسيسها. فهو رجل عجوز منذ عرفته، وعجوز بعد ذلك لأكثر من ثلاثين عاماً، من دار الحسيني من القدس. لا أعرف اسمه حتى ألان، فقد غلب لقبه "أبو شوقي" على اسمه، كان سائق الأرصاد. ونجارها، وحدادها، ومن أشد المخلصين لمسيرتها. يعمل بيده ولا يكل. يحفر الأرض، يركب الأجهزة ويقص المواسير، ينشر الخشب حسب ما هو مطلوب. ينقل الموظفين من محطة إلى أخرى، يوصل رئيس القسم ثم المدير بعد ذلك إلى بيته ومن بيته إلى عمله. هو رفيق المسافرين إلى المحطات الخارجية، ونكهة العاملين في المركز. يحترف لعب الطاولة وورق اللعب. الطاولة معه حيثما يسافر، ويتحدى من يلاعبه. فإذا غلب فإنه يغضب غضباً حقيقياً لا تسقط السيجارة من فمه حتى وهو يعمل. ومن نوادره أنه رافقني ذات يوم إلى محطة أرصاد غور الصافي مع عدد من الزملاء لتفقد المحطة. وفي الليل كنا ننام في مبنى المحطة ونلعب الورق. واجتمعنا أربعة على لعبة "بناكل"، كنت أنا وأبو شوقي شركاء مقابل شريكين آخرين، وغلبنا يومها، وذهبنا إلى النوم، فرأيته يتقلب في فراشه ثم يجلس ويدخن بشراهة، ثم يعود إلى محاولة النوم فقلت له: "مابك يا أبا شوقي؟، فقال: الله يسامحك لو لم ترم القص البستوني لما غُلبنا.

ومن نوادره كذلك حينما أصبح سائقاً مع الدكتور علي عبنده مدير عام الارصاد الجوية كما رواها المرحوم عبنده أنه لاحظ أن مرآة السيارة التي يقودها أبو شوقي مكسورة، فقال له وهو يركب إلى جواره: "يا أبا شوقي، لو غيرت هذه المرآة، فتأفف أبو شوقي وقال: "أنا عارف أبو غيس، "أبوغيث لقب عبنده" هادي بدها لسا موافقة المدير، وشغلة طويلة يعني"، فضحك عبنده وقال: يا أبا شوقي هل نسيت أنني أنا المدير؟، أن دل هذا على شيء فإنما يدل على نمط تفكيره ببراءة وباتجاه واحد لا يعرف المراوغة ولا تبطين الكلام، شاهدته مرة في الدائرة وكنت رئيسا للديوان يحمل عدد من الأرغفة الساخنة كان المدير عبنده قد كلفه بشرائها. لم استطع مقاومة أغراء هذه الأرغفة لأنني كنت جائعا والدوام في آخره، فطلبت من أبي شوقي قطعة خبز فأبى وقال: "هادي للمدير، ما بقدر، هات موافقة المدير وبعطيك" أسرعت خلفه فغذ الخطى حتى عبرنا معاً إلى مكتب المدير، ورويت له ما حدث فضحكنا كثيراً وأثنى على أبي شوقي وقال له مازحاً: هيك بدّي إياك يا أبو الشوق.

المهم، فقد اجتثني أبو شوقي مع أمتعتي المتواضعة من عمان وراح يذرع بي مئات الكيلومترات شرقاً مروراً بالزرقاء والمفرق وأم الجمال والصفاوي H.٥، حتى وصلنا إلى نقطة حدودية جمركية عامره وسط الصحراء المترامية الإطراف. وانحرفت بنا السيارة إلى اليمين لتعبر بوابة يقف على بابها جندي من القوات المسلحة، وتفضي إلى مساحات هائلة من الأراضي المسورة بشيك حديدي متقن الإعداد، وتنتشر فيها الشوارع المعبدة والأشجار الوارفة الظلال، وتقوم فيها أعداد من البيوت المتجاورة المبنية من الحجر. إلى أن وقفت السيارة أمام أحد البيوت، وما أن هبطنا من السيارة حتى هرع لاستقبالنا شاب اسمر متوسط الطول، كئيب المنظر، يرتدي بذلة قديمة، وقميص ملون غير مكوي مع ربطة عنق، وقال: أنا خالد برهم الراصد الجوي المسؤول هنا.

عبرنا إلى البيت الذي هو مكتب المحطة ومكان إقامتنا، حيث تقوم المحطة بأجهزتها خلف ذلك البيت على مسافة قريبة. أعد زميلي خالد الشاي، فشربنا، وعاد أبو شوقي ادراجة إلى عمان. فقد كانت لديه مهام كثيرة هناك. وأصبحت أنا الراصد الجوي الثاني غير المسؤول في تلك المحطة، ثم اتفقنا على إلية للطعام والإجازات، وعرفني على عدد من موظفي الجمرك والصحة ومعلمي المدرسة الاثنين، وسرعان ما أصبحنا جميعاً أصدقاء. ومن الأمور التي كنا نتندر بها مع معلمي المدرسة أن المدير لم يكن مصنفاً وكان عنده معلم مصنف وكذلك نحن في الارصاد لم يكن خالد وهو المسؤول مصنفاً، بينما كنت أنا كذلك، وهناك تعرفت كذلك على أحد موظفي العيادة الصحية واسمه مطلق وزميله، وعلى شاب من الرمثا لديه متجر كبير اسمه رستم ياسين وتعرفنا على اللحام وهو سوري على ما اذكر ولقبه الزرعي، وعلى مقهى لرجل اسمه "البزم". وللتعبير عن روح ذلك الزمن، ومقارنتها بتطور الحياة والاتصالات بخاصة في وقتنا الحاضر سأورد هنا كيفية ارسال النشرة المكونة من بضعة ارقام إلى القاعدة الجوية في المفرق لتنقل بعد ذلك إلى عمان:

كنا نقوم على اخذ القراءات من حديقة الرصد الجوي الواقعة خلف المنزل والمسيجة بسياج من الأسلاك الشائكة، ثم نعود إلى المكتب لنكمل باقي الإجراءات في استخراج درجة الندى والرطوبة النسبية وضغط البخار، وإدخال هذه المعلومات إلى الشيفرة الرقمية التي تشكل النشرة، هذه الشيفرة التي تبدأ بالأرقام الثلاثة الدالة على رقم المحطة الدولية. إذ بمجرد أن تقول تو فايف زيرو، ٢٥٠ فأن هذا يعني أن محطة الاجفور هي التي تتكلم.و بعد ذلك تتوالى الأرقام الدله على

ما يتعلق بالجو. هي إذا مجموعة من الأرقام تقع في مجموعات كل مجموعة خمسة أرقام ما عدا المجموعة الأولى الدالة على رقم المحطة. هذه الأرقام إذ تصل إلى المكتب الرئيسي فأن المتنبي الجوي هناك يعرف الحالة الجوية كلها، الساعة التي قرئت فيها: الغيوم والرؤية والرياح التبخر والحرارة العظمى والصغرى الخ. كنا نذهب بهذه الأرقام إلى الهاتف الوحيد في داخل المنطقة المسورة، التي أنشأتها سابقاً شركة "التابلاين" لتكون مقراً وسكناً لموظفيها الذين يعملون على إدارة مشروع نقل النفط العراقي من كركرك بالعراق إلى حيفا في فلسطين على شاطئ البحر المتوسط عبر انبوب ضخم يبلغ طوله الاف الكيلو مترات. وكلمة H تعني حيفا، حيث يبدأ الخط من كركرك بـ H١ ثم H٢ ثم H٣ داخل الارض العراقية، وال H٤ وال H٥ داخل الاراضي الأردنية، وهكذا.

المهم نذهب بالنشرة وهذا سنة ١٩٦٢ إلى كشك الحراسة على باب المعسكر، ويبدأ الجندي الموجود هناك بالاتصال مع عدد من المواقع العسكرية حتى يصل إلى القاعدة الجوية بالمفرق. وحينما يصل إلى القاعدة يطلب مكتب الارصاد، وحينما يرد المكتب نأخذ الهاتف من الجندي ونبدأ بعد التحية، ٢٥٠، الخ، و في كثير من الأحيان كنا لا نوفق في الوصول إلى المفرق فتبقى النشرة دون ارسال. ولكنها توثق في سجلات خاصة بها للاستخدام عند الحاجة. كان هذا عملنا الرئيسي، اما حياتنا الاجتماعية فقد تشكلت بعد التعرف على عدد من الموظفين: المعلمان في المدرسة، موظفي العيادة الصحية، وعدد من اصحاب المحلات التجارية كنا نشتري اللحمة من الزرعي كما إسلفت. وكنا نخرج ونتمشى على الطريق المعبد الممتد حتى بغداد. ونجلس أحياناً في مقهى البزم، ونتفرج على المسافرين بين عمان وبغداد، أحياناً كنا نشاهد الحجاج الايرانيين وهم يعبرون في مجموعات عبرالحدود قادمين من طهرن فبغداد بطريقهم إلى الديارالحجازيه. حدثنا البزم صاحب المطعم عن سائق شاحنه عراقي يأكل الزجاج. كان يطلب صحن حمص أو فول فيأكل مافيه ثم يأكله، وكان يدفع ثمن المادتين معاً. سألناه أن كان قد رآه فعلاًوهو يأكل الصحن فأجاب: لقد رآه أكثرمن مرة وهو يأكله قطعة قطعة كما يأكل الشوكالاتة.

في السنة التاليه فوجئت بأن زميلي محمدعلي سلمان شقيق طه الشاعروصاحب الدرجه الأولى دائماً قد جاء إلى الاجفورموظفاً من قبل الارصاد الجويه. كان يبدووكأنه يتتبع خطواتي. ذهبت إلى القسم الداخلي في مدرسة النصربالزرقاء فتبعني، ذهبت إلى الارصاد الجويه فتبعني وحصل على

دوره وطلب أن يأتي بعدها إلى الاجفور. جاء متزوجاً وحصل على بيت سكن عائلات قريب من المحطه، ونقل خالد الراصد الجوي المسؤول. إلى محطه آخرى. وجاءني مع محمد كتاب أصبحت بموجبه الرصد الجوي المسؤول، وهكذا أصبحت أنا وزميلي وأبن قريتي محمد موظفان في محطة رصد واحدة، وجاران وصديقان من جديد. ومكثنا معاً عاماً ونصف تقريباً، زارني بعدها رئيس قسم الأرصاد الجويه محمد أبو غريبه وتحدث الي قائلاً عن تطور جديد في قسم الارصاد الجوية، وتوسيع لخدماتها المقدمه إلى المؤسسات الاخرى كالطيران والتنبؤ بالطقس لتصل إلى الزراعة، وتتعامل مع معطيات رصد جوي خاصه بتقديم الخدمات للمزارعيين، مثل كميات الامطار، مكافحه الصقيع ودرجات حرارة باطن الارض وما فيها من الري وأجراء تجارب زراعية ودراسة اثر التغيرات الجويه على نموها. وخلص بعد ذلك إلى القول أن اول هذه المحطات ستكون في دير علا بالغور الآوسط وان الذي سيعمل بها هو مهندس زراعي متميز اسمه "إنعام طهبوب" وقد افاض في مدحه إلى الحد الذي جعلني راغبا في مقابلته، إلى أن قال ما رايك أن تكون معه أنت وموظف اخر اسمه "بدوي الاسمر"، ولم أكن بالطبع قادراً على رفض تلك الرغبة التي يبدو انها كانت قراراً، ولكن محمد ابو غريبة هو مسؤول محنك ماهر يعرف كيف يتعامل مع موظفيه ويشعرهم انهم اصحاب القرار،فيأخذ افضل مالديهم من اداء.

وسوف اتحدث عن بعض مهاراته فيما بعد، المهم، لقد نقلت من الأجفور إلى محطة الرصد الجوي في دير علا في شهر آب سنة ١٩٦٤ م.

- ٩ -

في اليوم المحدد كنا هناك، أنا وبدوي الاسمر. لم نجد في ديرعلا اية ترتيبات لاستقبالنا، لا مكتب. ولاسكن ولا حتى حديقه رصد جوي. التقيت بدوي وسرعان ما احببته، كان ودوداً طيبا عملاق الجسم مدبب الرأس يتحدث اللهجه "المقدسيه " المدنيه. كان اول ما سمعته منه "يفضح حريشهم اللي خلقهم ايش هادا " ماذا سنفعل؟ واين سنداوم؟عدنا إلى مكتب مدير المحطه واظن انه من عائلة محمد بشناق. قال بأنه قد تحدث إلى مديرنا في امر كهذا، وان هناك قطعة ارض صغيره صنفت كحديقه للرصد الجوي وان هناك عجوزاً اسمه ابو شوقي ومعه اخرون يعملون لزرع كشك خشبي فيها، ولايعرف أكثر من ذلك. ولكنه رحب بنا، واستدعى مأمور المحطة وامره أن يخصص لنا حجره ننام فيها. وفي اليوم التالي احضرنا امتعتنا ووضعناها بالحجره، وبدأنا نتعاون مع ابي شوقي والاخرين في انشاء حديقة الرصد الجوي. وكان لابد لنا من مكتب نضع فيه اوراقنا فلم يكن متوفراً آنذاك سوى مستودع تتكدس فيه اكياس الحبوب والبذار والمبيدات الحشرية. وضع لنا فيه طاولة، وكانت الصورة العامة كما يلي: هكذا هي محطات الرصدالجوي، ملحقا دائما بمؤسسات اخرى تابعة في الغالب لوزارة الزراعة. وها أنا اجد نفسي مع زميلي بدوي الاسمر في محطه للابحاث الزراعيه في منطقة ديرعلا، ولم يكن انعام طهبوب قد حضر، ويبدو انه لن يحضر ليجلس مثلنا في مستودع، انه ينتظر حتى يعد له مكتب يليق بمهندس زراعي. وبيت سكن عائلي له فقد كان متزوجاً. اما المحطه فسأحاول أن اصفها كما رأيتها اول مرة:

الطريق الرئيسي في الاغوار الوسطى القادم من نابلس وعمان والسلط والمثلث المصري والمتجه إلى الاغوار الشماليه أنتهاءً بأربد، يتجه القادم بالسياره فيه من الجنوب يساراً عبر بوابنه حديديه عريضه يقف عليها حارس تعلوها لافته خضراء مكتوب عليها: وزارة الزراعه. دائرة الابحاث. محطة ديرعلا للابحاث الزراعية. يعبر من البوابه ليسير وسط صفين من الشجيرات الخضراء المزروعه للزينه والمقلمه بأشكال هندسيه جميله ليصل إلى عدد من المباني الطينيه ذات

القبب المخروطيه. هذه القبب تشكل سقف تلك المباني دون أن يكون بها قضيب حديد واحد. وكذلك الجدران فأنها عريضة مبنية من الطوب الطيني الخالص. ويقال انها قد بنيت لتكون باردة في الصيف دافئه في الشتاء. نصل إلى مباني الادارة، ونتوجة يميناً باتجاه" الميس " الذي تقوم مقابله حجرات للموظفين غير المتزوجين، وإلى اليمين عدد من البيوت السكنيه الوظيفيه للموظفين وبعض الأعمال الفنيين. أما خلف الميس وعلى امتداد غير قليل تقوم بيوت أكثر أناقه وحجرات للمهندسين ومدير المحطه. والى جهة الغرب تمتد مساحات من الاراضي خصصت للابحاث الزراعية، وكذلك مشاريع لتربية الابقار وأنتاج الحليب. وفي حجرة من مبنى مواجه لمبنى الادارة يقوم المستودع الذي خصص لي ولبدوي الاسمر الذي كان نظراً لأقدميته هو الراصد الجوي المسؤول في الفتره الانتقاليه التي تسبق قدوم المهندس أنعام طهبوب ليتولى ادارة المحطه ويشرف على أستخلاص المعلومات الجويه الخاصه بالزراعه. كانت المحطه بمساحتها الكبيره عبارة عن منتزه مغطى بالمسطحات العشبية والممرات المخططة هندسياً، كانت معظم جلساتنا على مسطح عشبي كبير أمام " الميس "نهرع إليه بعد وجبات الطعام، وكان بعضنا يجلس على كرسي امام " الميس " أو يلعب " كرة الطاوله " في أحدى قاعاته. ولعل العلامه الابرز في المحطه كلها حتى قبل المدير والمحطة والابحاث هو طباخ الميس أبو عارف، فمن هو أبو عارف هذا؟!

رجل قارب السبعين، قصير، سمين، أشقر اللون، حليق الذقن وشعر الرأس. هو طرفة متحركة تسير على قدمين. أذا جاء بصحن الطعام نضحك. وأن سكت نضحك، وأن تحدث نضحك. قريب إلى القلب، لا يراه احد ولو لمرة واحدة ألا أصبح صديقه. كان يضع الطعام أمامنا وعلى أحد الصحون قرن فلفل بطريقه مضحكه، وحينما يأتي بالشاي والسكر يقدم المعلقه ويقول: " حركوا لبعض "، وكان يقول: عرفت الكثير من الناس، لقد مر علي منهم أكثر مما مر على جسر داميا. وكان يقول أنا لا أشبع، أظل آكل حتى يتعب فمي. ومره قال لنا أنه أحتاج إلى إناء يضع فيه الحليب فلم يكن لديه ألا " طنجره " ملآى بالطبيخ، فماذا يفعل بالطبيخ؟ قال لقد أكلته كله واستخدمت الطنجرة. كان قريبا إلى القلب. نأكل عنده على الدفتر، وهو لا يقرأ و لا يكتب، وهو يطلب من المدين أن يسجل بنفسه ما عليه من دين حتى آخر الشهر. لا أذكر اسمه حتى الان. كنا نأكل ثلاث وجبات في اليوم، وكانت كل وجبه مناسبة لنجتمع خلالها ونتحدث في معظم الامور. كنت العب كرة الطاوله التي تعلمتها في القسم الداخلي بالزرقاء، والعب الورق

الذي تعلمته في القريه. كنت أنا وبدوي الاسمر في حجرة واحدة مع غيرالمتزوجين إلى أن جاء بدوي بزوجته فسكن مع المتزوجين وبقيت وحدي بالحجرة. كنت أخرج أحياناً و أتمشى في الممرات بين الشجيرات والمسطحات العشبيه، وأخرج أحياناً لأتمشى على ضفاف قناة الغورالشرقيه التي كانت كنهر هندسي عظيم، ولي الكثيرمن الصور في تلك المناطق. وتعرفت على أصدقاء جدد من موظفي محطه الابحاث ومهندسيها: هشام شرعب، باسم تفاحه، الياس جابر، أكرم الترك، يوسف بريطيم، محمد غانم، خليل قاعبور، علي مساعدة، وكذلك الاخوان: أبو عمر وأبو وجيه، وهما عاملان فنيان يسكنان في المحطة. وحينها جاء أنعام طهبوب، وسكن هو الاخر في المحطة حصلنا على مكتب خارج المستودع. وتم تعيين وجيه ابن ابي وجيه مراسلاً عندنا.

بدأنا العمل في المحطة، كانت هي المحطة الأولى من محطات الرصد الجوي للاغراض الزراعية. هي محطة ارصاد عادية يتم التركيز فيها أكثر على التبخر وقياس رطوبة التربة على طبقات مختلفة من خلال استخراج عينات ووزنها. يتم وضعها في فرن كهربائي ساعات ووزنها بعد ذلك لاستخراج حجم وزن الماء الذي يتبخر منها. كان هذا العمل شاقاً اسمه "العينات" ولعل المراسل وجيه قد عين ليقوم بهذا الجهد العضلي في استخراج تلك العينات. كنت في اوقات فراغي اذهب إلى "كريمة" القريبة علي مسافة بضع كيلو مترات، فأنام بدار أخي هناك، وتقوم امرأة أخي بغسل ملابسي لاعود في اليوم التالي إلى المحطة.

وفي أواخرالسنه التاليه سنة ١٩٦٥ أو اوئل سنة ١٩٦٦ بدأ عدد من الخبراء الاجانب يزورون المحطة. وعرفنا أن هناك تجربه ستشرف عليها شركه نمساويه سوف تبدأ في المحطه العمل لدراسة نجاح زراعة الشمندر السكرى أم لا. وبعد شهرين جاء خبير نمساوي اسمه مستر "شم "وبدأ العمل من خلال موازنه خصصت لهذا الغرض. وماهي الا أيام حتى أصبح مستر "شم " صديقاً لنا، يسكن في حجرات غيرالمتزوجين، ويأكل معنا عند ابي عارف، ويلعب كرة الطاوله. كان ماهراً باللعب ويغلبني دائماً بضربه اسمها "الكت". وكنا نحسب الاهداف، فتصل أحياناً إلى رقم ٥ و٥ فنقول كله خمسه، في حين يلفظها شم بلكنة أجنبية مضحكة " كله همسه". كنا نجلس أحياناً معه ونتحدث بالسياسه والاوضاع العربيه والعالميه، وكان بعضنا من المهوسين بجمال عبد الناصر، وصواريخه القاهر والظافر، ومعلقه أحمد سعيد الذي كان يطلب من السمك أن يجوع حتى يأكل إليهود. كنا عندما نقول له أن حرباً لو قامت سوف نقضي على أسرائيل بساعات،

وكان يبتسم ويهز رأسه ولا يعلق، وحينها نسأله عن صمته يقول: " لانه أنتو كلوا مدير"، من أين جاءت هذه العباره؟

كان مستر شم أو شم أفندي. كما كان أبوعارف يناديه. وبالمناسبه كان أبوعارف ينادي كل واحد منا بأسمه متبوعاً بلقب أفندي، إذن فقد كان شم أفندي أثناء عمله بالحقل يمر بقرب أحدى التجارب الزراعية التابعة للمحطة فيشاهد عاملاً يحفر الارض وحوله أربعة اوخمسة واقفين دون عمل فيسأل أحدهم فيقول: أنا مهندس التجربة. أنا مساعد المهندس، أنا مساعد الحقل، أنا مراقب التجربة، إذن فواحد يعمل والآخرون يقفون حوله فيبتسم ويقول "واهد عامل، الباقي كله مدير" ولقد أدركنا فيها بعد حكمة نظرته اللامور، أي أن شعباً كله مدراء، لا يمكن له أن يبني ويهزم الاعداء. وقد تحقق صدق ملاحظته بعد عام ونصف تقريباً حينها نشبت الحرب، ولم ينفع القاهرولا الظافر، وظل السمك جائعاً وهزم جمال عبد الناصر وأعترف بمسؤليته عن الهزيمه. وقد كنت أول وأشد المتحمسين لإعلامه. والمعجبيين بشخصيته وخطبه الناريه الملتهبه. وقد دفعت ثمن هذا كما سيأتي لاحقاً.

سنة١٩٦٥ كنت قد ارتحت مادياً. الراتب لابأس به، ديون والدي من الاقراض الزراعي سددتها بالكامل وفككت الرهن عن الارض وبنيت لوالدي في ساحه دارنا مضافه، واغراني عدد من اصدقائي منهم: عبدالله عكوبه ومحمد مهاوش ومنتسب لبيروت العربيه أكبر منا سناً هو عبد الكريم الرشيد بالسفر إلى بيروت اللاستجمام. أنطلقنا من أربد إلى دمشق حيث تناولنا هناك طعام الغذاء وركبنا إلى بيروت. دعوني أصف لكم طعام الغداء سنه١٩٦٥ في مطعم لا بئسا به بدمشق، طلب كل واحد منا صحن شقف، وهبطت إلى الطاوله صحون كثيره من الحمص والمتبل والخضروات والسلطات، وقد كلفت أنا بدفع الحساب. قدمت لصاحب المطعم ورقه بخمس ليرات سوريه، فأخذها واعاد الي الباقي لا أذكركم كان ذلك الباقي ولكنني أذكر أننا قد تغدينا نحن الاربعه غداء فاخر بها لا يقل عن خمس ليرات سوريه التي تعادل سبع قروش أردنيه ونصف هذه الايام، أي ثمن رغيف خبز ناشف واحد، ولو قدمتها "بقشيش" لاحد ما قبلها. وصلنا إلى بيروت، وأقمنا هناك عشرة ايام على ما اذكر، فسكنت في نزل متواضع مع أصدقائي، بعضنا غادر قبلي، ولكنني بقيت هناك، واقضي جل وقتي أتفرج على البحر واتمشى في الشارع. وقد زرنا مغارة جعيتا وأبحرنا لمسافه قصيره داخلها ثم عدنا والتقطنا بالقرب منها صوره تذكاريه

أنا وعبد الكريم الرشيد وكنت ألبس بلوزه قطنيه أشتريتها من بيروت بليرتين لبنانيتين أي ما يعـاد ربع دينار أردني. وقد زرت طبيباً هناك من أجل مرضي الوهمي ولكن دون فائدة.

في صيف السنه التاليه سنة ١٩٦٦ خطرلي أن أكرر رحلة السنه الماضيه، وقـد كـان لي صـديقان يدرسان هناك احدهما عبد الكريم العواد رفيقي في رحلة التسجيل بكفرنجه وفهمي الـسليم الاخ الاصغر لزميلي محمد. كان عبد الكـريم يراسـلني، أرسـل لي عنوانـه ودعـاني إلى الاتـصال بـه أذا قدمت إلى بيروت. اصطحبت عبدالله العكوبه، "ووينك يا بيروت؟" وهناك وجدت عبد الكـريم وفهمي، وسكنت معهما، بينما أنفق عبد الله كـل مـا معـه وعـاد مـن حيـث اتـى. وقـد أسـتبقياني الزميلان حتى ينتهيا من الامتحانات ونعود معاً، وهكذا كـان، فقـد حجزنـا بالـسيارة الذاهبـه إلى دمشق، وخرجنا من الحدود اللبنانية "المصنع" بسلام، وعندما وصلنا إلى الحـدود الـسوريه، حمـل السائق جوازات سفرنا وذهب كي يختمها من الضابط المختص. غاب قليلا ثـم عـاد وهـو يقـول أين فلان؟ وذكر اسمي. داهمني خوف شامل. لماذا أنا دون غيري؟، تزايـد خـوفي وهـو يقـول: " أنت شو عامل ولاه؟، بدهم أياك ". هبطت من السياره لا تكاد قدماي تحملانني، ومـضيت مـع السائق الذي عبر إلى حجرة أحد الضباط الذي نظـرا لي وقـال وهـو يقلـب جـواز سـفري، أنـت فلان؟، أجبت بالايجاب، فبدأ يسألني عدداً من الاسئلة فقال الـسائق، "سـيدي هـادا مطـول ولا أستناه؟ " قال الضابط هادا شغلته طويلة، هاتله أغراضه وتيسر أنت ".

وجاءني السائق بحقيبة سفرية فيها أغراضي، وبعض الاوراق التي خططتها وأنا على الـشاطى محملقاً في البحر. هناك في ذلك الجو الـشاعري الآسر ولـدت روايـة الـصديقان التـي لم تظهـر إلى الوجود الا بعد عشر سنوات. وأعود إلى حالتي البائسه في تلـك الـساعة، غريـب في ديـار بعيـدة. صديقاى سوف يمضيان إلى دمشق ومنها إلى أربد وعمان. ترى ماذا سيحدث معـي؟ مـن ضـابط إلى ضابط، من مكتب إلى مكتب إلى أن أسـتقر بي المقـام بنظـارة الجديـدة، وحـدي. لا أدري مـاذا فعلت؟ ماذا جنيت؟ ما هي تهمتي؟ لوكانت لدي تهمه ما قدمت إلى هنا. أذكرأنـه كانـت هنـاك في النظارة حنفيه تسيل الماء، يتسرب عبر قناة صغيرة إلى خارجهـا. كنـت أشرب باسـتمرار. أغـسل يديّ ووجهي باستمرار، ثم أغمض عيني أملا أن أكون في حلم سأصحُو. منه بعد قليل. ولكنني لم أصحُ، كنت أسرع إلى الباب فاطرقه بعنف حتى يطل حارس فأسأله ماذا أفعل أنا هنـا؟ فيقـول: ولك طول بالك، طلبنا سيارة هلا بيجو ياخـدوك للـشام " يـاحبيبى !! أذن فالمـسأله طويلـه. أذن

هناك سيارة تأتي من أجلي لنقلي إلى الشام "دمشق "، يـا فرحتـي ! !مـاذا سيفعل بي عنـدما أذهـب للشام؟، فالتهمه لابد أن تكون خطيرة. لأن أنزال راكـب مـن دولـه أجنبيـه "كلمـة أجنبيـه عـلى الحدود تطلق على كل مسافر من غيردولته ". وأقتيادة مع أشيائه إلى النظاره تمهيداً لنقلـه في سـياره تأتي من العاصمه خصيصاً لهذا الغرض.

عند الواحدة ظهراً تم أقتيادي إلى سيارة "بكم"، سلمني شرطي الحدود إلى الاخر الذي جـاء بالسيارة. نظر الي وقال: يبدو أنك محترم لـن أضـع القيـد في يـديك، أصـعد. صـعدت إلى خلفيـة "البكم" والشرطي إلى جانبي، وعبرت بنا السيارة مسارب عديدة في مدينة دمـشق. كنـت أشـاهد من خلال شقوق الشادر العمارات وأسمع بعض همهمـة بعـض المـارة، إلى أن عـبرت بي الـسيارة ساحة واسعة فيها عدد كبيرمن السيارات المماثلـة. وهنـاك توقفـت وهبطـت مـع حـارسي الـذي أقتادني إلى صالة واسعة غاصة بالجالسين. جلست بينهم بعد أن وقع الجنـدي الجـالس عـلى بابهـا أشعار أستلامي، وعاد الآخـر مـن حيـث اتـى بعـد أن أدى مهمتـه بنجـاح. جلسـت أسـمع مـا يدورحولي من كلام، عرفت من خلاله أن كل الجالسين هناك هم مطلوبون للتحقيـق، عرفـت أن من بينهم طلبه جامعيون قادمون من موسكو. أدركـت للتـو أن العلاقـات بـين سـوريا والاتحـاد السوفياتي كانت قد توترت، كما كانت قد توترت مع جمال عبد النـاصر إلى حـد بعيـد، فعرفـت أن تهمتي تتعلق بالسياسه. ومن الثالثه بعد الظهر حتى العاشرة لـيلاً ظللـت أنتظـر، حتـى جـاء مـن أقتادني إلى مبنى أخر. صعدت معه عدداً من الطوابق ثم دلف إلى حجـرة الجلـوس أمـرني مرافقـي أن أجلس فيها فجلست بينما عبر هـو إلى الـداخل، ثـم خـرج وأشـار إلى شرطـي أخـر يجلـس في الحجرة لم أكن قد تنبهت له عند دخولي. أشار له بما يفيد أنه قد تم تـسليمي إلـيهم. ومـا هـي غـير دقائق حتى أقتادني الشرطي أو الـضابط لا أعـرف إلى حجـرة أخـرى يجلـس في صـدارتها رجـل بملابس مدنية وراء مكتبه. كان ينظرالي والى ملف أمامه. سألني عن اسمي وبلدي، ولمـاذا ذهبـت إلى بيروت ثم قال: اسمع عمو لا تغلبني ولا أغلبك، تكلم عن كل شيئ وكن صـادقاً وإلا فـأنني سوف أغضب منك. كنت أعرف من خلال الأفلام ماذا يعني غضب المحقق، فتحدثت عـن كـل شيء بصدق. لم يكن عندي ما أخفيه. ولدت ودرست ومرضـت، ونجحـت وتوظفـت، وحيـنما سألني عن سبب زيارتي هذه إلى بيروت قلت له بأنني قدمت للعلاج، وبالفعل فقـد كـان أحـدهم

قد وصف لي في بيروت طبيباً يداوي آلام الحلق بالإعشاب، وذهبت إليه: ودفعت مبلغاً وإعطاني عدداً من الإعشاب بعضها أغليه، وبعضها "أسفّه". ولكن دون جدوى.

وأعود إلى الضابط الذي استمع لي حتى النهاية ثم ضرب الجرس فجاءه شرطي تحدث إليه قليلاً فاقتادني الشرطي عند الساعة الحادية عشره ليلاً إلى سيارة طافت بي دمشق كلها، ثم أدخلوني برفقة شرطي إلى بناية وبدأنا نهبط الدرج. وخُيل إلى أنني قد هبطت أربعة إلى خمسة طوابق تحت الأرض، ثم عبرت إلى حجرة مغلقة دفع الشرطي بي إليها ثم خرج وأغلق الباب خلفه. ثم تلفتّ حولي فرأيت عدداً من الشباب لم يعيروني التفاتاً، سمعت أحدهم يقول للآخر: أنا مستعد أنا اوقع على قتل مائة شخص ولا تنالني صفعة واحدة من كفه" كانوا يتحدثون عن شخص مجهول لا أدري هل كان الحديث مرتباً لتخويفي أم هو صحيح. لم امكث طويلاً، فقد تم إخراجي ونقلي إلى مكان آخر. عبرت سرداباً طويلاً ووصلت إلى حجرة يجلس فيها شرطي. تم تسليمي إليه بعد أن تحدث قليلاً مع الشرطي الذي جاء بي. كان الشرطي ودوداً، وكان قد عرف أنني لست من أصحاب السوابق، فاقتادي إلى حجرة لأقضي الليل فيها. كانت الحجرة مضاءة بضو خافت، هناك عدد من البطانيات ملقاه على الارض، وفي الجوانب تقوم قواطع اسمنتية على شكل اسرة. جلست على أحدها، ووضعت رأسي بين كفي، وجلست استعرض ما مر بي. أين كنت وأين أصبحت. كنت حين أفتح عيني أشاهد البق يتمشى على أطراف البطانيات الملقاه على الارض، فلم المس البطانية واحدة منها وانكمشت في الزواية أعد الثواني والدقائق.

وعند الثانية بعد منتصف الليل فتح الباب وقذف إلى الداخل شاب ممتلئ الجسم، طويل الشوارب، مفتول العضلات، ثم أغلق الباب. جلس الشاب قليلاً، ثم نظر إلى ونهض محاولاً اختيار أحدى البطانيات ليتغطى بها. كنت في حاجة لمن أتحدث إليه قلت له: لماذا جاءوا بك إلى هنا، ماذا فعلت؟ قال وهو ينفض البطانية: "لك ما اعملت شي، أنا رجال عزابي، جبت معي حرمه اتسلى معها، آل شو؟، دعاره جابوني هون، وعلى كل هاي مو أول مرة، أنا هلاً بنام بكره بيجو جماعتي بطلعوني، تصبح على خير، قال ذلك وتمدد على القاطع الاسمنتي واضعا البطانية التي اختارها فوقه، وقبل أن يغطي بها وجهه قال: "أنا مش خايف من القضية لانها "ناكته" سألته: مم تخاف أذن؟ قال أنا خائف على البيت من أن تسرقه تلك المرأة التي ما زالت هناك.

وعند الثالثة صباحاً فتح الباب وتم استدعاء الشاب الذي خرج ولم أعرف ماذا حدث له بعد ذلك. أما أنا فقد ظللت جالساً كما أنا أراقب أسراب البق وهي تتسلق الحائط ثم تعود إلى البطانيات الملقاة على الارض باهمال شديد. وما أن بلغت السابعة والنصف حتى جاء من يستدعيني إلى حجرة الحارس، وهناك فوجئت بوجود زميليّ عبد الكريم العواد وفهمي السليم، لم يغادرا دمشق حتى يطمئنا إلى وضعي. كانا قد ذهبا إلى كل مكان، وعرفا خبراً كان بالنسبة لي مفرحاً وهو أن مشكلتي ليست بالخطيرة وأن هناك امراً بتسفيري إلى الأردن وعدم السماح لي بدخول الاراضي السورية بعد ذلك. وأكد الحارس هذا الخبر، وقال أنه في أنتظار سيارة تنقلني إلى درعا ليتم من هناك أعطائي جواز سفري والقذف بي إلى خارج الحدود. فرحت. فلم أكن قد ذقت طعاماً منذ صباح الأمس. جاءني عبد الكريم وفهمي بوجبة من الكباب اكلت بشهية أنا والحارس، ثم خيرني الحارس في أن ابقى في حجرته أو أذهب إلى النظارة، ففضلت البقاء عنده. وأنا واثق بأنني لو عدت إلى النظارة ليلة أخرى لكانت نهايتي. ومنذ الثامنة صباحاً وحتى الواحدة بعد الظهر ونحن نترقب قدوم السيارة التي ستحملني إلى درعا، ولم يبق سوى نصف ساعة على أنتهاء الدوام، واخبرني الحارس بأنني سأعاد إلى النظارة لاقضي ليلة أخرى إذا لم يتسير قدوم سيارة، ذهلت، خيل إلي بأن نهايتي ستكون في تلك الليلة، وبعد ذلك بقليل جاء عبد الكريم وفهمي ليطمئنا على تسفيري ولما وجداني هناك كانا أقدر مني على التصرف، أختلى بي عبد الكريم جانباً. وقال: اعطني عشرين ليرة سوريه. أعطيته ما يعاد لها، ثم غاب قليلاً وجاء بكروز "كنت" من النوع الفاخر، قدمه إلى الحارس وهو يقول: هذا لك لكي تدبر بالك عليه. تناول الحارس الكروز وهو يقول: "لك ليش أتغلبوا حالكن؟! أي والله ما فيه داعي" قال له فهمي: مشان تتصرف، لازم اتدبر سيارة ويسافر اليوم قبل نهاية الدوام". رد على الفور "معلوم اليوم، لكان شو أخي؟، اليوم يعني اليوم ما فيه كلام". ثم أمسك بسماعة التلفون، وراح يتصل وقد سمعته يقول: "شو يا افندي، وين السيارة؟ مشان الأردني، لا أخي، موه بكره، أنا ما بقدر أحتفظ بيه عند هون لبكرة. اليوم لازم أسفره حسب التعليمات أخي، معلوم، بسرعة الله يرضى عليك".

وما أن وضع السماعة حتى كانت السيارة بعد دقائق جاهزة خارج المركز، حيث ودعت الزميلين وركبت إلى درعا. وهناك تحدث إلي أحد ضباط الحدود وهو يعطيني جواز سفري وهو يقول: اله معك.- أنت ممنوع من دخول الشام، من هون-

" قال ذلك وأشار على طريق يفضي إلى ساحة خارج مباني الحدود. هرعت إلى حيث اشار فرحاً، وكنت على استعداد أن ابقي فيها بين السماء الأرض أياما، أو أعود ماشياً إلى وطني، ولا ابقي في تلك الزنزانة الملعونة. ولم يطل وقوفي هناك، إذ سرعان ما مرت سيارة مرسيدس حمراء فاخرة يقودها سعودي. شيء ما قال لي: ارفع يدك بإشارة الوقوف، رفعت يدي، فتوقفت السيارة وحملتني إلى اربد، فذهبت إلى فندق الواحدة العربية لأنام فيه، فوجدت عبد الكريم وفهمي هناك بأنتظاري، وكانت صفحة مرعبة في حياتي سرعان ما طويت، ومنذ ذلك التاريخ لم أذهب إلى سورية ألا بعد ذلك بثالثة عشر عاماً، حينما ذهبت إلى هناك ١٩٧٩ لتمثيل الأردن في اجتماع المركز الوطني لدراسات المناطق الجافة في دمشق مندوباً عن دائرة الارصاد الجوية. وقد تم استقبالي في محطة دمشق استقبالا رسمياً. حيث اقلتني سيارة حكومية إلى الفندق. وكانت تنقلني كل يوم من الفندق إلى مقر المؤتمر ولكنني لم أكن أستطيع أخفاء خوفي حينما عبرت الحدود وحينما غادرتها.

عدت إلى دير علا، ومارست حياتي وعملي كالمعتاد. كنت سعيداً باستقراري في هذه المحطة القريبة من قريتي كريمة، ومن قناة الغور التي كنت على وشك أن اغدو عاملا من عمالها. ومن الأصدقاء الكثر الذين أحسست بسعادة عامره بالتعرف إليهم، ومن نمط الحياة المريح من حيث السكن والطعام والعمل ودماثه المسؤول إنعام طهبوب والتفاهم الأسطوري بيني وبين يدوي وطهبوب. أحسست أنني مرتاح، مطمئن على صحتي بما يعطيني تأكيداً بأنني لن أموت في القريب العاجل. سعيد بسعادة أبي وأمي ورضاهما عني. وبما قدمته لهما من سداد للديون وبناء للمضافة وتوفير لبعض الدنانير من راتبي. كما كنت سعيداً بترفيعي إلى الدرجة التاسعة، وآن لي أن اكتب، أن أكمل الرواية التي بدأتها في بيروت.

-١٠-

بدأت أحاول الكتابة، قلت لم لا؟ ألم يكن إحسان عبد القدوس ويوسف السباعي والمنفلوطي ونجيب محفوظ مبتدئين مثلي؟ كنت قد قرأت الكثير لكتاب الشرق والغرب. وكانت في أعماقي حشود من الأصوات الداخلية تطالبني أن اكتب، أن أحاول. لقد كنت قد كتبت قصيدة لجميلة بوحيدر ١٩٥٧ وكتبت قصيدة أتحسر فيها على صديقي أحمد العبد الله حينما تركني وسافر إلى ألمانيا

واني لو سؤلت اليوم عن من　　أعز الأصدقاء لقلت أحمد

وكتبت عن نفسي مستلهماً صمود المعري أمام محبسيه الفقر والعمى حين يقول في قصيدته العنفاء:

فلا وابيك ما أخشى أنتقاصاً　　ولا ولأبيك مما ما أرجو ازدياداً

لي الشرف الذي يطأ الثريا　　مع الفضل الذي بهر العبادا.

فكتبت أنا متحدثاً عن ضعفي وهزيمتي أمام المرض "الوهم طبعاً" مبيناً همتي وعزمي لولا المرض:

فلا وأبيك ما ضعفي فنور　　ولا وأبيك ما المي مذلة

كانت كلها إشعار مستوحاة من تأثر ما بشاعر هنا وهناك. أشعار ساذجة تدغدغ منابع الإحساس في نفسي سلباً أو إيجاباً. إذن لماذا لا أكتب؟ لماذا لا ابحث عن أوراقي التي كتبتها في بيروت وأكملها؟، بحثت عنها في الحقيبة المشؤومة التي رافقتني عبر رحلتي في المخافر السورية وأقسام المباحث لأستخرج منها الأوراق وأكمل عليها. وحينما فتحتها تذكرت تلك الساعات الأربع والعشرين العصبية التي قضيتها في سوريا محجوزاً اتنقل مع حارس من مكان إلى مكان. ولكنني حمدت الله أن خرجت. ترى ما الذي اخرجني؟، هل اخرجني صدقي أمام المحقق؟. أم رضاء الوالدين؟. أن رضاء الوالدين هو في المقام الأول. يقولون من يعلق ولو بشبهه بسيطه مع

النظام السوري آنذاك يذوب كأنه لم يكن. ولكنني لم أذب، وخرجت بفضل الله ورضاء الوالدّين وبراءتي، وكنت بريئاً. قعدتُ أتذكر لماذا كان ذلك الاشتباه بي؟ ماذا فعلت؟ لا اذكر إنني قد فعلت شيئا ضد الجارة التي طالما رددنا نشيدها: حماة الديار عليكم سلام أبت أن تذل النفوس الكرام. وبلاد العرب أوطاني، والبلاد التي خرج منها حزب البعث الذي عشقته دون وعي في طفولتي. ترى ماذا فعلت؟ ماذا فعلت؟ وفجأة تذكرت، كنت في بيروت أجلس مع عدد من الشباب ونتحدث في السياسة، كنت من الذين يعشقون جمال عبد الناصر، وكان عبد الناصر على علاقة سيئة مع البعث والحكام السوريين آنذاك، كنت أدافع عنه وأعجب لقوته ونفوذه. ويبدو أن أحد الحاضرين كل يسجل ما أقول أو يفهم معناه ومغزاه، فخيل إليه أنني من رجال مخابراته أذهب إلى بيروت لأتلقى تعليماته ثم أعود إلى دمشق. هكذا خيل لهم في البداية. ولكن بعد أن لمسوا صدقي وبراءتي أفرجوا عني ومنعوني من دخول سوريا على طريقة "الباب اللي بيجي منه الريح سده وأستريح" هذا ما خطر لي عن أسباب اعتقالي عند الحدود، مجرد افتراض ليس له دليل أو سند حتى الآن.

المهم. أخرجت أوراقي وبدأت الكتابة، وتراكمت حيرتي في اختيار العنوان. فأنا لا أستطيع أن أكتب قبل اختار العنوان: أسميتها أولا: بوق سيارة الإسعاف، ونشرت منها حلقات مسلسلة في صحيفة الاثنين تحت هذا العنوان بعد الانتهاء من كتابتها. كانت القصة بسيطة ملخصها: شاب قروي مراهق، يحب فتاة حباً صامتاً لا يستطيع البوح به. الفتاة أكملت الصف السادس الابتدائي في القرية وقعدتُ في البيت لأن من العيب أن تذهب إلى المدينة وتكمل دراستها مثله. كان له في مدرسة المدينة صديق مدني وسيم، يتحدث معه دائماً عن الحب، ويلمح عن حبه الصامت، بينما يحدث الشاب المدني عن حب جديد له، ثم يكتشف أن الفتاة التي احبها صديقه المدني هي نفسها فتاة القرية التي كانت قد تمكنت من الذهاب إلى المدينة لإكمال دراستها بواسطة عمها الذي يسكن هناك. وكادت هذه الحقيقة أن تعصف بالصداقة بينهما لولا أن القدر قد تدخل فماتت الفتاة دعساً بسيارة شاب طائش ويدوي بوق سيارة الإسعاف التي حملتها إلى المستشفى حيث فارقت الحياة. كتبت هذه القصة الرواية تحت اسم "بوق سيارة الإسعاف" ثم حولتها إلى "الصديقان" ثم "قطر الندى". وقبل نشرها ١٩٧٥ جاء إلى عمان الكاتب والسيناريست التلفزيوني الشهير: "نزار مؤيدا العظم، فعمل مستشاراً للنصوص في التلفزيون الأردني، وقد

تعرفت عليه عن طريق المخرج جلال طعمه الذي نصحني بتحويلها إلى فيلم تلفزيوني حتى قبل نشرها. ورأي أن لا بأس من عرضها على نزار مؤيد العظم الذي أعجب بها كثيراً، وكتب بها مقدمة قصيرة أشار خلالها إلى أنني أشبه نجيب محفوظ في قدرتي على وصف البيئة المحلية. ثم أخرجت فيما بعد كفيلم تلفزيوني من أخراج عروة زريقات لحساب التلفزيون الأردني تحت عنوان: "الحب الأخرس".

وعوداً على بدء، إلى ذلك الإصرار الذي نما لدي بعد رحلتي الأخيرة إلى بيروت، ومأساتي على الحدود السورية، أن اكمل ما بدأته هناك، فأكملت القصة، ورحت ابحث عن ناشر. بحثت أولا عمن يكتب لها مقدمة. كان ذلك ١٩٦٦ فلم أجد. وبينما كنت أسير في احد شوارع عمان طالعتني لافته مكتوب عليها: "الوكالة الأردنية للصحافة والنشر". شدتني إليها كلمة "النشر". وخيل لي أنني لو عبرت إلى هذه الوكالة فسوف أجد هناك من ينشر روايتي وعبرت. كان المكتب حجرتان صغيرتان، تجلس في أولاهما فتاة متوسطة العمر والطول. حاسرة الشعر، بيضاء البشرة عرفت فيما بعد أنها السكرتيرة. قالت بأن المدير غير موجود. طلبت مني الجلوس أن شئت حتى حضوره.جلست وجاء المدير، رجل في الأربعين تقريباً طويل في رأسه بداية صلع أنيق يتأبط عدداً من الكتب. راح يتحدث إلي السكرتيرة غير عابئ بوجودي، وعندما لفتت نظره إلى أزال العبوس عن وجهه على نحو مصطنع ودعاني إلى العبور إلى الحجرة الأخرى التي كانت تغص بالرفوف والكتب. وهناك طاولة على يمين المدخل وعليها هاتف اسود اللون. جلس وراء طاولة ونظر إلي، فشرحت له طلبي فقال أنه سوف يساعدني. وطلب أن اترك المخطوط عنده فقلت بأنني ابحث عن من يكتب لها مقدمة، فقال أنه يعرف أكبر كاتب في الأردن وانه هو الذي سيكتب المقدمة. وعدني أن يتحدث إليه وأن أعود بعد أيام. عدت بعد أيام فقال لقد وافق، ولكنه يريد مبلغاً من المال. عشرة دنانير على الأقل. كانت العشرة دنانير تمثل نصف راتبي تقريباً، ولكنني وافقت، وحينما سألته عن الكاتب قال أنه محمود سيف الدين الإيراني.

وبعد أيام كنت معه نعبر إلى بيت محمود الإيراني الذي رحب بي من وراء نظراته الصغيرتين، ولفت نظري رأسه المدبب ونظارته الثاقبة، وأناقة بيته المفروش بالسجاد الأحمر آنذاك. أعطيته المخطوط والدنانير العشرة، وبعد أسبوع وجدت المقدمة تتصدر المخطوط، ففرحت بها كثيراً واذكر منها قوله:

- "دفع إلي صديق بهذه الرواية لأكتب لها مقدمة، ولكنني نسيتها ثم عاد الصديق فذكرني بها مرة أخرى، ثم بدأت أكتب المقدمة. الخ».

فرحت كثيراً بهذه المقدمة، ولم أنتبه إلى لهجة التعالي والترفع في ثناياها. ألا أنني اعتبرت أن مجرد ذكر أسمي من قبل ذلك الكاتب الذي كنت قد سمعت عنه كثيراً هو تقدير وحفاوه لا مثيل لهما، ألا أنني حينما عمدت إلى طباعة الرواية بعد تسع سنوات تقريباً نصحني احد الأصدقاء وهو الدكتور فواز طوقان بأن لا أضع تلك المقدمة لأن فيها من التعالي والتكبر ما لا تستحقه الرواية ولا الكاتب وكتب هو مقدمة لها ووضعت الرواية والمقدمة بين يدي صاحب الوكالة الأستاذ مرسي الاشقر وقد وعدني أكثر من مرة بأنه سيبحث لي عن ناشر. ولكن حباله كانت طويلة. كنت أذهب إلى مكتبته في أول شارع بسمان من جهة شارع الامير محمد مرات، حتى حفظت عدد الدرجات المؤدية إليه، واصبحت معروفاً لدى السكرتيره عايده، إلى أن قالت لي عايده ذات يوم:

- هل أنت متزوج أم خاطب؟

- لا هذه ولا تلك.

- ما رأيك بواحدة من بنات الأستاذ؟.

عبر الاقتراح إلى خيالي دون ممانعة. فقد خطرت لي فكرة الزواج لأول مرة، لم تكن قد خطرت لي من قبل على بال. كنت مشغولاً بروايتي، وبمحاولاتي القصصية التي اكتبها ولا أجد لها مكاناً للنشر، كما كنت مشغولاً بتوفير مبلغ أدفعه ثمناً لطباعة الرواية أو توفير مبلغ يشعرني بأنني أكسب من وظيفتي. لم أكن أعرف أن هناك في القرية عدداً من البنات يتوقعن أن أتقدم لخطبة واحة منهن. ولم أكن أتوقع أن أخي نفسه قد حدد واحدة من البنات ولمح إلى خطبتها دون أن يعرف أبي. وكانت أمي تعمل في اتجاه آخر، وأبي في اتجاه آخر، وأنا آخر من يعلم. وخلال زيارتي الثانية لعايده كان الحديث عن موضوع الخطبة وفيما إذا كنت قد وافقت أم لا. توارى موضوع الرواية، بل أنني استبعدتها وأدركت أن الأستاذ قد أصبح عاجزاً عن إيجاد ناشر لها. ووافقت وتحدد يوم أذهب فيه لرؤية المرشحة للخطوبة، قالت بأن هناك اثنتان، عبرتا إلى حيث أجلس لمدة دقائق، واخترت واحدة وقررت الإعلان عنها فيما بعد. أذكر أنه بعد خروج الفتاتين وإثناء جلوسي مع الأستاذ ووالدته وزوجته "أم العبد". أن سمعت فريد الاطرش يغني من الراديو: "يبوضحكه جنان"، اصغيت بل اعربت عن رغبتي في رفع الصوت قليلاً. فسرى خبر

اعجابي بفريد إلى الداخل، ثم تبين فيما بعد أن التي اخترتها كانت هي الاخرى من المعجبات بأغنيات فريد على عكس أختها التي كانت تنازعها الراديو لتستمع إلى عبد الحليم الامر الذي ادى كسر الراديو ذات يوم.

دوى الخبر في القرية كالرعد، واجتاح الاسماع كالعاصفة. أمي وحدها كانت سعيدة، لأن معظم المرشحات لي لسن من أقاربها ولا تحبهن. أبي كان محايداً، أخي الاكبر اجتاحه الغضب إلى الحد الذي أعلن فيه أن سوف يمنع هذه الخطبة بأي ثمن حتى لو كلفه الامر اقتراف جريمة، وحينما سألته عن السبب قال: انه تحدث مع الناس، وأن من العيب أن يتراجع، ومن العيب أيضاً أن يتزوج أخوه من مدنيه لا يعرف اصلها ولا فصلها. كان هو مصرا علي الرفض وكنت أنا أكثر إصرارا على القبول. أنا صاحب الشأن، وأنا لست صغيراً، وأنا أيضاً تحدثت مع الناس ووافقت ووعدتهم أن أحضر مع أهلي وجاهة من قريتنا للخطبة. ووصلت الأزمة إلى طريق مسدود، وتلفت حولي، وجدت الحل عند عبد الله العكوبة صديقي، هو صاحب المقالب والحيل، هو الذي يهزأ بأية مشكلة تعترض طريقة. وكان الحل والخطة كما رسمها: أن أوافق أخي على رأيه وأن اذهب معهم إلى خطبة تلك الفتاة. بينما يسرع عبد الله أهل الفتاة ويخبرهم بأن مشكلة سوف تنشأ بيني وبين أخي إذا وافقوا على الطلب. وطلب منهم أن يعتذروا لنا لأن أبن عم الفتاة يريدها. وفي اليوم التالي ذهبت مع أخي وأبي إلى منزل الجماعة. وفي الطريق قلت له: أذا لم يوافقوا هل تذهب معي إلى عمان لخطبة المدنية؟، قال نعم، واعتذر الجماعة وذهبت جاهة كبيرة إلى عمان اذكر منهم أصدقائي محمد المهاوش وعبد الله وعمي أبو الوليد، أخرين وتمت الخطبة في "تموز ١٩٦٦".

ويتحدد الزواج يوم الاثنين الثالث من آيار ١٩٦٧. وتمت حفلة الزواج في كريمة، واطلق وابل من العيارات النارية، وتمت "المراسيم حسب العادة المتبعة: ذبائح ومناسف ومعازيم. وهناك صديق أبي من الوحشات: احمد الاشقر، الذي ذهب معي إلى دير أبي سعيد أثناء البحث عن الوظيفة، طلب استضافة العروس حسب العادات المتبعة. واذكر أن من جملة من حضر حفلة زواجي قريب امي رسمي أبو عناب. شقيق النائب عن كفرنجة والذي كان ينجح لمجلس النواب بالتناوب مع محمود الراشد الخزاعي. وبعد ثلاثة أيام أنتقلنا إلى بيت كنا قد أستأجرناه في اربد يعود إلى عائلة من دار الحمود الكرام بأجرة مقدارها ستة دنانير على ما اذكر، وسكن معنا فيه أمي وأبي وأختي الصغرى التي جاءت إلى الوجود في ١٥/ ٤/ ١٩٥٥ وثبت لامي بأنني لست

منحوساً، وأن مولودة يمكن أن تعيش بعدي. وعاشت. وكان عمرها ١٢ سنه عندما تزوجت، وهي الآن جدة، فما أسرع ما يمر الزمن!

سارت الحياة بي وبزوجتي هيئة لينه بسيطة. أبي وأمي وأختي عندي. أمي كانت تتسلى مع عجائز البيوت المجاورة. أبي تعرف إلى عدد من أهل قريتنا الذين أنتقلوا للسكن في مدينة اربد، وأنا أذهب إلى دير علا بالباص فاداوم ٢٤ ساعة واعطل ٤٨ ساعة. ولم يمضِ شهر كامل حتى حدث الزلزال العنيف. كنت اسير مع أبي من بيتنا في الطريق إلى السوق لشراء بعض الأغراض فقابلنا أحد معارفنا فقال: اسرائيل هجت على مصر، والأردن قد تدخل الحرب. خفق قلبي وعدنا إلى البيت لنلتصق بالراديو ونسمع الاخبار. كان الجميع يستمعون إلى إذاعة صوت العرب، وأحمد سعيد يهدر: تجوّع ياسمك، أن طائرات اسرائيل تتهاوى كالزباب "كالذباب". لقد تم إسقاط خمسمائه طائرة حتى الآن. لم تكن قد سقطت لاسرائيل طائرة واحدة، وكان عدد طائراتهم كله لا يتجاوز المائتين.

وعندما أنتهت الحرب، وبدأت الحياة تعود إلى طبيعتها، وبدأت أتأمل بيتنا في اربد، كان جميلاً: حجرتان مبنيتان من الحجر، تعبر إليهما من ساحة واسعة يلعب فيها الاطفال، تشعرك بأجواء القرية. العجائز يجلسن على اطراف الساحة ويقتلعن بعض الاعشاب ويتحدثن في امورهن. الحجرتان متجاورتان، أمامهما ساحة داخلية تشبه ساحة منزلنا في كريمة. لم يطل بقاؤنا هناك سوى بضعة اشهر حيث تم تخصيص بيت سكن وظيفي عائلات لي في دير علا قريباً من المحطة. رحلنا إليه في اواخر سنة ١٩٦٧، وعاد والدّي إلى القرية. لقد كان وجودهما عندي في اربد كي لا تبقى زوجتي وحدها حينما اذهب للدوام في ديرعلا. أما وقد سكنت بالقرب من عملي اسوة بأنعام طهبوب ويدوي الاسمر فلا داعي لمن يسكن معنا. ولانه جدة زوجتي لامها وهي تركية الاصل قد أقامت معنا شهرين أو ثلاثة. اسمها أم سليم كان وجودها خيراً وبركة فهي عجوز قصيرة القامة، نظيفة الثياب، مرتبة الاشياء، تتحدث العربية بلكنة أجنبية محببة. كانت تقول مثلاً حينما تمتدح أحدى الجارات ما أحلى الابرة عليها تعني العبره. وكانت تقول شو بثرفني" أي "شو بعرفني"، وكانت تتحدث عن دار اهلها في تركيا الذين غادرتهم لمدة سبعين عاماً: عندهم ثلاث بيوت منا فتنها أي ثلاثة غرف ومنافعها.

كان بيتنا في دير علا جميلاً جداً. ثلاثة غرف ذات قباب، مطروشة ومبلطة من الداخل. مبنية من الطوب الترابي، تتقدمها ساحة فسيحة نزرع فيها البصل والبقدونس، وحولنا الاشجار العالية

من الكينا واللزاب، على مرأى منا تقوم المسطحات العشبية الخضراء المحاطة بالاشجار الهندسية الشكل. أصبح بيتي هو مكتبي. أعمل النشره واعود إلى البيت. أخذت جدة امرأتي معي لاريها عملي فعلقت: شغلك كله: لؤب بـ لؤب، أي لعب بلعب. لم تشاهد سوى ارقام وموازين حرارة واجهزة معقدة وهاتف. كانت اياماً جميلة، نسيت خلالها مرضي، واوغلت في موهبتي مع القصة القصيرة. كانت روايتي مع مقدمتها التي كتبها محمود سيف الدين الايراني تقبع في أحد الادراج تترقب النشر. كنت قد نسيتها تماماً، وبدأت محاولاتي مع القصة القصيرة، قرأت كل ما كتبه تشيكوف ويوسف أدريس ونجيب محفوظ ومجموعته القصصية دنيا الله بخاصة. كما قرأت للايراني وخليل السواحري وهمنجواي وعدداً غير قليل من القصص القصيرة بلغتها الانجليزية الاصلية، ومنها على سبيل المثال قصة لآجاثا كريستي اسمها "الخادمة" ترجمتها بصعوبة وتحدٍ، حتى اكملتها، وتعاملت معها دراميا كما سيتضح فيما بعد.

لم تكد سنة عام ١٩٦٨ تبدأ حتى بدأت منطقة الاغوار تتعرض لغارات وقصف اسرائيلي لمواقع رجال المقاومة الذين كانوا يغيرون على المواقع الاسرائيلية عبر النهر ثم يعودون إلى الاغوار. أصبحت الحياة في الاغوار لا تطاق، واصبحت العائلات تفر منه باحثة لها عن مأوى في العاصمة عمان أو في مدن اخرى. رحل انعام طهبوب، وبعده بدوي الاسمر ومعظم عائلات موظفي ومهندسين محطة الابحاث. كان علي أن اتدبر امري واقر بزوجتي التي كانت حامل إلى عمان. بحثت عن غرفة أو أثنتين للأيجار فلم أجد، وضعتها عند أهلها، كنت أذهب للدوام واعود لأبحث عن مأوى. وفجأة تذكرت أبو يوسف وأم يوسف في عين غزال. وجدت لديهم حجرة. أربعة جدران وسقف وباب حديدي كئيب. الجدران من الداخل غير مقصورة، هناك فجوات بين الطوب والحجارة تستطيع ادخال اليد فيها. قبلتها مرغماً، لم تكن الاجرة مدار جدال بيننا أنتقلت إليها، كنت أذهب بزوجتي إلى دار أهلها في الاشرفيه واذهب إلى الدوام في دير علا. كان دوامي في ديرعلا مغامره خطيرة، فالغور خلا من أهله، محطة الابحاث لم يعد بها ألا عدد قليل لإنجاز المهام الاساسية. وعند المساء كانت تبدو خالية من الناس ألا من الحارس. كنت اداوم من المساء إلي مساء اليوم التالي واعطل يومين. أنا وبدوي الاسمر ومعنا شاب طيب عين حديثاً وأسمه طالب غزال، كنت اذهب بزوجتي التي كانت حامل بشهرها الاخير إلى الاشرفية، ومن هناك اتوجه إلى البلد، ومنه إلى مجمع العبدلي، ومن العبدلي إلى السلط، ومن السلط نركب بسيارة أجرة حمولة اربعة ركاب إلى الاغوار. كان السائق أحياناً يضع فيها عشره ويقول: "اتحملوا

بعضكوا". ونتحمل رغم انوفنا، كنا نداعب السائق فنقول: ألا تخاف المخالفه المرورية؟ فيضحك ويقول: اسمعوا هذه الحكاية: مرة كان معي مجموعة "شروا فضالكوا" قلنا له: ولا بتهون، وجدت نفسي اقترب من حاجز شرطة وكانت المخالفة مؤكدة مائة بالمائة، ألا أن أخوكوا ابو الافكار قد دبر حاله. قلنا له: كيف؟، قال: طلبت من الركاب أن يصفقوا ويغنوا على اعتبار انها سيارة عرس، فمررت من أمام الحاجز الامني الذين اشاروا لنا وقالوا مبروك. وكانت مبروك بدل المخالفة؟

سكت قليلاً ثم قال أسمعوا هاي أعجب من هديك، اصغينا مرغمين فقال: مره كان معي مجموعة شروا فضالكوا، وبعد اجاتنبا المعتاده اكمل: مررت على دورية توقف جميع السيارات المخالفة. اشاروا لي بالتوقف وراء طابور من السيارات، وفجأة جائتني فكره. نزلت من السيارة وذهبت إلى الضابط وبدأت ارجوه أن يعيد إلي رخصي التي لم أكن قد أعطيته اياها، أنتهرني الضابط وقال كلا، كلا، هيا اذهب وتعال غداً واستلم رخصك من دائرة المرور، فمضيت وأنا أتظاهر بأنني لا زلت ارجوه حتى ركبت سيارتي وواصلت طريقي وهو يظن أن رخصي في حوزته.

كنا حين نشرف على منطقة الاغوار نشعر بالكآبة، ونحن نشاهد المناطق الخالية من السكان، والبيوت المهجورة، والمزارع الجافة، والحواجز العسكرية العديدة، ونستمع إلى اصوات مدفعية تقصف، وهدير طائرات، وخوف، أصل إلى المحطة واعبر إلى المكتب لأجد أن زميلي قد قام بواجبه وغادر. كنا نادراً ما نلتقي، وابدأ العمل.أعمل النشرة وارسلها إلى عمان واذهب على غرفتي الكائنه في صف من الحجرات الخاليه. ليس في المكان كله ألا أبو عارف الذي كان يقول: أنا لا أعرف الخوف، أنا مرّ علي ناس أكثر من جسر داميا، وفي الليل اضع رأسي على الوسادة لأنام فلا أستطيع، أخاف أن تسقط بعض قذائف المدفعية على رأسي. كنت حين اذهب في الليل لأعداد النشرات الليلة أشاهد أضواء السيارات الأسرائيلية العسكرية على الجانب الأخر من النهر. وأضوائها الكاشفه التي كانت تتحرك لتضئ شرق النهر كله. كنت أحمل مصباحاً يدوياً صغيراً لأسجل على ضوئه القراءات المناخية، واعود لتوثيقها وارسالها إلى عمان. وحينما يطلع النهار، أشعر بشئ من الطمائنينة لأن موعد عودتي إلى عمان وزوجتي قد اقترب. واشاهد أبو عارف وهو يعد لي طعام الافطار. وتبدأ بعض اشكال الحركة تدب في المحطة وما أن أقوم بإعداد نشرة الثانية بعد الظهر وارسالها حتى أغادر مسرعاً إلى باب المحطة لأقف على الشارع الرئيسي، واركب اول سيارة مسافرة إلى السلط، وأقوم برحلة العودة من جديد.

في العاشر من آذار ١٩٦٨ جاء أبني البكر في مستشفى عاقلة، وكنت حين أغادر إلى الاغوار اودع زوجتي محملاً بدعوات العودة بالسلامة. تقدمت أكثر من مره بطلب للنقل إلى محطة أخرى. إذ يكفيني أربع سنوات، ولكن الطلب كان يرفض والسبب كما علمت فيما بعد انهم لم يجدوا البديل الذي سيخاطر بروحه ويرضى العمل في دير علا. وذات صباح من آذار ١٩٦٨، وكان عمر ابني لم يتجاوز الايام العشرة ألا بيوم واحد، كنت قد أعددت نشرة الخامسة صباحاً وارسلتها، وذهبت لتناول افطاري في "الميس"، واستعد لأنجاز نشرة الثامنة صباحاً وهي نشرة رئيسية، وأعد الساعات حتى الثانية للعودة إلى عمان. وفجأة دوى هدير الطائرات على ارتفاع منخفض تمر فوق رؤوسنا متجهه شرقاً. كانت بأعداد كبيرة. أختلط ازيزها بأصوات المدافع المضاده وقصف مدفعي بعيد نسبياً، وأسرعت إلى المكتب، فأعددت النشرة على عجل وتجمعنا حول الراديو، وعرفنا أن قوات اسرائيلة قد اجتازت نهر الأردن في طريقها إلى الكرامه. مدعومة بالدبابات والطائرات، وأن القوات الأردنية الباسلة تتصدى للغزاة. خرجنا من المحطة فوجدنا ما تبقى من السكان يتجمعون ويفرون شرقاً إلى الجبال للاختباء بالكهوف. توجهت شرقاً مع المتوجهين وكان بحوزتي راديو صغير. أفتحه واستمع إلى الاخبار. وخلال رحلتنا سيراً على الاقدام صعوداً إلى جهة الشرق مرت فوقنا طائرة مقاتله والفت عدداً من المنشورات باللغة العربية لا زلت أذكر نصه:

"يا سكان شرق الأردن. جيش الدفاع يتقدم ليدك مواقع العدوان. ابتعدوا عن المخربين تسلموا، وافتحوا الراديو على صوت اسرائيل وتقيدوا بالتعليمات"

وكان لقب المخربين هو الذي يطلقه إليهود على رجال المقاومة. وصلنا إلى كهف، جلسنا نترقب، كان عقلي مشغولاً بإسرتي الصغيرة. قلق زوجتي، أبني الذي لم اره ألا اياماً معدودة. هل سأعود، هل سأموت؟، وطال الانتظار حتى المساء حيث عدنا إلى المحطة، ونمنا تلك الليلة. وصباح اليوم التالي توجهت إلى عمان، وبدأت أستمع وأعرف المزيد المزيد المزيد عن تلك المعركة الخالدة المسماه معركة الكرامة في الحادي والعشرين من آذار ١٩٦٨، وكنت احد شهودها عن بعد.

استمرت محاولاتي للانتقال من دير علا طوال عام ١٩٦٨ والنصف الأول من ١٩٦٩ إلى أن رشحتني الدائرة لبعثة تدريبيه دراسية في القاهرة على حساب منظمة الارصاد الجوية العالمية لمدة ستة أشهر أنا وزميل آخر اسمه حمزه الغرابيه.

-١١-

يتحدد موعد السفر إلى القاهرة في الثامن والعشرين من أيلول ١٩٦٩. تدبرنا أمرنـا، وبعـد أن بعنا اثاثنا ما عدا الفراش وادوات المطبخ التـي وضـعناها عنـد أهـل زوجتـي واشـتريت تـذكرة لزوجتي وابني ليلحقا بي بعد شهر تقريبـا، أكـون خلالـه قـد تـدبرت أمـري. وأسـتاجرت شـقة مفروشة، واصبحت أكثر قدرة على التعامل مع المناخ الجديد الذي سأجد نفسي فيـه. توقعـت أن معاملات راتبنا هناك سوف تطول، ومن أجل ذلك حملت معي مبلغاً يكفيني لـشهر عـلى الاقـل، ويدأ العد التنازلي، والخوف يزداد عندي مـن ركـوب الطـائرة، ألا أن البعثـة مغريـة، والنقلـة مـن الاغوار إلى القاهرة لا تفّوت. وتوقعت أن أعود بعد ستة أشهر فتكون أمور ألامن في الاغـوار قـد سويت بطريقه أو بأخرى "ومن هون تانعود بفرجها الرب المعبـود". وفي اليـوم المحـدد غـادرت من مطار عمان بطائرة "كرافيل" قيل لنا أن الرحلة تشتغرق ساعة ونصف تقريباً، لأن الطـائرة تمـر في اجواء بيروت ومن ثم فوق البحر المتوسط متجنبة المجال الجوي الاسرائيلي، ومجال سيناء التـي كانـت مـسرحاً لعمليـات جويـة في حـرب طويلـة عـلى ضـفاف قنـاة الـسويس اسـمها حـرب "الاستنزاف". كانت المدفعيـة المـصرية تقـصف المواقـع الاسرائيلـة شرق القنـاة، فـترد اسرائيـل بغارات جوية على عمق الاراضي المصرية.

بدأت الطائرة بالتحرك، كنت إلى جوار الشباك وحمزة إلى جانبي، حمزه غـير مـريح في تعليقاتـه قال لي: "أنا نحس، ربنا يسترك من السفر معـي"، قـال ذلـك مازحـاً ولكنـه زاد خـوفي. وبـدأت الطائرة بالارتفاع، وبعد لحظات خطر لي أن انظر من الشباك، فرأيت عمارات عـمان بحجـم علـب السجائر، فابتعلت ريقي خوفاً، واعدت عيني عن الشباك مرعوباً وتقلـصت في مكـاني افـرك يـداً بالآخرى وانظر إلى الساعة، ولا أدري كم كان حجم الزمن الذي اتقضى خلال الساعة والنـصف كأنه دهر بأكمله، ولما هبطنا في مطار القاهرة فرحت بسلامة الوصول ولم ينعض علي مـن مـنعض ألا خوفي من رحلة العودة بعد ستة أشهر.

قضينا الليلة الأولى في فندق صغير. وفي صباح اليوم التالي توجهنا إلى مكتب الامم المتحدة بالزمالك، وما أن عبرنا الحجرة الأولى وذكرنا اسمينا حتى قالت الموظفة، مستر فلان، مستر فلان وخلال دقائق كانت قد قدمت ألينا راتب الشهر الأول مع السيلاري مقدماً، مع برنامج البعثة مفصلاً. وكان السؤال الوحيد الذي وجهته الينا هو فيما إذا كنا ترغب في تسلم رواتبنا القادمة من مكتبهم أو من البنك فاخترنا البنك، وكانت هذه حالة لم نعتد عليها من التعامل، فلا تسويف ولا مماطلة، ولا ارجع غداً، ولا المسؤول مش هون، انها كل شيء معد ومرتب، هذا هو النظام وهذه هي اسس تقدم الشعوب وتطورها.

استطعنا بسهولة استئجار شقة مفروشة بخمسة جنيهات شهريا. وفي اليوم التالي غادر حمزة للاقامه مع اقارب له يدرسون هناك، ولم اعداراه ألا نادرا، في قاعة المعهد العالي للبحوث العلمية الذي ندرس فيه، وبعد احضار اسرته والسكن في شقة منفصلة كما فعلت أنا. إذ بعد شهر وصلت زوجتي. ذهبت إلى المطار لاستقبالها، وفي شرفة الاستقبال سمعت بكاء ابني وعرفت صوته، كان كثير البكاء كثير التعلق بأمه، عمره سنة ونصف، ولم يكن يكف عن البكاء ألا نادرا. جاءت زوجتي ووجدت عندي خادمه، تعمل بالنهار وتعود إلى بتيها في الليل بأجرة شهريه مقدارها ثلاثة جنيهات، أحد الأصدقاء من المصريين قال لي: ثلاثة كثير، تستطيع استبدالها بأخرى بدينارين فقط. ولم يكن هناك مبررا لأستبدالها لأن زوجتي قد استغنت عن خدماتها بعد وصولها بيوم واحد.

كان المعهد قد أعد لنا برنامجاً دراسيا خاصاً مع مجموعة من المتدربين المصريين، وكان الاهتمام بنا أكثر. فقد غادر معظم المتدربين اتباعاً. وبقينا وحدنا، لاننا قد اكتشفنا أننا قد تجاوزنا ما يتعلمون هم. فاعد لنا برنامج خاص بعلاقة الارصاد الجوية بالشؤون الزراعية، وكان المشرف على دورتنا والمدرب الأول لنا يدعى عبد المنعم عمارة. كنا نلتزم بالحضور والاهتمام بالدروس، واظهرنا تميزا مشرفا لنا وللدائرة التي ارسلتنا ولوطننا. مما اذكره خلال تلك الاشهر الستة أن حجرة النوم قد اهتزت بنا ذات ليلة فعلمنا أنها غاره اسرائيله على منطقة "بحر البقر". كما ذهبنا مرة لزيارة محطة ارصاد زراعية في منطقة "بهتيم" وكان فيها معكسر للقوات المصرية. حدثت غاره ونحن هناك أخذنا الارض وقلت لنفسي: هربت من القصف الاسرائيلي في دير علا، فتابعني القصف إلى "بهيتم" في مصر. وكانت بلاغات القوات المصرية تتحدث عن عبور

طائرات العدو على ارتفاع منخفض لم تمكن الرادار من رصده، فأوحى هذا البيان للشعب المصري المحب للنكته بطرفة خرجت في رمضان الذي صمناه هناك. وكانت مصر قد صامت بعد الدول العربية بيوم واحد، وكانت الطرفة أن هلال رمضان قد دخل على ارتفاع منخفض لم يتمكن الرادار من رصده.

زرت وزوجتي الاهرام ومصر القديمة وخان الخليلي وبرج القاهرة والقناطر الخيريه. وحضرنا، هناك فيلم ميرامار الماخوذ عن قصة نجيب محفوظ، كما حضرنا حفل اضواء المدينة استمعنا إلى سيد مكاوي وقد عبر إلى المسرح تقوده الممثلة التي كانت ناشئ آنذاك نجلاء فتحي أو ميرفت أمين. وغنى "الارض ابتتكلم عربي" وحينما عدنا وجدنا ابنناً لم يكف عن البكاء وامرأة البواب تحاول اسكاته بأي ثمن، كما دعينا إلى عدد من المعارف المصريين بنهم ضابط مصري لا أعرف كيف تعرفت عليه، وعلى سيده اسمها "أم جالا" كنا نستاجر احدى الشقق المفروشه التي تملكها. واظن أن جالا قد اصحبت هي جالا فهمي الممثله المعروفة، كما دعينا إلى بيت حمزة الغرابية ودعوناه الينا. وقد زارنا هناك فهمي السليم الذي كان يدرس في احدى جامعات الاسكندريه. وبعد اربعة اشهر غادرت زوجتي وابني فافتقدتهما كثيراً وكدت أصاب بالاكتئاب. وقد غادرت معها زوجة حمزة على أن نلحق بهما بعد شهر.

حينما اقترب موعد عودتنا اكتشف مدرسونا أن هناك العديد من المناهج الدراسية لم نكملها فكتب مدير المعهد وهو بالمناسبة وكيل وزارة البحث العلمي طلباً لتمديد الدورة لثلاثة اشهر اخرى ألا أن الجواب قد جاء من عمان بالرفض فقال لنا عبد المنعم عمارة، "لم يوافق السيد الهنيدي". وكان يعني عبد اللطيف الهنيدي الذي تسلم ادارة الدائرة من محمد ابو غريبة. وقبيل يوم من عودتنا حدد لنا موعد لمقابلة مدير المعهد وكيل وزارة البحث العلمي. كان مكتبه فاخراً، عبرنا إليه بعد مرورنا على مدير مكتب ثم سكرتيره، وتحدث الينا شاكراً اجتهادنا مقدراً التعاون الذي اظهرناه اثناء الدورة. وشكرناه على جهوده. ثم راح يتحدث لنا عن ذكرياته ومما قاله أنه كان زميلا للموسيقى "علي اسماعيل" في المدرسة، وعلي اسماعيل هو مؤلف مؤسيقي مسرحي من مؤلفاته مقطوعة "تعالي جنبي" لفرقة رضا. ثم قال مقدراً فن علي اسماعيل: - "شوفوا بقى أنا فين وهوّه فين"، لقد كان يرى أنه رغم مركزه ووضعه الوظيفي أقل من على اسماعيل مما يدل على تقدير كبير للفن والفنانين في مصر.

عدت إلى عمان. ووجدت أن زوجتي قد استأجرت بيتا معتدلا إلى جوار اهلها في الاشرفية وتمكنت من فرشه بما وفرته من رواتب الشهور الستة. ألا أنني سرعان ما عدت إلى ما كنت فيه من نكد العمل في دير علا، وقد فكرت أكثر من مره بالاستقالة، واستمرت محاولاتي للنقل. وأذكر انني قد قابلت مع عمي الأستاذ مرسي الاشقر عادل فخري الخالدي وكيل وزارة النقل ولكن دون جدوى. ألا أن الفرج قد جاء لوحده حينما تقرر تأسيس محطة للارصاد الزراعية في وادي الضليل فتم اختياري لكي اكون المؤسس، وانتقلت إلى وادي الضليل في شهر تموز ١٩٧٠م.

تقع محطة الابحاث الزراعية في وادي الضليل بمنطقة الخالديه بين المفرق والزرقاء. يعبر إليها القادم من الزرقاء بالاتجاه شمالاً من خلال باب واسع يقف عليه حارس، وما أن تسير السيارة بضعة امتار حتى تصبح أمام المبنى الرئيسي للادارة. المكون من غرفة مدير المحطة والسكرتير - الطابع"وغرفة اخرى للمهندسين الزراعين. كما هي العادة فقد وضعت لموظف الارصاد - أنا - طاولة في غرفة السكرتير مؤقتاً حتى يتم اكتمال بناء المحطة. وبدأ أبو شوقي بنصب الاجهزه والاسلاك الشائكة، وحوض التبخير، وكشك الرصد وغيره. كنت سعيداً بانتقالي إلى تلك المحطة وخلاصي من مسلسل الموت الذي واجهته عدة مرات في دير علا، فضلاً عن حالات الرعب والخوف التي كانت تلازمني أثناء وجودي هناك. اصبحت المؤسس الرئيسي لهذه المحطة من خلال الخبرة التي اكتسبتها من بعثتي إلى القاهره، كما اصبح زميلي حمزة الغرايبة مؤسساً لمحطة اخرى لغرض الارصاد الزراعية في اربد. وبعد ذلك تم انشاء محطات اخرى لهذا الغرض في الباقوره وغور الصافي والشوبك، وكان لي دور كبير في تنسيق العمل بها وتدريب بعض كوادرها.

الأصدقاء في وادي الضليل كثر، وجلهم من مهندسي وموظفي محطة الابحاث الزراعية: مدير المحطة المهندس أحمد رشدي هذا المهندس متواضع إلى ابعد الحدود، اجتماعي إلى ابعد الحدود، صديق للجميع، محبوب من كل من يراه. كان يجلس معنا بعد ساعات الدوام ونلعب الورق أو نتمشى في المحطة، ونتجمع في احدى غرف السكن لغير المتزوجين. هناك المهندس فهمي البرقاوي، والمهندس محمد حمام، وقتيبة الياسين، وشاب من عائلة شكوكوني، ومامور المحطة محمد صالح الذي كنا نرتاح إلى جلسته وطرائفه، ورضوان جرادات السكرتير، والطباخ أبو بهجت، الذي كان يعد لنا الطعام. وفي رمضان كنا نسأله: هل تصوم يا أبا بهجت؟ فيجيب: "أنا ما بشتغل هالشغلة" فنضحك. كان درزيا. وعلمنا أنه كان قد قتل زوجته ذات يوم. كان لدنيا

مهندس طيب جداً اسمه محمد حمام، من لاعبي الشطرنج المعروفين، إلى الحد الذي أنتقل إلى عمان برغبته من الامير محمد بن طلال رئيس نادي الشطرنج ليكون قريباً من النادي في عمان. كان طيباً وبسيطاً، وكان يصدق كل ما يقال له ويخاف من المجهول. مرة قدم لنا أبو بهجت الكوسا المحشي، وصادف أن الحشوة في حصة محمد حمام كانت شبه خاليه من اللحمة فقال له قتيبه الياسين مداعبا: هذه مؤامرة، أبو بهجت تعمد حشو بعض حبات الكوسا دون لحمة وقدمها لك. فغضب وثار، وهم أن ينهض ليعاقب أبا بهجت، فقلنا له اياك، هذا يقتل دون خوف فقد قتل زوجته قبل ذلك. فهمد وهو يقول هه!! وضحكنا في اعماقنا، وهكذا كانت تمر السنوات، فقد بنى للارصاد مكتب وسكن قريب من المحطة، واقمنا به. وتعاقب على العمل بها عدد من موظفي الارصاد بينهم على ما اذكر: عطا حسن الحاج، مازن الطراونة، وآخرون لا تحضرني اسماؤهم الآن.

وبعد شهر تقريبا من عملي في محطة الارصاد الجوية بوادي الضليل كان لا بد من السكن في مكان أقرب إلى المحطة، فكانت الزرقاء. وكان أن استاجرنا بيتا لرجل يدعى "أبو محمود" من اقارب زوجتي من جهة الام. والمنزل حجرتان في الطابق الثاني قريبتان من المستشفى الحكومي ومبنيتان من الحجر. كانت الحجرتان كافيتين لاسرتنا الصغيرة، أنا وزوجتي وابني الاكبر. كنت مرتاحاً إلى حد بعيد. المواصلات مؤمنه، والاسرة آمنة حينما أنام في المحطة. ولم يكن ينغص علينا عيشنا سوىء تلك الحالة الامنية التي كانت سائدة بين سلطة الحكومة ممثلة بالجيش والامن، ومجموعات من المنظمات المسلحة التي تركت منطقة الاغوار وتجمعت في المدن الرئيسية بالمملكة. وفي عمان والزرقاء بخاصة، وكانت الاشتباكات متكررة تقطع حبال الامن وتزعج والمواطن وتؤثر على حركة الحياة اليومية في المدن والريف، فقد اصبحت الحياة غير آمنة حتى في المدن التي لجأ إليها الناس من الاغوار. فسكان الاغوار نزحوا، والزراعة تعطلت، والمدن شلتّ واصبحت الحياة لا تطاق، وكان لا بد من وضع حد لكل هذه الاشكالات الامنية. لن اتحدث في التفاصيل، وساتركها للتاريخ فأنا لست مؤرخاً. ولكنني استطعت الخروج بنظرية لايأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها وهي أنه لا يمكن أن تتعايش قوتان مسلحتان في وطن واحد، ولا يمكن أن يعيش شعبان مختلفان في وطن واحد ايضاً، وكان صاحب هذه النظرية هو الفدائي الأول والمفكر والسياسي البارع وألا دراي الحازم رئيس الوزراء الأردني وصفي التل، الذي استطاع ١٩٧٠م من أن يضع الامور في نصابها، ويعيد الامن إلى الوطن والمواطن، وأن يؤكد أن في الوطن سلطة

واحده هي سلطة الدولة، وشعب واحد من شتى الاصول والمنابت هو الشعب الأردني، لن اعلق على هذا الموضوع أكثر من ذلك واتركه للمؤرخين والتاريخ.

واعود إلى هوايتي واهتمامي ورغبتي في أن أمارس الكتابة واصبح كاتبا، فقد كنت قبل سفري إلى القاهرة ١٩٦٩م قد كتبت قصة قصيرة اسمها "دعاء المبروكة"، تتحدث عن شاب يحب من غير أمل، لجأ إلى الساحرة فكتبت له حجاباً، جاء اثره عكسياً بعد ذلك. فقد خطبت فتاته إلى آخر ربما حينما كانت الساحرة المبروكة تكتب ذلك الحجاب، ارسلت القصة إلى جريدة الدفاع، التي كانت تصدر في عمان، وكم كانت فرحتي كبيرة وطاغية حينما شاهدتها منشودة على صفحات الجريدة. اشتريت نسخة ومشيت بها في شوارع عمان. كان يخيل إلى أن كل الناس تنظر إلي وتقول: هذا هو كاتب القصة. عشت مع هذا الحلم الجميل اياماً، رغم كونه حلماً، فلم يكن أحد قد قرأها أو أهتم بها، ولكن هكذا كانت البداية، وهكذا كانت المشاعر تشتعل باحساس لذيذ لم أعرف مثله من قبل. وحينما ذهبت إلى الجريده بعد أيام لا شكر محررها الثقافي آنذاك، وهو الأستاذ سهيل الشنطي، استقبلني مشجعاً وقال: أنت يا أبني كاتب جيد، استمر. هذه الكلمات في اعتقادي هي القوة التي شحنتني وجعلت مني كاتباً فيما بعد. ولولاها ربما أختلف الامر كثيراً، ظلت الكلمات تّرن في اذني وعقلي حتى بعد أن غادرت إلى القاهرة، وهناك كتبت قصة من وحي الحياة في القاهرة، وهي قصة "الجواد"، عن فنانين تقودان عربة ملأى بقوارير الكازوز ثم تنقلب العربة وهكذا، وحينما رجعت إلى عمان اسرعت بها إلى سهيل الشنطي في جريدة الدفاع، فلم ينشرها وقال لي بعد أيام، هذه القصة يا بني ليست من وحي بيئتنا لأردنية أكتب غيرها. وكان هذا درس آخر تلقيته من الشنطي رحمه الله حول ضرورة الالتصاق بالبيئة المحلية. وبدأت بالفعل أكتب غيرها، ألا أنني كما ذكرت قد أرسلتها إلى مجلة كانت تصدر عن مؤسسة الاذاعة والتلفزيون، اسمها مجلة الاذاعة و التلفزيون، فنشرت وتقاصنيت عنها مكافأة قدرها سبعة دنانير، وهي أول مكافأ، أحصل عليها من قلمي. وكانت آنذاك تعادل ربع راتبي الشهري.

في السنة التالية ١٩٧١ استمرت محاولتي لكتابة القصة القصيرة، فنشرت في أخبار الاسبوع، وعمان المساء. واذكر انني قد تجرأت فارسلت إلى الدستور. في تلك السنة اغتيل الشهيد وصفي التل فاهتز الشرق كله، وبدأت رحلة الوعي في عقل ذلك الرجل الذي كان الفدائي الأول من

اجل فلسطين من خلال جيش الانقاذ، مروراً بكتبه التي الفها عن القضية ومعركة العقل والخلق من اجلها، وصولاً إلى الامن والامان الذي اعاده إلى الدولة الأردنية. وفي تلك السنة أيضاً ١٩٧١م نشرت الصحف اعلانا من مؤسسة الاسكان عن فتح باب التقدم للحصول على شقة سكنية لموظفي الدولة والمؤسسات، بشرط دفع مبلغ خمسة وعشرين ديناراً مع الطلب، فأذا لم يحالف المتقدم الحظ يعاد إليه المبلغ، وإذا حالفه الحظ فإن المبلغ يعتبر دفعه من مقدم الثمن للشقة التي ستقسط على عشرين عاما. وإذا استنكف فأن المبلغ لا يعاد إليه، وهكذا. خطر لي أن اتقدم بتشجيع من زوجتي ولكن لا بد من مشاهدة المشروع أولاً . ذهبت برفقة صديقي وقريبي محمود "ابو حازم" لمشاهدة المشروع، وصلنا إلى عمان. ومن عمان ركبنا في سرفيس الوحدات، ومن الوحدات ركبنا في سرفيس آخر للقويسمه، هبطنا عند سكة الحديد، وسألنا، ثم مشينا في طريق ترابية لنشاهد الوحدات السكنية والعمل جار فيها، كانت وحدات ارضية صغيرة، لا بأس بها، لا عيب فيها ألا البعد. كانت المنطقة معزولة، تحيط بها السهول الخالية من المباني والناس، تنتشر حولها مزارع الفقوس، فعلق أبو حازم "كيف سنسكن هنا يا رجل، والله أن الضباع ستأكلنا". وأنا اتذكر هذه العبارة واضحك حينما ارى أنه لابد من أشارات ضوئية حتى يمكن تنظيم حركة السير في المكان وما حوله إلى مسافات بعيدة.

وبعد اشهر قليلة صدرت جريدة الرأي تحمل اسماء المستفيدين من مشروع الاسكان بالقويسمه. وفيهم أسمي. وبدأ الصراع، عبرنا إلى المرحلة الجديدة. كان المطلوب ممن ذكرت اسماؤهم التوجه إلى مبنى المؤسسة ودفع عشره بالمائة من ثمن الوحدة السكنية، وكانت الوحدات هي أ و ب. الوحدة "أ" أكثر اتساعاً، وب هي الاصغر حسب حجم العائلة. وكان نصيبي هو "ب"، وثمن هذه الوحدة هي ١٢٥٠ ديناراً، والعشرة بالمائة هي ١٢٥ ديناراً مدفوع منها ٢٥ يبقى مائة، هل سأدفع المائه واستمر أم أتراجع واخسر الـ ٢٥؟ ويبدأ الصراع، الذي حسم وبتشجيع من زوجتي أيضاً بالاستمرار. حيث تم تأمين المائة دينار التي بقيت معي اياماً قبل دفعها، ودفعتها. وتم تحديد يوم لتوزيع هذه الوحدات بالقرعة، وجاءت قرعتي على الرقم ٦٥، الوحدة ٦٥ ب، فهرعت إلى المشروع لأرى وحدتي واتسلم مفتاحها. وعبثاً حاول المشرف على المشروع ايجادها، لم تكن هناك اية وحدة سكنية تحمل الرقم ٦٥ ب. وعدت إلى البيت حزيناً لأنقل النبأ إلى اسرتي التي كانت تتألف بالاضافة إلى زوجتي من أبني الاكبر ذي الثلاث سنوات وابنتي الوحيدة

ذات الشهور التسعة. لفنا الحزن، حتى اصحاب البيت حزنوا لانهم كانوا متأملين برحيلنا لتأجير الدار إلى غيرنا بسعر أعلى. وفي اليوم التالي ذهبت إلى المؤسسة، وبعد مراجعات كثيرة، والرجوع إلى الخرائط الهندسية حتى عرف السبب، وإذا عرف السبب يطل العجب.

كانت الوحدة رقم ٦٥ هي من النوع أ، وقد تم تصميمها ضمن هذا السياق، ولكن أثناء التنفيذ تبين أن بناءها "أ"، سوف يمتد إلى الارض المجاورة، احتج صاحب الارض وحصل على حكم بوقف ذلك الامتداد، فتم تحويلها عملياً إلى "ب" ونظرياً هي "أ". وهكذا تم تسليمي تلك الوحدة التي تتمتع بمميزات الوحدة "أ"، وبسعر الوحدة "ب" وقد واجهت نفس المشكلة بعد أكثر من ثلاثين عاماً، حينما قمت بأنجاز معاملة تطويبها بعد تسديد ثمنها بالكامل. كانت الوحدة السكنية على طرف المشروع، وأمامها شارع غير معبد، وحينما شاهدتها أنا وزوجتي اجتاحنا الخوف، كيف سنسكن في هذا البيت القائم على اطراف المشروع؟ المتاخم لسهول فسيحة تخلو من الناس والمارة؟ لا ماء ولا كهرباء، لا مظهر من مظاهر الحياة ألا دكان صغير يضاء مساء بلمبة الكاز وحوله عدد من البيوت، جيراننا سكنوا بعد استلامهم لمفتاح شقتهم، شجعوني أن اسكن مثلهم. كان ذلك في اواخر ١٩٧١م، ولكنني كنت متهيباً من موقع البيت فترددت وانتظرت حتى اوائل ١٩٧٢م. كان سبب ترددي أنني محكوم لطبيعة عملي التي تقتضي أن أنام في المحطة يومين أو ثلاثة في الاسبوع، واسرتي صغيرة: زوجة وطفل في الثالثة وطفلة لم تكمل السنة. تمنيت لو جاءت القرعة على بيتي في وسط المشروع، بين البيوت. أعلنت أنني على استعداد للمبادلة مع صاحب بيت في الوسط، وبالفعل هرع إلى أكثر من واحد. فتنبهت، لماذا كل هذه الرغبة بالمبادلة من قبل الاخرين؟ قال لي أحد الجيران: بيتك على الطرف وحوله ارض ستصبح حديقة صغيرة، بينما البيوت الاخرى التي يرغب اصحابها بالمبادلة محشورة في حارات وازقة ضيقة فتخليت عن فكرة المبادلة نهائيا، وعزمت على ترقب ما سوف يحدث من تغيرات داخل الضاحية، قد تصل الكهرباء والماء ويزداد عدد السكان، ويحدث نوع من الاحساس بالامن، ولكن لم يطل الانتظار.

كنت في الزرقاء ادفع الاجرة لأصحاب المنزل من اقارب زوجتي عند بداية الشهر. خطر لي أن اجعل الدفع في نهايته. فقد ارحل في اية لحظة. لماذا ادفع اجرة شهر كامل مقابل ايام معدودة؟ ثم خطرت لي فكرة وضعهم على المحك، هل يحبوننا حقاً كما يقولون؟ هل يوافقون على فكرة تغيير نمط الدفع من اول الشهر إلى آخره؟، وبالفعل لم ادفع، فشاهدت حركة غير عادية حولي،

اشارات، ايماءات، تعليقات، ثم طلب مباشر للاجرة ورفض قاطع بتأجيلها إلى نهاية الشهر. وقد وصل الامر بزوجة صاحب البيت أن جاءت الينا بعلبة زيت قلي فارغة وقالت: خافوا من الله، فوالله ليس معنا ما نشتري به اخرى جديدة. وعرفت كم كانوا على خطأ. وضعهم جيد. لهم متجر في الشارع الرئيسي بمدينة الزرقاء. ولهم بيت آخر مؤجر لضابط في الجيش يدعى "ابو جلال". حينما سمعت منهم ذلك ازددت عنادا، واعلنت بأنني لن ادفع حتى نهاية الشهر. وقبل نهاية الشهر حزمت امتعتي ورحلت إلى بيتي بالقويسمة، وما هي غير اسابيع حتى اتصل بي محامي يخبرني أن دعوة قد رفعت ضدي وأن علي أن ادفع اجرة البيت أو أواجه المحكمة. كنت عازماً على الدفع حتى بدون محكمة. ذهبت إلى المحامي وشرحت له ما حدث، فضحك، ودفعت، وطويت الصفحة، وعدت إلى بيتي فرحاً في النهار، خائفاً في الليل. ألا أن الجيران كانوا من خير الناس فتعاونوا معنا، حتى أنتهت ازمة الخوف نهائياً، وجاءت الماء والكهرباء وعبد الشارع، ودبت الحركة في المكان حتى اصبح كانه في قلب العاصمة.

تركت الزرقاء بكل ذكرياتها، الصلاة خلف الشيخ الامجد وهو شيخ مسجد مصري ذو بيان وقدرة على مخاطبة المصلين في امور دينهم. وأحياناً اصلي في جامع الشيشان خلف الشيخ عبد الباقي جمو الذي كنت معجباً بلغته العربية السليمة وبيانه الفذ. تركت البقال أبا فهمي الذي ضرب أبني ذو السنوات الثلاث أحد احفاده فادماه، ثم تصالحا، واللحام الذي يقوم على زاوية الشارع المقابل والذي يبيع اللحوم التي لم تكن ألا بلدية بواقع ثلاثين قرشاً للكيلو الواحد. في الزرقاء تعرفنا إلى اسرة زميل مسيحي قديم اسمه زكي بدر. وترددت كثيراً على مكتبة الزرقاء العامة. وزرت قصر شبيب، وكنت أكثر من التطلع إلى البناية القائمة وراء الاسلاك الشائكة والتي شهدت حياتي في القسم الداخلي، ومرضي وخوفي والماما وأبو عضام والزملاء. كنت امر من أمام المطعم الإبراهيمي واجلس فيه أحياناً لأستعيد تلك الذكريات ولكنها كانت عصية على العودة بكل تفاصيلها. في الزرقاء أيضاً جاءت امي وقضت معنا شهراً أو يزيد، وفي الزرقاء كان يتردد علينا أبن عم والدي الذي كان لا يزال في الجيش أبو عوض، وفي الزرقاء عرفت التلفزيون، حيث حصلت على سلفة واشتريت جهاز تلفزيون ١٧ بوصة وكنا نتفرج على المسلسلات ومن أهمها: حمام الهنا لدريد لحام، ومقالب غوار، وكذلك على المصارعة الانجليزية، التي من ابطالها: ميك ميك مالانس، وميك مايكل، هذا ما اذكره قبل أن احمل امتعتي واصبح من سكان عمان.

-١٢-

منذ اوائل ١٩٧٢ اصبحت من سكان عمان- منطقة القويسمة. تقدمت إلى البريد بطلب هاتف، فحصلت على هاتف فرعي رقم ٦٩، وظل هذان الرقمان يتصلان بهاتفي الارضي حتى اليوم. اصبحت مع مرور الايام أكثر أمنا على اسرتي في بيتنا الجديد. لم يكن هناك مالك يطالبنا بالاجرة في اوائل أو نهاية كل شهر. كان قسط المنزل وقدرة سبعة دنانير وخمسة قروش يحسم من الراتب فلا أشعر به. واصبحت أكثر تفرغاً لهوايتي في الكتابة. كنت قد وضعت قدماً في شارع الادب وبقي على الكثير، فنشرت في عمان المساء والدفاع والقدس، ورحت أحلم بالنشر في الراي. كانت الراي قد أصبحت صحيفة الوطن الأولى، اسسها المرحوم وصفي التل عام ١٩٧١م كبيرة مميزة منذ أول عدد من اعدادها. ولكنني كنت قد اعدت ما سوف اكتبه إليها. في تلك السنة جاء أبني الاوسط فأصبحت الاسرة خمسة، ولدان وبنت. الراتب يقترب من الاربعين ديناراً محسوم منها قسط المنزل والبقالة الصغيرة المقابلة لبيتنا التي كانت مصدر التمويل لنا حتى آخر الشهر. صاحبها لا يجيد القراءة والكتابة. كان زبائنه هم الذين يسجلون ما أخذوه، يدفعون في نهاية الشهر، حتى أنني قلت له مماحكا ذات يوم: أنا اشتغل لك يا أبا خالد، فضحك واصبحنا اصدقاء وظللنا كلك: الجيران طيبون: أبو فيصل الذي هو أبو سعد أيضاً عبد الكريم أبو زيد، موظف في الاذاعة، أم غالب سعاد الحجاوي موظفة مكافحة في مستشفى البشير، أبو شروق، أبو بسام، أبو سلطان، أبو ماهر وآخرون. كبرت الضاحية، وتم تعبيد الشارع الرئيسي المؤدي إليها واصبحت سيارات السرفيس تصلها مباشرة من شارع الطلياني بعمان.

جاءت حرب ١٩٧٣م، ومرت دون ان تؤثر على الاوضاع في الأردن لا سلباً ولا إيجاباً، تخوف الناس في البداية من أن يشارك الأردن فيها مباشرة، ألا أن الملك حسين رحمه الله كان من الحكمه والتعقل إلى الحد اشترك فيها بأرسال قوات إلى الجبهة السورية. أما العلامة الفارقة في حياتي، وفي مسيرتي الادبية فكانت ١٩٧٤م، حينما تأسست رابطة الكتّاب الأردنيين، وتقدمت

بطلب الانتساب إليها. وسرعان ما جاءني الرد بالقبول، واصبحت عضواً عاملاً فيها واحمل الرقم ١٩. ولا زلت احتفظ ببطاقة الانتساب مع صورة البطاقة التي تحمل الرقم. ولم يكن عبوري إلى رابطة الكتاب قد جاء من فراغ، ولم أكن قد قبلت فيها هكذا دون مسوغات، فقد كان القبول متكئا إلى ما انجزته قبلها. وفي عام ١٩٧٣م بخاصة. فقد أصبحت قصصي القصيرة تنشر في كل الصحف -عدا الرأي على ما اعتقد- وأرسلت بعضها إلى الاذاعة فأذيع ضمن برنامج خاص بالقصة القصيرة. وخلال ترددي على الاذاعة وبأشارة ودعم من جاري أبو سعد يرحمه الله "عبد الكريم أبو زيد" تعرفت إلى المخرج الاذاعي ومعد ومقدم البرامج المتميز موسى عمار. وقد طلب مني موسى عمار بعد استماعه إلى احدى قصصي القصيرة "شجرة المحبة"، أن أحولها إلى تمثيلية إذاعية في ٣٠ دقيقة، فاستأنست بخبرته وحولتها إلى تمثيليه تحمل اسم "شجرة اللوز"، تم اعدادها واخراجها واذاعتها، ففرحت بها كثيراً. واذكر أنني قد سجلتها على "كاسيت" ورحت اسمعها عدة مرات. وكان عام ١٩٧٣م وشجرة اللوز هما بدية مشوراي مع الدراما الاذاعية التي احببتها وحولت إليها معظم قصصي القصيرة إلى أن اصبحت في مقدمة الكتاب اللأذاعة، وسوف اتحدث عن هذا الموضوع كلما تطلب الامر ذلك.

في رابطة الكتاب ١٩٧٤م تعرفت على عدد كبير من الزملاء الذين قضى بعضهم وبعضهم ينتظر واذكر منهم خليل السواحري وسالم النحاس وفواز طوقان وابراهيم العبسي وأحمد عوده ويوسف ضمره ومؤنس الرزاز ومحمد داوديه ومحمد المشايخ وامينه العدوان وعلي فوده ومفيد نخله وغيرهم. وفي تلك السنة اصدرت الرابطة مجموعة قصصية مشتركة لأعضائها من كتاب القصة تحت عنوان: ١٧ قصة قصيرة وكنت أحدهم. كما اصدرت دائرة الثقافة والفنون آنذاك - وزارة الثقافة حالياً -كتابان مختارات من القصة الأردنية، وقد ساهمت في هذه الكتب الصادره عن الرابطة والدائرة. وما أن جاء عام ١٩٧٥م حتى اصبحت واحداً من كتاب القصة القصيرة المعروفين، واصبحت ادعى مع آخرين لأحياء امسيات قصصية في بعض المدارس والاندية. واذكر أن أول امسية شاركت فيها كانت في احدى مدارس مخيم الحسين النزهة، لا اذكر ولكن ما اذكره انني كنت خجلاً خائفاً مرتبكاً، وكعادتي دائماً فقد قاومت خجلي وتغلبت عليه. وسمعت الحاضرين يصفقون لي فأكتسبت ثقة بها أكتب جعلتني أتحدث إلى الدكتور فواز طوقان استاذ الادب العربي المساعد في الجامعة الأردنية وزميلي بالرابطه بخصوص المخطوط الروائي الذي

كنت قد انجزته وكتب مقدمته محمود سيد الدين الايراني تحت عنوان: الصديقان. وعندما قرأ فواز الرواية عجب بها ولكنه نصحني أن لا انشر معها مقدمة الايراني التي كانت تتطفح بالفوقية واستصغار الآخرين: "دفع إلى صديق بهذه الرواية لأكتب مقدمة لها، ثم نسيتها ثم ذكرني بها"، وهكذا، كلام لم يعجب الدكتور فواز طوقان وقال لي روايتك تستحق أكثر من ذلك، فتجرأت وطلبت منه أن يكتب هو مقدمتها ففعل وكتب. وفي السنة التالية ١٩٧٦م تعرفت على مكتب صحفي اسمه "وكالة الصحافة الأردنية" لرجل اسمه"عبد الله عامر". ووافق أن ينشر روايتي على أن ادفع له نصف تكاليف طباعتها. وقد طبعت الرواية في العام ذاته في مطابع المنظمة التعاونية لأصحاب المطابع في طلعة جبل الحسين التي اعتقد أنها ما تزال تعمل حتى الآن. ولا زلت اذكر الاحرف الرصاصية التي كانت تصف إلى جوار بعضها لتشكل الكلمة ثم الجملة والجهد المبذول في الطباعة مقارنة بهذه الايام.

قبل طباعة روايتي الأولى، وتحديداً في ١٩٧٥م كنت قد تعرفت اثناء ترددي على الاذاعة والتلفزيون على مخرج متخصص في الاخراج السينمائي اسمه "جلال طعمه"، وسرعان ما اصبحنا اصدقاء. فطلب مني قصة لغرض تحويلها إلى فيلم تلفزيوني طويل، قدمت له مخطوط الرواية، فقرأها، ويبدو أنه قد اعطاها لمراقب النصوص في التلفزيون الأردني وهو الكاتب السوري المعروف نزار مؤيد العظم فأعجب بها اعجاباً غير عادي، فقد قال لجلال طعمه. لماذا تبحثون عن نجيب محفوظ وعندكم مثل هذا الكاتب؟ نقل إلي جلال هذا الرأي مع رغبة نزار العظم بالتعرف علي. شعرت بالزهو، واكتسبت ثقة بالنفس اكبر واكبر، ورحت اتطلع إلى تجاوز الاذاعة والوصول دراميا إلى التلفزيون. تعرفت إلى نزار مؤيد العظم، واعطاني صورة من تقريره حول الرواية يقع في صفحة كاملة، استأذنته أن اضع فقرة منه على غلاف الرواية حين طباعتها فرحب بذلك. وهذا هو نص الفقرة التي وضعتها على الغلاف الخارجي للطبعة الأولى من الرواية:

- "مؤلف هذه الرواية كاتب ممتاز، متمكن من فنه الروائي خصيب الخيال، مشرق الاسلوب، صاحب جمل قصيرة ذات قدرة تعبيريه جيدة. بارع في وصف البيئة المحلية بأدق خلجاتها والرؤية عنده ذات شمول وشفافية. يمهد للأحداث المقبلة بطريقة تظل ممسكة بأنفاس القارئ واهتمامه. والقارئ ينفعل ويهتز ويعيش مع الابطال، ويشم رائحة الارض في جفافها

وابتلالها لا يقل جوادة في رايي -عن نجيب محفوظ من حيث قدرتـه عـلى وصـف البيئـة المحليـة والتقاليد وطباع اشخاص الرواية، والعمل الدرامي لديه متكامل متناسق رائع، الخ"،

لقد كانت هذه شهادة مذهلة من كاتب كان ملء سمع الدراما التلفزيونية وبصرها. كـان مـن أشهر الكتاب في العالم العربي. مـن أجـل هـذا سـتقدمه التلفزيـون الأردني ليكـون رئيسـاً لقسـم النصوص فيه. وكان قد كتب للتلفزيون مسلسله الشهير "فارس ونجود" وعرض على كثـير مـن شاشات التلفزة في العلم العربي. هذه الشهادة من نزار مؤيد العظم جعلتني اتطلع فعلاً إلى الكتابـة للتلفزيون بعد أن كنت قد تقدمت في الكتابة الاذاعية إلى مشارف كتابة المسلسل ذي الثلاثين حلقة. أصبح نزار مؤيد العظم صديقاً شخصياً لي هو واسرته، دعوته إلى بيتي ودعانـا هـو إلى بيتـه، إلى ان اقعده المرض عن العمل واجرى عملية قلب مفتوح ثم غادر الحياة إلى لقاء ربه بعدها بسنوات.

بعد أن اضاء نزار مؤيد العظم النور الاخضر امام روايتي، أو مخطوط الرواية لعمـل تلفزيـوني ١٩٧٥م، بدأت أنا وجلال العمل لتحويلها إلى فيلم تلفزيوني طويـل، كنـا نعمـل بمنزلـه في جبـل عمان. كنت اتعلم منه مبادئ السيناريو والحـوار، ويـتعلم منـي مـا ضـمنته روايتـي مـن وصـف الشخصيات وتعلقها بالارض، ونمط سلوكها. كنا لا ننجز في اليوم الواحـد أكثـر مـن مـشهد أو مشهدين، ولكننا كنا نعمل بمتعة. وخلال عملي تعرفت إلى عدد من الممثلين الأردنيين من امثـال: "سهيل الياس ونبيل صوالحه، واديب الحافظ، وحسن إبراهيم وداود جلاجـل" وغـيرهم وذات يوم وبينما كنت أنا وجلال منهمكين في العمل، ونشرب الـشاي في الفـسحة الكائنـه امـام المنـزل، شاهدنا سيارة فوكس فاجن بيضاء تقف في أول الشارع ويهـبط منهـا شـاب اشـقر طويـل وسـيم وسيدة تحمل طفلاً، ويتوجهان نحونا. عرفهما جلال وقال: هذا صديق من لبنان وزوجته. كانـت لبنان تعيش حربا اهلية طاحنة، وسدت مصادر الرزق امام العديد من فنانيها فانتـشروا في الارض وقدم العديد منهم إلى الأردن بخاصة. فقد كان التلفزيون الأردني مدرسة اعلاميـة متقدمـة، تنـتج البرامج والمسلسلات البدوية منها بخاصـة. وكـان بمثابـة ورشـة عمـل لا تهـدأ في الليـل ولا في النهار. وكانت المسلسلات الأردنية تسوق دون عناء في العديد من دول الخليج. وقد وصل الامـر حتى بالنجوم المصريين من امثال يوسـف شـعبان إلى القـدوم إلى عـمان والاشـتراك بمسلـسلات بدوية. وكانت لي أنا شخصياً مساهمات في اعمال تلفزيونية اشترك فيها نجوم مـصريون سـأتحدث عنها في حينها، وقد أسهمت الحرب الاهلية اللبنانية في تـدفق عـشرات الفنـانين إلى عـمان للعمـل

والاحساس بالامن ومنهم على سبيل المثال عبد المجيد مجذوب الذي اصيب في لبنان وعولج في الأردن. وقد كنت ممن زاروه بالفندق وتعرفوا إليه وتحدثنا عن مشاريع عمل.

رحب جلال طعمه بالشاب اللبناني وزوجته التي تحمل طفلاً رضيعاً وقدمه لي على أنه: حسن السبلاني وزوجته فريال وابنهما طارق. توقفنا عن العمل بالفيلم ورحنا نتحدث عن الاوضاع في لبنان. وفهمت من الحديث أن السبلاني قد فر بأسرته الصغيرة وسيارته الفوكس الفاجن هكذا، على باب الله، وربما لم يكن في حوزته من المال ما يشتري به الحليب لولده. قدم لهم جلال عشاء خفيفاً، واقبل الليل، فأين تنام الاسرة الصغيرة؟ كان بيت جلال صغيراً، لا يكاد يتسع الا له وزرجته وولديه، همست له، أنا استضيف هذا اللبناني الفار بأسرته وزوجته. وهكذا كان، فقد أخذته معي إلى البيت ونام تلك الليلة. وفي اليوم التالي استاجرت له بيتا مجاوراً لنا، وسكن مع اسرته الصغيرة وراح يبحث عن مصدر لرزقه. يخرج في الصباح ويلتقي بعدد كبير من زملائه اللبنانيين، ويزور التلفزيون والاذاعة حتى ضاقت به الارض بما رحبت. إلى أن تمكن ذات يوم من الحصول على وعد من مدير البرامج في التلفزيون، واذكر انه كان يومها فاروق جرار بأن يشتري منه سهرة تلفزيونية يكون هو منتجها المنفذ. فرح كثيراً، وجاء إلى ضارعاً طالباً أن أكتب له تلك التمثيلية. وبحثت في اوراقي فوجدت نصاً مسرحياً يحمل اسم "الارض الصغيرة"، لم اجد صعوبة في تحويله إلى نص تلفزيوني. اجازه من نزار العظم وبدأ العمل. كان فريق العمل في التمثيلية يتكون من عدد من اللبنانيين والأردنيين بينهم ماجد افيوني وشفيق حسن، وسمير شمص من اللبنانيين. وزهير النوباني وفؤاد الشوملي من الأردنيين، كانوا يجرون "البروفات" في بيته القريب مني، كنت احضر بعضها. ولم اطلب منه ثمناً للنص الذي كتبته، فقد كان كل همي أن يتدبر أمره ويجد ما يعول به اسرته وهكذا كان. فقد انجزا التمثيلية وقبض مستحقاتها ودفع اجرة المنزل والتزاماته الاخرى. وخلال وجوده جاراً لنا جاءته ضيفة من لبنان مع ولدها، السيدة لبنانية تبدو مثقله بالهموم والخوف من المستقبل. ابنها في العاشرة تقريباً اسمه "خضر" شديد الذكاء، ذو مواهب كثيرة في الغناء والتمثيل والنوادر المضحكة، ولا عجب في ذلك فهو أبن الفنان اللبناني الشهير حسن عبد السلام المعروف بأسم "شوشو". صاحب المسرح الشهير المعروف بأسمه وصاحب الاغنية الشهيرة المقدمة للاطفال: قلم ارصاص ومحاية أنا بكتب على

اللوح وانت ابتكتب وراية". كان المرحوم شوشو قد مات تاركاً اسرته الصغيرة دون عائل. فرت زوجته بولدها إلى الأردن، وقد قدم لها جارنا عبد الكريم ابو زيد دعماً انسانياً عن طريق أبن عمه الذي كان وزيراً للخارجية آنذاك صلاح ابو زيد. ولم يطل بقاؤها في بيت حسن السبلاني، فغادرت مع ابنها خضر ولا أدري إلى اين.

كانت تمثيلية الارض الصغيرة التي قدمتها مجاناً لحسن السيلاني وزوجته فريال هي تجربتي الأولى مع التلفزيون، حيث حضرت مراحل اعدادها وتصويرها. وعبرت إلى ستوديو١ في التلفزيون الأردني، وشاهدت كيف يعمل المخرج والممثلون، ولا أدري من اخرج التمثيلية، هل هو جلال طعمه؟ هل هو حسن ابو شعيره؟لا اذكر، كنت احضر جميع مراحل العمل. تعرفت خلال مرافقتي لفريق العمل على عدد آخر من الفنانين اللبنانيين، بينهم هويدا ابنة صباح، وماجد افيوني، واذكر انني قد دعوتهم إلى غداء في بيتي وقدمنا لهم "المسخن" الذي اعجبوا به كثيراً. لاحظت أن ماجد افيوني لا يأكل كثيراً فعرفت انه مصاب بالقلب ولا يأكل الكثير من الدهون، كما لاحظته في بيت حسن السبلاني وهو يحمل عوداً وعرفت انه عازف عود ماهر. وقد اصبحت بعد هذه التجربة أكثر ثقة بنفسي في مجال الكتابه للتلفزيون. وسأتحدث عن هذه التجربة بالتفصيل بعد الاشارة إلى حادثة طريفه بعد صدور روايتي "الصديقان" ١٩٧٦م.

فرحت بكتابي الأول المزين بمقدمة رائعة للدكتور فواز طوقان ورحت اقدم الاهداءات إلى زملائي في الرابطة. وعرفت منهم آلية بيع وتوزيع هذا الكتاب كي استرجع ما دفعته على الاقل. قيل لي أنه بأستطاعتي أن اتقدم بطلبات بيع إلى الدوائر الحكومية ووضع عدد من النسخ لا تزيد عن عشر لدي باعة الكتب على الرصيف، اخترت احدى البسطات الواقعة على مدخل مقهى السنترال في عمان، تناولها البائع مني دون حماس وقال بفتور: "عد إلي بعد اسبوع لارى أن كنت قد بعت منها شيئا!!" لم اكن آملا ببيع أية نسخة. ولكنها محاولة، من يشتري لكاتب ناشيء؟ من يعرفني حتى يشتري من كتبي؟، ولكنني قلت ولم لا؟ وتذكرت الطرفة التي تروى عن الكاتب الأردني الذي يضع خمسة نسخ من كتبه في مكتبه على سبيل المثال من اجل بيعها فيعود بعد اسبوع ليعرف كم بيع من الكتاب وكم بقي، فيجد ان الخمس نسخ قد اصبحت ست، من أين جاءت السادسة؟ من صديق كان قد أهداه اياها فجاء هو الاخر ليبيعها. أي أن الاهداءات هي الاخرى لا تسهم في تخليص الكاتب من كتبه.

تذكرت هذه الطرفه وأنا اتوجه بعد اسبوع إلى مدخل مقهى السنترال لأتحدث إلى البائع وأعرف كم باع من النسخ وكم بقي عنده. وقد فوجئت إلى حد الذهول حينما سألني البائع بأهتمام: أين أنت يا رجل؟ لقد بيعت كل النسخ، واريد عشرين، وهذا هو ثمنها. اتيته بعشرين وعدت بعد ايام لأجد أنها قد نفذت فطلب اربعين، وهكذا ثم بيع أكثر من مائتي نسخة في تلك البسطة. علماً بأن نجيب محفوظ بجلالة قدره لا يبيع في الأردن مثل هذا الرقم، فما هو السر يا ترى؟ وهل أنا مشهور ومعروف إلى هذا الحد؟ لا أظن ذلك. ومن هنا كان العجب. وظل يحيرني حتى عرفت السبب، وحينما يعرف السبب يبطل العجب، فقد كنت ذات يوم اركب باص الجامعة في طريقي لزيارة صديقي الدكتور فواز طوقان، وكنت احمل معي حيث ما ذهبت نسخاً من كتابي واتعمد اظهار صفحة الغلاف التي تحمل عنوان الكتاب واسمي. وجلست على مقعد خالٍ فجاءت طالبة وجلست إلى جواري. وما أن شاهدت الكتاب حتى هتفت: "لو سمحت استاذ من أين اشتريت هذا الكتاب؟ اريد نسخة منه بأي ثمن." لم اقل لها أنني المؤلف، فقد كنت قد حضرت بعض الافلام المصرية التي يترفع فيها البطل عن الافصاح عن شخصيته، فلماذا لا اكون أنا البطل؟" سألتها: لماذا تريدين الكتاب إلى هذا الحد؟ فقالت: أنا طالبه لدي الدكتور فواز طوقان، وقد طلب منا أن يشتري كل طالب عنده في الشعب الثلاث نسخة تمهيداً لمناقشته بعد أيام مع المؤلف. ومن لم يشتري نسخة فأنه سوف يبدو أمام الدكتور وكأنه غير مكترث. وهكذا عرفت السبب. وعرفت أن الدكتور فواز يريد مساعدتي، وهو جاد في ترتيب لقاء لي مع طلابه، وهكذا كان. وحاضرت عن كتابي الأول في كلية الاداب بالجامعه الأردنية وانا لا احمل الا شهادة المترك. كان ذلك ١٩٧٦م. وبعد ذلك بعامين عبرت قصصي القصيرة إلى مادة التذوق الادبي في الجامعة الأردنية ولدى صورة من ورقة امتحان تحمل سؤالين احدهما عني وقصة المقعد الخالي، والاخرى عن عبد المنعم الرفاعي واحدى قصائده.

واعود إلى التلفزيون الذي كانت نهاية السبعنات واوائل الثمانينات فترة خصبية فيه، بعد تمثيلية الارض الصغيرة قمت بأعداد مسلسل حواري من ٣٠ حلقة اسمه "في واحة الايمان" يتناول ٣٠ شخصية اسلامية من خلال حوار بين رجل وامرأة وقد عمل في هذا البرنامج موسى عمار ودينا الصفدي ورفعت النجار واخرجه وانتجه فواز الزين. وقمت بعده بأعداد برنامج آخر

على النمط نفسه اسمه مواقف الخالدين، وبعده اشرعة النبوّة الذي اخرجه حسن ابو شعيرة وفيه الممثل المصري المعروف انور اسماعيل والممثلة عفاف شعيب. وتوالت اعمالي للتلفزيون وكنت بين الحين والآخر احول احدى قصصي القصيرة إلى تمثيلية تلفزيونية في ساعتين تعرف هناك بأسم سهره تلفزيونية. وبدأت ابحث عن نص رواية الصديقان الذي كان قد اختفى بين النصوص حتى نسيته، وكنت قد انجزته أنا وجلال طعمه تحت عنوان "الحب الاخرس" وحينما عثرت عليه اعدت تقديمه إلى التلفزيون من جديد مع اجازة نزار العظم الذي كان قد غادر موقعه كمراقب للنصوص. ويتم اخراج العمل كفيلم تلفزيوني بعنوان الحب الاخرس وقد اخرجه كما اذكر عروة زريقات.

في تلك السنة ١٩٧٧ استقرت حياتي. واصبحت أذهب إلى الدوام كباقي الموظفين من الثامنه صباحاً وحتى الثانية بعد الظهر، وفي تلك السنة أيضاً جاء آخر اولادي واصغرهم، وكان معي في القسم بالاضافة إلى رئيس القسم زميلي بدوي الاسمر. وهناك تعرفت على عدد من الزملاء الاخرين بينهم منير ابو خضر ومنصور سليحات في قسم المناخ وكذلك فوزي العكش وخلفه في الديوان رضوان القضاة. ومنهم كذلك محمود الشروف وهنا عقيل ونهيل سويلم في شؤون الموظفين والديوان. وكانت هناك موظفة على المقسم اسمها "صباح القريوني" زوجة احد المطربين الأردنين واسمه اسماعيل حداد. وأنني اذكر اسمها لأنها طلبت مني ذات يوم أن اكتب لزوجها كلمات اغنية، وسوف اتحدث عن هذا فيما بعد.

واعود إلى التلفزيون وبحثي المتواصل عن قصة تصلح لعمل تلفزيوني درامي، وذات يوم وقع بين يدي كتّيب صغير باللغة الانجليزية اسمه "Three dectative stories" أي ثلاثة قصص بولسية، كانت احدهما تحمل اسم The barmade أي الخادمة لأجاثا كريستي فقررت أن اترجمها بنفسي. كانت لغتي الانجليزية ضعيفة جداً، ولكنني صممت على انجاز ترجمتها بنفسي. كانت القصة عبارة عن ثلاث صفحات استغرقت ترجمتها أكثر من اسبوعين، كنت استعين بمعرفة معاني بعض الكلمات من بدوي الاسمر ومنير ابو خضر والاخرين. وحينما انجزتها إذهلتني فكرتها المعقدة، وحبكتها المتقنة، وجرعة الاثارة والتشويق في احداثها. عقدت العزم على أن اضيف عليها من عندي واتصرف في بعض احداثها بما يناسب الحالة العربية والمحلية،

وتوصلت إلى ملخص كامل متكامل. قدمته إلى المخـرج حـسن أبـو شـعيرة الـذي كانـت لي معـه محاولات ناجحة كان هو مخرجها، اعجبته الفكرة فهتف قائلاً:

- هل تستطيع اعدادها للتلفزيون باللهجة المصرية؟

وبدون تفكير كان ردي ايجاباً. فقد كنت اجيد اللهجة المصرية لكثرة مـا شـاهدت مـن افـلام ومسلسلات، وطلب مني حسن ابو شعيرة أن يكون العنوان قليل الكلمات، ولم نجـد أفـضل مـن كلمة "اللغز". وبدأت كتابة مسلـسل اللغـز باللهجـة المـصرية، وبعـد شـهر تقريبـاً كانـت هنـاك مجموعة من النجوم المصريين قد قدموا إلى الأردن لتصوير هذا العمل ومـنهم: نـوال أبـو الفتـوح. ودلال عبد العزيز وإحسان القلعاوي مـن الممـثلات. ومـن الممثلـين: محمـود الجنـدي وابـراهيم سعفان وعبد المنعم إبراهيم وآخرين، وقد اعيد بث هذا المسلسل الذي جاء في عشر حلقات فقـط أكثر من مرة. وظل من شاهده يذكره لسنوات طويلة على امتداد العـالم العـربي كلـه. وقـد اعطـاني نجاح هذا العمل دفعة من التشجيع للبحث عـن روايـة اخـرى لأجاثـا كريتـسي، ووجـدتها: شر تحت الشمس، حورتها بما يناسب واقعنا العربي، واخترت لها اسماً هو "نهاية صيف". وقـد طلـب مني المنتج الذي هو محمد الفايز على ما اذكر، أن يكون الحـوار بالفـصحى، وقـد أراده بالفـصحى من أجل التوزيع على مساحة أكبر من العـالم العـربي ولكـن المسلـسل لم يـلاق النجـاح المطلـوب بسبب اللهجة الفصحى على الرغم من أن حبكته هي أقوى بكثير من مسلسل اللغز.

بعد ذلك بسنوات اتصل بي المخرج رفائيل بقـيلي الـذي عـرف مـن خـلال أخراجـه للعمـل الكوميدي المتميز الذي كتبه فؤاد الشواملي "العلم نـور". التقينـا في نـادي الأردن، وحـدثني عـن رغبته في أنتاج عمل تلفزيوني كوميدي. فقد سئم الناس المسلسلات البدوية والتاريخيـة والمحليـة. قال لي: فكر في موضوع، واعطني الملخص والحلقة الأولى. وفجأه تذكرت كتابي الجاحظ ومـوليير عن البخل. قرأتها بعناية للمرة الثانية. واستخلصت منها فكرة مسلـسل أسـميته "الكحتـوت". وحينما قرأ رفائيل الفكرة والحلقة الأولى فرح كثيراً بعد أن ضحك كثيراً اثناء القراءة. واتفقنـا عـلى أن يكون المسلسل عشر حلقات، وسعر كل حلقة مائـة دينـار. استـل دفـتر شـيكاته وراح يكتـب شيك بالمبلغ كله وهو ألف دينار، فرفضت، وطلبت منه أن يعطيني ثمن ما انجزتـه، كـل حلقتـين أو ثلاث معاً. وهكذا أنا لا اريد أن ارهن نفسي لعمل لم اكمله بعد. فقد لا اكمله. كـما رفـضت أن

اكتب العقد ألا بعد أن أنتهيت من العمل وسلمته كامل الحلقات ووافق عليها. واختار لبطولتها نبيل صوالحه وسميرة خوري وحسن إبراهيم وانور خليل وآخرين. وخرج مسلسل الكحتوت إلى الوجود. ولا أبالغ إذا قلت أن أنتشاره بين المشاهدين في الأردن والعالم العربي كان فوق العاده، واعيد بثه في السعودية مرة أخرى بعد أنتهائه مباشرة وهذا بناء على طلب المشاهدين وهو مالم يحدث لمسلسل قبله وربما بعده.

ولا بأس أن اورد هنا بعض الامثلة والوقائع على نجاح المسلسل وانتشاره بين الناس. فبعد عرضه مباشرة جاءتني هواتف عديدة ممن يعرفونني، وهم يستحلفونني بالله عما إذا كنت اعني بالكحتوت فلان أو علان ممن يعرفونهم من البخلاء. ومرة كنت ازور أحدى المدارس لألقي محاضرة فيها عن القصة القصيرة، وكان إلى جواري مقدماً الزميل منير الهور فقال هو يقدمني: انني الكاتب فلان، ولي كذا وكذا ولي من المقالات كذا وكذا، ولي من الروايات كذا، وانني عضو في رابطة الكتاب الأردنين، والحضور من الطلاب صامتين لم تؤثر فيهم هذه المعلومات عني إلى أن قال منير: بالمناسبة، محاضرنا اليوم هو كاتب مسلسل الكحتوت. وفجأة دوت القاعة بالتصفيق ووقف الطلاب عن مقاعدهم وظلوا يصفقون لأكثر من دقيقه. وساد هرج ومرح وسمعت خلاله تعليقاتهم: "أنا شفته استاذ" رأيت مشهد السرير المكسر، لا يأتي لزوجته الا باللحمة المثلجة ولا يعطي اولاده مصروف. وقد بذل مشرف المحاضرة جهداً كبيراً في اعادة الهدوء إلى القاعة، وبعد أنتهاء المحاضرة كانت معظم الاسئلة تدور حول مسلسل الكحتوت.

ومن النوادر جول المسلسل ماروراه لي نبيل صوالحة فقال: ذهبت إلى مهرجان جرش، وجاء مقعدي إلى جوار رجل من السعودية وما أن شاهدني حتى نهض وصافحني بحرارة وهو يقول، هذا شرف كبير أني اجلس إلى جوار الكحتوت، وضحكنا كثيراً. كما روت لي سميرة خوري بطلة المسلسل أنها كانت تشتري الخضار ذات يوم فاقتربت منها فتاتان وقالت احدهما، وهل اعطاك زوجك الكحتوت ما تشترين به الخضار؟

بعد الكحتوت كتبت عدداً من الحلقات المسلسل اجيال، وعدداً من السهرات المأخوذة عن قصصي القصيرة. ومن الجدير بالذكر أن انشغالي وتوجهي إلى التلفزيون لم ينسني المسلسلات الاذاعية التي بدأتها أول ما بدأتها بالمسلسلات التاريخية المأخوذه عن روايات جرجي زيدان.

كنت اكتبها لأحسان عماشة لحساب مؤسسة دبي للانتاج وكنت انقاضي مبلغ مائتين وعشرة دنانير لكل مسلسل أي بواقع سبعة دنانير للحلقة الواحدة.

واعود إلى عملي في الدائرة منذ ١٩٧٧م. حيث كنت اذهب في زيارات للتفتيش على المحطات الخاصة بالرصد الزراعي وكانت في دير علا والضليل والباقوره والشوبك واربد وغور الصافي. وكان أبو شوقي وسائق آخر اسمه عبد القادر هما الرفيقان في الرحلة. كنت ادرب كوادر المحطات بصفتي المتخصص نظريا وعمليا بهذا الموضوع. أحببت عملي في الدائرة وشكرت لعلي عبنده اهتمامه بي ونقلي من المحطات الخارجية. ترك فوزي العكش الديوان وتعاقد مع الخارج بعد حصوله على الدكتوره وتسلم رضوان القضاه رئاسة الديوان، وخلال الفترة من ١٩٧٧ — ١٩٨٢م مرض رضوان وتوفي، واصبح منصب رئيس الديوان خالياً وسمعت همساً عن رغبة المدير العام في ان اصبح رئيساً للديوان وقد حدث ١٩٨٢م.

واعود إلى فترة عملي في قسم الارصاد الزراعية الفتر ة السابقة لتسلمي مهام رئاسة الديوان. كانت فترة ثرية تميزت بعلاقات وصداقات حميمة مع عدد من الأصدقاء. كنا بعد أن ننهي أعمالنا نتجمع في مكتبي أنا وبدوي الاسمر. كان بدوي شاباً جاداً قليل الكلام. يخيل لمن يراه لاول مرة أنه متكبر أو متعجرف ولكن ما أن يعرفه حتى يكتشف انساناً لطيفاً طيب القلب محباً للآخرين قادراً على مجاراتهم في العمل والتسلية على حد سواء. كان يتجمع عندنا منصور سليحات ومنير أبو خضر واحد موظفي المناخ ويدعى فؤاد أبو غريبة وعبد الرحمن أبو نصير وابن عم له توفيا فيما بعد وكانت تحضر جلستنا بعض الزميلات كأخوات لنا. كان بدوي الاسمر قد تحسنت أحواله مادياً لأنه قد عبر هو وزوجته إلى عالم المتاجرة بالسجاد، فكان يحضر لنا كل يوم المكسرات غالية الثمن وبعض الساندويشات والحلوى حتى اعتدنا عليها كما يعتاد الأولاد على هدايا أبيهم الغائب. كان منصور يداعبه ويقول: ماذا احضرت لنا اليوم يا أبي، فيرد علينا بلهجة المقدسية المحببة " يفضح حريشكو اللي خلئكوا" أنتو ما ابتشبعوا، وكنا نضحك ونأكل ولا نشعر بالوقت حتى الثانية كيف انقضى. ذات يوم اتصلت بي عاملة المقسم صباح القريوتي وعرفت نفسها وقالت انها تريد مني خدمة وانها تريد أن تتحدث بها إلي في مكتبي. جاءت وسألتني هل تسمع بالمطرب اسماعيل حداد؟، لم اكن قد سمعت به ولكنني قلت مجاملاً: اتعني اسماعيل خضر؟

فقالت لا، حداد، وقلت لها المهم، قالت هو زوجي، وهو يريد أن يذهب في رحلة فنية إلى العـراق، وهي ترجوني أن أكتب له كلمات اغنيـة خاصـة بـالعراق كـي يلحنهـا ويغنيهـا هنـاك: وشـعرت بالحرج، لأنني لم أكن قد كتبت الشعر حتى تاريخه عـدا تلـك الأبيـات المتواضـعة التـي كنـت قـد كتبتها لجميلة بوحيدر قبل عشرين عاما. فأنا لم أمتهن الشعر، واتخذت من القصة القصيرة والرواية منهجاً لقلمي وعرفت بهما في رابطة الكتاب، وفي الصحف التي كنت أكتب بها. كما كتبت المقالـة والنصوص الاذاعية والتلفزيونية أما الشعر فلم أخض غماره رغم أنني كنت اتذوقه. وكان طلـب الزميلة صباح يصل إلى حد الضراعة. فوعدتها أن أحاول. كانت مكانتي الأدبية قد بدأت تترسـخ. كنت أفوز بالجوائز وادعى إلى أمسيات قصصية، وانشر في افكار وجريدة الرأي وهما المعيار الأول لتفوق الكاتب. كما اصبحت اجمع قصصي القصيرة استعداداً لاصدار اول مجموعة قصـصية. وقـد صدرت فعلاً عن رابطة الكتاب الأردنيين تحت عنوان "البيت القديم" سنة ١٩٨١م.

واعود إلى الشعر، وإلى كلمات الاغنية المطلوبة. ووقفت في لحظات تحدٍ مع نفسي وقلمي، هـل أستطيع؟ أم لا أستطيع؟. سوف أحاول. وحاولت وكتبت:

يـــا ليـــالي المجــــد غنــــي   واحـــــك للتـــــاريخ عنـــــي
أنـــا مـــن شـــعب العـــراق   ثابـــــت يــــوم الـــــتلاق

يصنع المجد ويبني – يا ليالي المجد غني

أنـــا مـــن شـــعب حـــسور   ثابـــــت عنـــــد الثغـــــور
هـــــو في الحــــق جـــسور   لـــــــه في الار ض جــــــذور

انـه منهـا واني - يـا ليـالي المجـد غنـي

جاء اسماعيل حداد إلى مكتبي وتسلم الكلمات، وشرع في تلحينها ثم حملها وسافر إلى العراق. كانت الحرب العراقية الايرانية في بداياتها وعلى أشدها، وحينما عاد فرحاً شكرني وسألني كم تريـد ثمنها فرفضت وسامحته كما سامحت اللبناني حسن السبلاني من قبل. وأخبرني أن الاغنية كانت تذاع من راديو وتلفزيون العراق مرات عديدة في اليوم الواحد. وكانت تسجل على اشرطـة وتبـث مـن مسجلات وبواسطة سماعات في عدد غير قليل من الأماكن في بغداد. وقد شجعتني هذه المحاولـة إلى تكرارها فكتبت عدداً من الأناشيد للأطفال، والمناسبات الوطنية، وحينما بلغت سنوات جلوس الملك حسين على عرش المملكة اربعون عاماً ١٩٩٣م كتبت اغنية تحت عنوان اربعون:

اربعـــــون، اربعــــون وشـــــدت اسراب الحســون
اربعـــــون اربعــــون وزهــــت اوراق الـــدحنون
حـــسين أنـــت في القلـــب
حـــسين أنـــت في العيـــون
علمتنـــا كيـــف نتمـــي علمتنـــا أن لا نهـــون
الأردنيـــات حولـــك والنـــشامى الأردنيـــون
فـــأمض يـــا ســـيدي بنـــا
رافـــع الـــرأس والجبـــين. اربعـــون

وقد لحن هذه الكلمات وغناها المطرب المرحوم محمد جاد الحق.

واعود إلى تلك الفترة الرائعة من حياتي ١٩٧٧ -١٩٨٢ م والمماحكات مع منصور وبدوي الاسمر، وعبد الرحمن أبو نضير، خلال هذه الفترة سقط زميلنا منير أبو خضر رئيس قسم المناخ ارضاً بجلطة قلبية وهو يسير في كارادور الدائرة، وكان بدوي الاسمر أول من شاهده فجاء راكضاً وهو يقول: وع، وع، أي وقع، فسأله منصور من؟ فقال إنه منير أبو خضر طبعاً قال أبو خضر، وواصل: أبو خضر وع، والظاهر انه "أدح،" أي مات، وقد مات فعلاً، واصبحت كلمة "أدح" من بدوي الاسمر مستخدمه كثيراً كلما مات ميت نقول فلان أدح أي قدح. والتعبير أنه قد قدح كعود الكبريت واشتعل ثم مضى. وحتى بعد احالتي على التقاعد حينما نتصل ببعضاً لنخبر عن وفاة من نعرفه فنقول فلان أدح. ولا بد هنا من التعريف قليلاً بمنير أبو خضر لأنه علامة بارزة في دائرة الارصاد الجوية. رجل ابيض طويل ناعم الشعر كالأجانب. يضع نظارات على عينيه، محب للعمل، قليل الاهتمام والمشاركة في شلتنا نحن الشباب آنذاك. ألا أن عدداً من موظفي قسمه كانوا معنا. وبالمناسبة كان هو من درسنا في الدورة التأسيسية للارصاد الجوية ١٩٦١م، عقل علمي ومنهج عملي دقيق حريص على الدنيا متدفق الحيوية والنشاط، حين وقع ومات كان منهمكاً ومشغولاً في بناء بيت له، كان يقول: لقد اشتريت الحديد بأقل من السوق

بكذا، واشتريت الإسمنت بكذا، من هم هؤلاء حت يضحكوا علينا واعتقد انـه قـد مـات "أدح" قبل أن يسكنها.

سنة ١٩٧٩م سرت في الدائرة موظـة الحـصول عـلى رخـصة سـواقه، وكـان معنـا في القـسم مهندس عبادي اسمه عطا، ويبدو أنه كان ثرياً، فاشترى لـه أبـوه سـيارة مرسـيدس، وكـان عـدد السيارات الخاصة بالدائرة قليلاً. فقد كانت هناك سيارة للمدير العام، وشاب شركسي ثري اسـمه سامح، وشخص آخر أو اثنين لا أذكرهما. وحينما جـاء زميلنـا عطـا بالـسيارة تحركـت في اعماقنـا شهية امتلاك مثلها، وكان لا بد من الحصول على رخصة قيادة أولاً . وكان بدوي الاسمر هـو أول من تقدم وحصل عليها من المرة الثانية، وحينما تقدمت أنـا واكبنـي الفـشل حتـى المـرة الخامـسة، والسبب انني لا أستطيع أن أقوم بعمل والأخرون يراقبـون مـا افعـل. كنـت أعـرف تمامـاً كيـف احرك السيارة وامضي بها واتعامل مع الطريق بكل حذر، ألا انني حينما كنت اخرج للفحـص، إلى جواري فاحص، وفي الكرسي الخلفي فاحص، والكل يراقـب ارتبـك وارسـب ويحـدد لي موعـد جديد. إلى أن قال لي عطا ذات يوم تعال معي، كان يعرف أحد الفاحصين، شرح له حـالتي ففهـم وضعي واعطاني قرار النجاح وهو يقول: "دير بالك". واصبحت احلم بإمتلاك سيارة.

بعد شهر تقريباً اعلمني أحد الأصدقاء بأن أحـد ضـباط سـلاح الجـو الـذي يـسكن المنطقـة المقابلة للمطار لديه سيارة فوكس فاجن ١٩٧٢ م يريد بيعها وهي في حالـة جيـده لانهـا لاسـتعمال زوجته فقط، عاينت السيارة أنا وبدوي الاسمر، وقررت شراءها ولكن لم يكن معـي ثمنهـا وهـو ألف دينار دفعة واحدة. كنت قادراً على التقسيط لأنني كنـت أحـصل عـلى بعـض أثـمان مقـالاتي ومسلسلاتي من هنا وهناك، وشكوت هذا الامر إلى بدوي فقال: "لا تهتم، أنـا أدفـع لـك ثمنهـا، وانت تعطيني بالتقسيط وعلى راحتك"، وبالفعل كتب شيكاً بأسم صاحب السيارة بـالف دينـار، على أن أذهب في اليوم التالي واتسلم السيارة. ولكن سبحان الله، فقد تجمـع لـدي المبلـغ كـاملاً في نفس اليوم: أربعمائة وخمسون دينـاراً ثمـن مسلـسل إذاعـي، وثلاثمائـة دينـار بقايـا حـساب مـن مسلسل تلفزيوني، وكان معي ما يقارب المائتين فجمعت الالف ودفعتها ثمـن الـسيارة، واعـدت الشيك كما هو إلى بدوي الاسمر شاكراً فقد اثبت أنه صديق حقاً. واصبح علي بعـد أنتهـاء الـدوام أن اقود السيارة إلى البيت، فخفت، قادها بدوي واوصلها لي إلى البيت، واذكر أنه قـد تعـدى معنـا ذلك اليوم. واصبح عندي الآن سيارة، اذهب بها في الصباح إلى الـدوام، واوقفهـا في فـسحة عـلى

مدخل المطار بها عدد من الأشجار. وبعد أيام اجتاحتني رغبة بالمغامرة فوضعت الاسرة كلها بالسيارة وهبطت بها إلى البحر الميت، وفي طريق العودة توقفت السيارة في مرتفع من الطريق، ولم أكن قد تدربت على التعامل مع هذه الحالة، فلم أكن قادراً على عملية ما يسمونه التحشير بين "البنزين والبريك". إذا رفعت قدمي عن البريك رجعت السيارة، وان دست البنزين لا بد من رفع القدم عن البريك، وخافت زوجتي والأولاد، طلبت منهم أن يهبطوا ويضعوا حجراً خلف عجلات السيارة، فتوقفت واستعنت بأحد السائقين على الطريق أن يحركها إلى مكان آمن ففعل. وقالت له زوجتي شاكرة، شكراً يا أخي، يبدو ان السيارة فيها مشكلة، فضحك السائق وقال: لا يا أختي السيارة جيده، ولكن زوجك لا يعرف كيف يسوق، وضحكنا.

في تلك السنة طلب مني أن امثل الدائرة في اجتماعات المركز العربي لدراسة المناطق الجافة في دمشق. وخيرت بين السفر بالطائرة أو باص "جت" فأخترت الباص دون تردد، لأن السفر بالطائرة قد أصبح مرعباً عندي منذ عودتي من القاهرة ١٩٧٠م. ومنذ ذلك التاريخ عرضت علي عدة بعثات إلى استراليا والسويد وغيرها فرفضت خوفاً من الطائرة، أما هذه السفره فهي آمنه لأنها بواسطة البر. وفجأة تذكرت ١٩٦٦م حينما حجزت في الشام وطردت منها وقيل لي أنت ممنوع من دخول الشام، فكيف ادخلها الآن؟، تشجعت، وقلت لنفسي سوف ادخلها هذه المرة ممثلاً رسمياً لدائرة حكومية. وسافرت وشاهدت الحدود التي طردت منها، وكان هناك خوف كامن في اعماقي، هل تحميني صفتي الرسمية؟ هل هم عاجزون عن تدبيرتهم لي لو أرادوا؟ ولكنني كنت بحاجة إلى تلك الرحلة. ولو حدث ما أخافه فأن وجودي هناك سيكون مشكلة بين دولتين، ولم يحدث ما اخافه وعبرت الحدود إلى دمشق. وفي موقف الشركة كانت هناك سيارة حكومة في أنتظاري ومعها سائق، اقلتني إلى الفندق الذي سأقيم فيه، وعدت من هناك سالماً. وبعد خروجي من دمشق كانت السماء ملفعة بالغيوم، ثم سرعان ما أخذ المطر بالهطول. وفي الطريق احسست بحاجة للتبول. سألت إذا ما كان هناك حمام في الباص فلم يكن، واضطر الباص على الوقوف بركابه المائة لأهبط منها وابتعد قليلاً لأتبول، والمطر يلفح وجهي، والخوف يساورنا من خلال الخيال ماذا لو سار الباص وتركني؟ ثم جاءت دورية سورية والقت القبض علي وسألوني ماذا تفعل هنا؟، كان خوفاً طارئاً سرعان مازال حينما رأيت الباص الكبير واقفاً

بانتظاري. وصعدت إليـه، ووصـلت إلى عـمان في العـاشرة لـيلاً وكانـت الأمطـار عـلى أشـدها، وعثرت على تاكسي أوصلني إلى البيت. وأول ما فعلته هو تشغيل سيارتي الفوكس لأتأكـد فـيما أذا كانت البطارية لم تفرغ من الكهرباء فاشتغلت.

توالت أعمالي الاذاعيه والتلفزيونية، وامتـدت مـن إحـسان عماشـه إلى الاذاعـه الأردنيـه، إلى أذاعات الخليج. وتوالت أعمالي التلفزيونية، مـن الـسهرات إلى الـبرامج الدينيـة ومسلـسل اللغـز ونهاية صيف والكحتوت وأجيال. وتعددت وسـائل النـشر عنـدي في المجـلات داخـل الـوطن وخارجه، وتوثقت علاقتي بالمسؤولين في الرابطة إلى الحـد الـذي عـرض عـلي أن أترشـح للهيئـة الإدارة لإحدى الكتل. وصدرت مجموعتي الأولى، "البيت القديم"، وبعـد ذلـك بعـام أصـدرت الرابطه روايتي الثانيه اللوحة التي قدمها فواز طوقان أيضا. وفي العـام نفـسه١٩٨٢ عـرض المـدير العام علي عبندة علي أن استلم منصب رئيس الديوان فوافقت، وانتقلت إلى عالم جديد.

-١٣-

تم تعييني سنة ١٩٨٢ رئيساً للديوان. وصدرت لي كما أسلفت مجموعتان قصصيتان البيت القديم عن رابطة الكتاب والاختيار عن مكتبة شوقي معبدي. كما صدرت روايتي الثانيه اللوحه عن رابطة الكتاب سنة ١٩٨٢. ولعل أهم نقله في هذه المرحله هي تعييني رئيساً للديوان وانتقالي إلى العمل الاداري الذي اصبحت بموجبه مسؤولاً مباشراً عن السجل والطباعة والأذنة والسائقين والمقسم، وهذه نظرة انطباعيه إلى الصورة كما طالعتها لأول مرة: الديوان في الطابق الثاني، المكون من عدد من المكاتب، يشغل الأول عند المدخل الحاج متقال نائب المدير لأقدميته، لا يتمتع باية مواهب أداريه متميزة، كاره لغيره، محب للضرر، يقوم بجولات خارجيه على المحطات ليلتقط خطأً أو تقصيراً ما ليعاقب صاحبه. ابتسامته ماكره ليّنه، في نبراته تهديد ووعيد. لم يكن أحد في القسم الإداري أو الطابق الإداري كما يسمونه يرتاح إليه. بلغ الستين منذ أكثر من عشر سنوات وفي كل مره يجدد شهادة الميلاد ليبقى في العمل. أما المكتب المجاور له فهو لرئيس الديوان، والذي يليه لرئيس شؤون الموظفين محمود الشروف وهو –آنذاك –شاب طويل نحيل يشبه الممثل عزت العلايلي مع الفارق. في وجهه مكر ولؤم مغطيان بابتسامه عند اللزوم، كثير الحركه، فاهم لعمله، كثير المشاكسات مع الموظفين في مجالات الترفيع والتقارير السنويه والاجازات السنوية وغيرها. له مساعده اسمها هناء عقيل في الحجرة المقابلة. سيدة فاضله مهذبنه تقوم بعملها خير قيام وهي بالمناسبة زوجة لزميل لنا في جمعية وادي العرب الخيرية يشغل ألان وظيفة محافظ هو فواز ارشيدات. وفي الواجهة حجرة واسعة بها السجل والملفات تشرف عليه فتاه اسمها "نهيل سويلم" ومعها شاب "على البركة" اسمه فاروق أبو زياد وفي المقابل على الجهة الأخرى من هذه المكاتب يقوم مكتب الطابعات المجاور لدورة المياه. أما في الصدر عند الانتهاء من السلم المؤدي إلى الطابق الثاني فهناك مكتب المدير العام الذي يتقدمه مكتب السكرتيرة، التي كانت آنذاك غادة عطا الله وإلى اليمين عند العبور إلى الطابق يقوم مكتب نائب المدير.

رحب الموظفون والموظفات بي. أحسست أنهم كانوا فرحين باستلامي هذا المنصب ماعدا الحاج متقال نائب المدير. كان يريد أن يبقى وحده المهيمن في الطابق الإداري. رحب بي على مضض وراح يصدر لي تعليمات تتعلق بعملي فقاطعته وقلت: "أعرف كل شيء"، تعرفت إلى موظفاتي وكنّ ثلاثة في الطباعة وواحدة في السجل. استدعيت نهيل سويلم وبدأت أتعرف على الخطوط الاساسيه للعمل. كانت نهيل هي نقطة الارتكاز التي أحتاج إليها، وبدأت العمل كرئيس يتعامل مع الخطوط العريضه تاركاً الجزئيات للمتخصصين. فلم أكن على سبيل المثال أتدخل في خطأ طباعي من أحدى الطابعات، ولا أعرف تفاصيل ملف في السجل، ولاعن عطل في أحد باصات الدائره بوجود الميكانيكي محمد عبده. وأتوقف قليلاً عند محمد عبده، هو أبن المطرب الأردني المشهور عبده موسى. عين في الدائره كميكانيكي لإصلاح الاعطال الأولية للسيارات، ولكنه كان يعمل في الوقت نفسه سائقاً للمدير العام. كان سلساً حلو اللسان حسن الخلق طيب المعشر، قادر على جعل من حوله يحبه ويقتنع بما يقول. قبل أن يصبح سائقاً للمدير العام كنت أحمله في طريقي إلى دوامه، فأصبح يحبني كثيراً وحينما أصبحت مسؤولاً عنه كان يشكو لي أن المدير يظلمه، لانه مصر على إن يكون سائقه الخاص رغم وجود أخرين على قرب أكثر من دار المدير، فلماذا يذهب به إلى هناك ثم يضطره إلى البحث عن مواصله تذهب به إلى بيته في شارع مادبا؟، كان أذا حدث خلل في سيارة يأتي ويسألني: هل أصلحها أم أدعهم يذهبون بها إلى الكراج ويخسروا عشرة دنانير؟ مرني؟ كنت أقول له أصلحها يا محمد، المعامله مع الله. ومن نوادره كذلك أنه كان يركب معي في سيارة الفوكس فاجن ومعي زميل أخر تجادلت معه وهو يجلس إلى جواري وقلت له فيما قلت: صحيح أنك نوري، ولم أكن أعرف إن محمد عبده في الكرسي الخلفي فقال ضاحكاً: "هيك أنت أجيت فينا يا ابو كمال" ومن نوادره أيضاً كان حينما يرتكب ذنباً يطلب مني المدير العام معاقبته، ويقول: لا تدعوه يدخل الي، لأنه لو دخل الي وجادلني لا أقنعني انه غير مذنب، وأعاقبه أنا بطريقه لا عقاب فيها.

وقد أجريت من خلال منهجيتي في العمل ترتيبات داخليه للموظفين العاملين تحت اشرافي، فجعلت للسائقين أقدمهم وهو عبد القادر الرفاعي كبيراً واسميته كبير السائقين لينظم أمورهم. وللأذنه كبيراً وهو أبو فتحي لذي كان يعمل كذلك في جمعية وادي العرب. وللطابعات كبيرة وهي مها فينو أقدمهن. وللسجل كبيرة لا ينازعها احد هي نهيل سويلم. وكان عملي

أشرافياً مرجعياً وكان مكتبي مضافه يتجمع فيها الأصدقاء بعد انجاز عملهم ومنهم: محمود الشروف، ومنصور سليحات وعبد الرحمن أبو أنصير، وبعد ذلك أنضم ألينا زياد المجالي ونبيل كفاوين، واضحينا لا نشعر بمرور الزمن. كانت أصوات ضحكاتنا تصل إلى مكتب المدير العام فيأتي هو الأخر فيجلس معنا أو يدعونا إلى مكتبه ويقول: "تعالوا عندي أوسع ". كنا كاسرة نعمل ونسعد نتفقد بعضنا أذا غاب أحدنا، وقد افتقدنا زميلنا بدوي الأسمر الذي توفي أثر مرض عضال فلفنا الحزن عليه اياماً طويله.

لم انقطع عن الدوام في محطة وادي الضليل التي أحببتها كثيراً، كان النظام يسمح بالدوام الجزئي للموظفين في مكان أخر غير مكان عملهم، فكنت منذ أنتقالى إلى مركز الدائرة أذهب إليه ليله في الأسبوع لتغطية دوام هناك مقابل علاوة أضافية. وحتى بعد إن أصبحت رئيساً لديوان لم انقطع عن الدوام هناك. وكنت أذهب أحياناً مع أسرتي بأكملها، وكان ابني الأكبر قد بلغ الخامسة عشرة وتولع في سواقة السيارة، فيطلب مني أن أسمح له بقيادتها في مسارب المحطه الخاليه من الناس. فاسمح له ولكن بحذر شديد. ثم نعود إلى عمان في اليوم التالي. في هذه الفترة كذلك كثرت ترddاتي على جمعية وادي العرب، وهي جمعية خاصة بأهل الشمال أسسها وظل رئيساً لها مدى الحياة علي عبندة. وكان فيها مجموعه من نشطاء العمل التطوعي بينهم: عبد الله الخطيب وفواز أرشيدات واحمد طبيشات وآخرين. وكان أبو فتحي هو العامل فيها. كانوا يلعبون طاولة الزهر ويتنافسون على الفوز فيها من خلال تسليه بريئة، وكان فيها طاوله للعب كرة الطاولة التي أتقنتها في دير علا،كنت العب مع الآخرين ونشرب الشاي ونسهر حتى الثامنة مساءً ثم نعود إلى بيوتنا. وكنت أقوم ببعض النشاطات الثقافية للجمعية منها أحياء أمسيات ثقافيه ومحاضرات سياسيه، وقد قامت الجمعية بطباعة الجزء الأول من كتابي أشواك لا تدمي القدمين سنة١٩٨٤ على نفقتها الخاصة. وهو مجموعة مقالات مختاره مما كنت أكتبه في الصحف، وقد قدم له الكاتب الصديق إبراهيم العجلوني. وقد قمت بطباعة الجزء الثاني بعدها بسنوات، عن دار الكرمل وقدم له الكاتب خليل السواحري. وكانت الجمعيه تقوم بأحياء حفل سنوي يدعى إليه الاعضاء، وتجري من خلاله مزادات هي في الواقع تبرع من الميسورين للجمعيه.وكنت أنا وزوجتي نحضر هذه الحفلات التي كان يدعى إلى الغناء فيها مطربون من أمثال توفيق النمري وفؤاد حجازي وعايدة أبو جوده التي اقترحها كما أذكر عبد الله الخطيب الذي قال مازحاً: دعوني

نغير فقد أهلكنا أبو صالح "يعني توفيق النمري" بأغنيته "مشنشل بارباع". لم أكن اتردد كثيراً على رابطة الكتاب، ولكنني أستطعت أن أتعرف على عدد كبير من أعضائها: بعضهم أصبح صديقاً لي ومنهم: محمد المشايخ وخليل السواحري وإبراهيم العبسي ومحمد سمحان وهاني العمد وآخرين. كما تعرفت مجرد تعارف على آخرين مثل محمد طمليه وعلي فوده ومحمد داوديه وآخرين أيضاً، من طرائف خليل السواحري انه كان قد دعي معي إلى برنامج ثقافي في الاذاعة لمناقشة وتحليل روايتي "الصديقان". وبدأ خليل يتحدث عن الرواية والثغرات التي بها، والجوانب السلبيه التي لا يخلو منها عمل أدبي، إلى أن أنتهى وقت البرنامج. وحين أنتهى الوقت قال: لو لم ينتهِ البرنامج لأسهبت في ذكر الايجابيات العديدة التي تشكل الرواية.

خلال هذه الفتره تأسست دائرة الثقافة والفنون في جبل اللويبده، هذا الجبل الذي أصبح يحمل على سطحه العديد من المؤسسات الثقافية منها: رابطة الكتاب، ورابطة الفنانين ومكتبة الشريعة والمسرح الأردني ودائرة الثقافة والفنون. كما أن جميع الشوارع تحمل أسماء ثقافيه: فمن شارع إبراهيم طوقان إلى شارع أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم. في دائرة الثقافة والفنون بدأت مع مجلة أفكار، وكان أول رئيس لتحريرها هو محمود سيف الدين الايراني. تعرفت إليه هذه المرة بشكل أفضل مما قابلته في البيت قبل عشرين عاماً: رأس مدبب صغير وعينان تبرقان من وراء نظارتين صغيرتين، وشعر أو بقايا شعر مصفف بعنايه. كان يشكل لنا حاله ثقافيه متقدمه، وكانت مجرد مقابلته تعني نقلة نوعية وحدثاً فريداً. وأذكر أن مدير دائرة الثقافه والفنون كان الشاعر عبد الرحيم عمر، وجاء بعده حيدر محمود على ما أذكر. وحينما مات الايراني تولى رئاسة تحريرها الدكتور حسين جمعه القادم من الاتحاد السوفياتي بشهادة الدكتوراة ولكنه سرعان ما تنحى عنها بسبب أفكاره الاشتراكية، فتسلمها إبراهيم العجلوني وهكذا. أذكر أنني في تلك المرحلة كنت شديد الحماس للقضية الثقافية، وشديد الإصرار على أن أثبت وجودي في ساحتها. فتعرفت إلى عيسى الناعوري وكان موظفاً كبيراً في وزارة التربية والتعليم، لا أدري فيما تحدثت إليه ولكنه عاملني بما يشبه الإهمال. ولم تطل المقابلة، فخرجت ولم أعد. وتوطدت علاقتي مع فواز طوقان الذي قدم روايتي الثانية اللوحه الصادرة سنة ١٩٨٢ عن الرابطة، كما أتاح لي إن أتحدث في أنتاجي الأدبي أمام طلبه في مجالي الرواية والقصة القصيرة. وأصبحنا أصدقاء. وأزوره في البيت بإسكان الجامعة. وكنا نهبط الدرج إلى مكتبته الزاخرة بأمهات الكتب والتي تحتل ساحة

كاملة في مستودع أو ملجأ أسفل البيت. كما تعرفت ذات يوم على والده أحمد طوقان رئيس الوزراء السابق في بيته المستأجر بأحد أحياء عمان مما يدل على نزاهته. وقد كنا نجلس ذات يوم في منزل الوالد فجاء وسلم علينا وقال لفواز: أكرم ضيوفك يا فواز، فرد فواز مداعباً لن أقصر يا والدي وسأذبح لهم سيارتي الستروين أذا رغبوا، تيمناً بحاتم الطائي الذي ذبح فرسه لضيوفه وضحكنا.

في هذه الفترة كذلك صدر الجزء الثاني من كتابي "أشواك لا تدمي القدمين" عن دار الكرمل وقدم له صاحب الدار خليل السواحري. وقد بدأت منذ سنة ١٩٨٣ توثيق مقالاتي المنشوره في جريدة الرأي وكان أولها موضوع بعنوان: "الأمسيات القصصية"،كتبته من وحي التدفق المتواصل للأمسيات من قبل كتاب القصة، في النوادي والمدارس والكليات والجمعيات والجامعات. وكان المقال قد نشر في ٢٥\١١\١٩٨٣. وكذلك بدأت سنة ١٩٨٤. توثيق ما كتبته في صحيفة الدستور عن توماس كارليل نشر في ٧\٢\١٩٨٤. وقد توالت مقالاتي في الدستور عن كارليل وبودلير واوجست ستراندبيرغ ورينان وتوماس هاردي وهوميروس. كما أكثرت من نشر القراءات الانطباعية لإعمال عدد من الأدباء الأصدقاء منهم عبد الله منصور محمد الظاهر وهيام رمزي. وفي سنوات تاليه كتبت عن أبن رشيد القيرواني و بلزاك و المنفلوطي وشكسبير ومارجريت ميتشيل وقصتها الخالدة ذهب مع الريح. كما كتبت عن كوميديا موليير الانسانيه وتشيكوف وشارلز ديكنز والطيب صالح وأخرين. وقلما كان يهدى إلي كتاب ولا أكتب عنه فكتبت عن مجموعة الطرنيب سلباً لخالد محادين وعن ديوان لحيدر محمود ومحمود فضيل التل ومؤنس الرزاز ومنيرة شريح وجمال ناجي وأخرين، كما كتبت في عدد من الإطلالات التاريخية العربية منها أبي حيان التوحيدي وأبن رشيد القيرواني والشاعر ديك الجن الحمصي وأبن قتيبه الدينوري وأبن جبير وأبن النفيس. كما كتبت نقداً عن قصائد ومسلسلات بدويه ومسرحيات وإعمال تلفزيونيه عديدة.

تعرفت في أوائل الثمانينات على زميل جديد في العمل هو نبيل كفاوين كان في بعثه في الخارج، وحينما عاد سرعان ما أصبح صديقاً حميماً، وسرعان ما أصبح كذلك من أعضاء شلتنا. كنت أقف وإياه ذات يوم نطل من شباك مكتبي على الشارع، فشاهدت سيارة مازدا بدت فخمه وكبيرة تقف أمام الدائرة فقال هذه لي، سألني عن سياراتي فقلت أنها فوكس سنة ١٩٧٢،فقلت:

- وأنت؟

- مازدا سنة ١٩٨٠.

قلت مازحاً:

هل تبدل؟

- كم تدفع زيادة؟،

وسرعان ما اتفقنا، يأخذ سيارتي الفوكس وفوقها إلف دينار ويعطيني المازدا. وتحول المزاح إلى جد، وتبادلنا السيارات، وأصبح عندي سيارة حديثه عمرها خمس سنوات. فقد كتبنا صك الاتفاق في الدائرة بتاريخ ٣١\١٢\١٩٨٥ وشهد عليه زملاء منهم المرحوم بدوي الأسمر. ولكنني لم أشعر إن السيارة كانت حديثه، كانت كثيراً ما تتعطل ربما لقلة معرفتي بالتعامل معها. وقد تعطلت بنا ذات يوم في منطقة جرش وسحبتها بالحبال ليلاً إلى عمان، فأصبحنا نطلق عليها تندرا "أم الحبال" وقد عاشت عندي أم الحبال ربع قرن كامل. أما سيارتي الفوكس فقد انقلبت ذات يوم بنبيل وأسرته على طريق الكرك، ولكن ستر الله كان إليهم أسرع وسلموا.

سنة ١٩٨٧ كانت وبالاً على رابطة الكتاب الأردنيين. إذ صدر قرار إغلاقها من وزير الإعلام عشية الانتخابات. وقد اختلفت الآراء الحقيقية لإغلاقها، فقد قال البعض أن السبب هو التوجه الوطني للرابطة وتاريخها النضالي. وقال آخرون أن تغّول الحزبية السياسية التي كانت ممنوعة آنذاك هي السبب. وقال آخرون إن الرابطة تحولت إلى منظمات حزبيه مصغره إذ أن أنتخاباتها كانت تقوم على أسس فضائليه، هذا مرشح فتح، وهذا مرشح الشعبية، وذاك للديمقراطية، والآخر لهذه الجهة أو تلك. وهذا الحزب اليساري أو ذاك. وذهب آخرون إلى القول أن الاغلاق يعود لأسباب أخرى واختلفت التفاصيل عن سبب الاغلاق. المهم أنها قد أغلقت، وتنادى عدد من اعضائها إلى الدعوة لسد الفراغ الناشئ عن إغلاقها، ويتبنى هذه المسألة عدد من المتحمسين لفكرة اتحاد كتاب بديل ومنهم الشاعر حيدر محمود وضياء الدين الرفاعي ورو كس العزيزي وحسني فريز وسليمان الموسى وهاني العمد وعلى محافظه وأنا. وقام اتحاد الكتاب والأدباء الأردنيين سنة ١٩٨٧ وعقد اجتماعه الأول في مبنى الرابطة، وتم أنتخاب الدكتور هاني العمد كأول رئيس لهذا الاتحاد، وبعد شهريين تقريباً تم استئجار مبنى خاص به في منطقة الشميساني. تلك السنة صدرت عن دائرة الثقافة والفنون مجموعتي القصصية الثالثة ورده في الخريف.

لم أكن أتردد كثيراً على الرابطة إلا في مناسبات نادرة، ولكن الأمر قد اختلف بالنسبة للاتحاد، فقد كنت من مؤسسيه، ومن المتحمسيين لدوره في إثراء الحركة الثقافية وملء الفراغ الذي تركته الرابطة. أن قيام الاتحاد هو عملية كسر عظم بالنسبة للرابطه التي أحبها وأصدرت لي كتابيين عدا عن الكتيب المشترك. وقبلتني بين أعضاءها دون تقديم أية وثيقة. ولكنني كنت أرى الاتحاد مكملاً لدورها في جمع المتخصصين والمتعاملين مع القلم والحفاظ على حقوقهم، إلى الحد الذي عجبت فيه من باقي أعضاء الرابطة ليترددهم في الانضمام إليه.

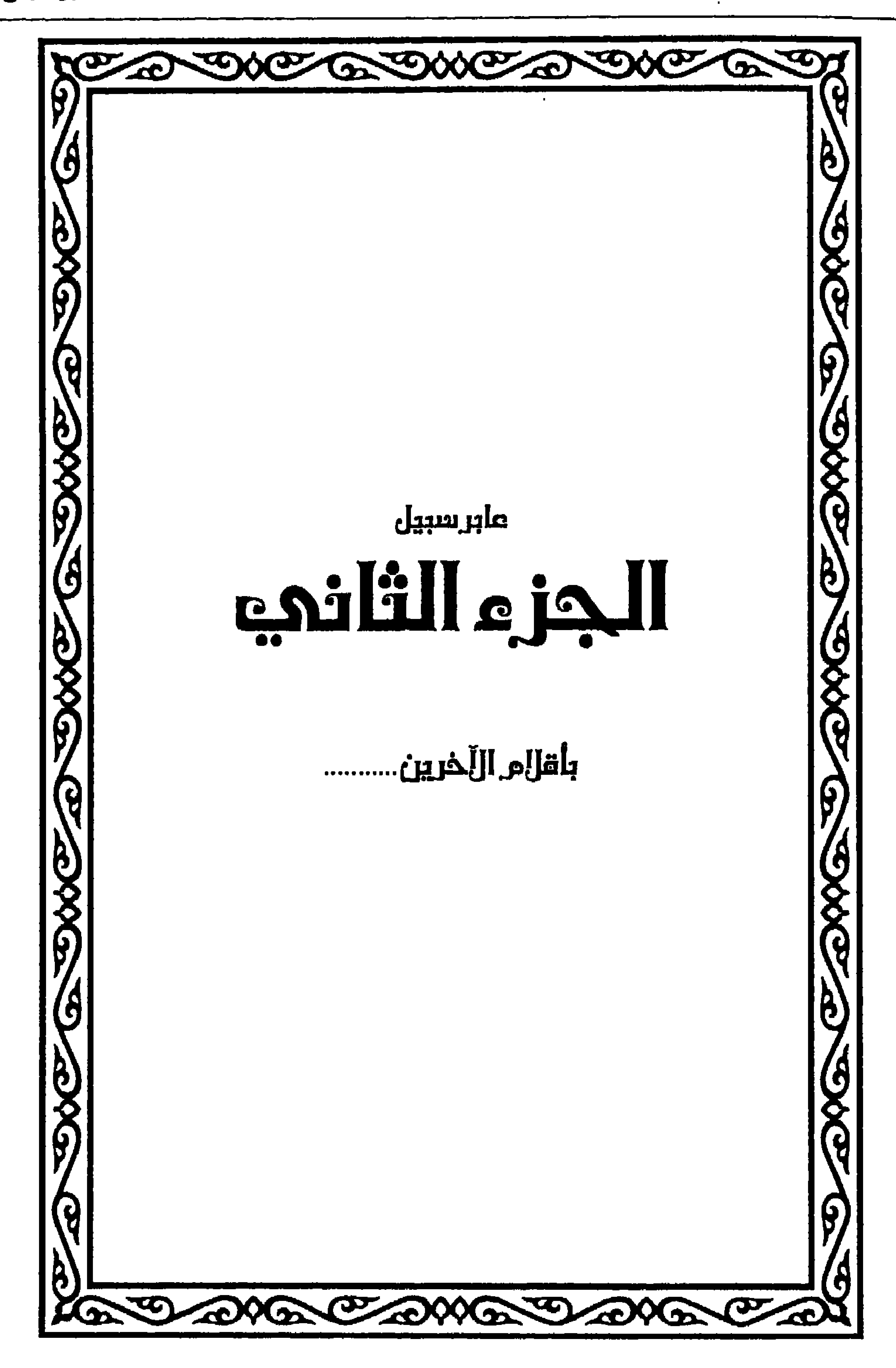
كانت قصصي القصيرة ورواياتي قد أنتشرت في المجلات والصحف العربية والمحلية، وكان بعضها يذاع من إذاعة الـB.B.C وينشر في دوريات خارج الوطن دون إن أرسل بها إلى هناك، أصبحت اسماً يشار إليه بالبنان ورقماً صعباً في اتحاد الكتاب. فلطالما رافقت حسني فريز وروكس العزيزي والدكتور هاني العمد إلى مقابلات لعدد من رؤساء الوزارات، رغم إنني لم أكن من الهيئة الاداريه. وقد دفعني هذا النجاح إلى التفكير بالكتابة للأطفال، هذا المجال الذي طالما تهيبته لأنني أعرف مدى المسؤوليه المترتبة على من يكتب للطفل. الذي هو أمل المستقبل وشكله الأتي. الكتابة للطفل تحتاج إلى لغة سهله وبسيطة ولكنها واقعيه وغير مسطحه، وهذه معادله صعبه لا يستطيع الكثيرون إتقانها. فعبرت متهيباً إلى هذا العالم، وكتبت أولى قصصي القصيرة للأطفال تحت عنوان: "تفاحة ادم"، وقد نشرت القصة في جريدة الرأي بتاريخ ١١\٣\١٩٨٨. وتوالت القصص إلى إن صدرت لي أول مجموعه للأطفال عن دائرة الثقافة والفنون سنة ١٩٨٩ تحت عنوان " تفاحة ادم". وتوالت القصص والمجموعات حتى بلغت أكثر من عشر مجموعات صدرت أخرها عن مكتبة الاسره لعام ٢٠٠٩م وطبع منها خمسة ألاف نسخه نفدت كلها وهي تحمل عنوان "الديك الفصيح".

وأعود إلى عملي في دائرة الأرصاد الجوية، حيث تعددت مسؤلياتي فقد عينيت بالاضافه إلى رئاسة الديوان رئيساً لقسم اسمه العلاقات العامة والإعلام. ثم رئاسة القسم الإداري كاملاً. إلا إن جهودي الاساسيه كانت منصبه على هوايتي في الكتابة، فقد تعددت هذه الكتابات للإذاعة والتلفزيون والمسرح والصحف المحلية والعربية والمناهج المدرسية والأطفال. كما تعددت الندوات التي كنت أدعى إليها في المدارس الخاصة، وأذكر إن إحدى المدارس الكبرى في عمان قد

وضعت لافتة ترحيب بي على طول الشارع المؤدي إلى المدرسة. كما أصبحت أمين سر الرابطة الوطنية لتربية وتعليم الأطفال. وبدأت استمع إلى احتجاجات داخل منطقة العمل، ويطلعني رئيس شؤون الموظفين على كتب رسميه تمنع الموظف من الحصول على أية مكافآت ماليه خارج نطاق وظيفته. ففكرت بطلب الاحاله إلى التقاعد وقد تقدمت بهذا الطلب إلى الدكتور علي عبندة الذي استمهلني وقال لي انه يعدني لمنصب آخر وهو منصب نائب المدير العام. وفقد كان الحاج متقال قد تقاعد بعد إن استنفد كل التمديدات للتقليل من سنوات عمره. ولكنني كنت مصراً على الطلب إلى الحد الذي أرسلت مع صديقي رئيس شؤون الموظفين إلى المدير ليقول له بأنني أصبحت بغير فائدة للدائرة نظراً لإنشغالي بأموري الخاصة. وأخيراً وافق المدير العام علي عبندة على إحالتي إلى التقاعد اعتبار من ١٩٩٠/٨/١. وأقيم لي حفل وداع حضره معظم موظفي الدائرة. وأذكر إن بعضهم قد بكى حزناً على تركي للعمل، وأصبحت حراً من الوظيفه، وطلبت من ناشر خبر تقاعدي في جريدة الرأي أن يعلن عن أحالتي إلى التقاعد بناء على طلبي الملح لكي لا يقال إنني قد اقلت لأي سبب من الأسباب لا سمح الله.

وبعد تقاعدي مباشرة عرضت علي مجموعه من الإعمال منها مدير مطبعه تجاريه، ومنها العمل في مركز هيا الثقافي فقبلت العمل إذ كان مدير المركز نبيل صوالحه هو احد أصدقائي، وبطل مسلسلي الشهير" الكحتوت". وعملت هناك بضعة أشهر واسست قسماً ثقافياً في المركز صدرت عنه مجله اسمها "صديق الأستاذ" ثم سرعان ما اختلفنا فتركت المركز، وعدت إلى الكتب لأهنأ بلذة التقاعد والعمل بحريه في هوايتي ورحلتي مع القلم. وفي هذه السنة صدرت مجموعتي القصصية الاخيره "مسافات" عن دار النسر للنشر والتوزيع وضمنها اشاره بوداع القصة القصيرة والتفرغ للرواية والمقالة والكتابة الدرامية للأطفال والاذاعه والتلفزيون.

وفي هذه السنة أكون قد بلغت الخمسين من العمر حسب تقرير السن الذي احمله. وهنا أتوقف عن كتابة المذكرات، لأترك ما تبقى من العمر أن كان طويلاً أم قصراً لرواية ذاتيه أخرى ربما تحمل اسماً اخر.



عابر سبيل

الجزء الثاني

بأقلام الآخرين...........

الغزو وبيته القديم
قراءة في مجموعته القصصية[1]

بقلم: د. سامي حريز

كثير هم أولئك الذين يكتبون، ولكن القليل منهم الذي تراه مبدعاً في كتابته، والأقل منهم الذي تراه أستاذاً في الإبداع، ونستطيع أن نقول عنه محترفاً، والأندر منهم الذي تراه مبدعاً محترفاً وبات علماً وقدوة لمن بعده من الكُتّاب والأدباء.

من هؤلاء يظهر لنا المبدع المحترف العَلَم الأستاذ يوسف الغزو، الأديب القصصي الروائي المعروف، الذي وُلِدَ في عجلون عام ١٩٤٥م، والذي هو من أوائل أعضاء رابطة الكَتّاب والأدباء الأردنين، وعضو مؤسس في اتحاد الكُتّاب والأدباء الأردنيين، والحائز على العديد من الأوسمة والجوائز الأدبية، وقد أُختيرت بعض قصصه ورواياته مواداً مقررة في المناهج المدرسية والجامعية، كما عُرضت بعض أعماله الإبداعية من مسلسلات ومسرحيات في التلفزيون الأردني. والجدير بالذكر أيضاً بأنّ مسيرته الأدبية الحافلة بالعطاء أُختيرت لتكون بحثاً للتخرج عند عدد كبير من طلاب اللغة العربية في جامعة مؤتة.

ويكفيني فخراً بزمالته في ظل الصرح الثقافي المُسمّى بـ "اتحاد الكُتّاب والأدباء الأردنيين".

أبهرتني تلك المجموعة القصصية الرائعة التي أهداني إيّاها، وعنوانها: البيت القديم، وهي صادرة عن رابطة الكُتّاب الأردنيين عام ١٩٨٢م.

ومن خلال هذه المجموعة تظهر لي شخصية هذا الكاتب المبدع، والتي هي مليئة بالخُلق النبيل والرفيع، ونرى الحَرَفِيَّة برمتها فيما سطّره من الأفكار بأسلوب سلس ومُيسَّر.

(١) نشر المقال في مجلة الكاتب الأردني.

فهو بحق استحقَّ بأن يكون علَماً للكُتّاب الشباب من بعده، وإنني أراه دائماً يأخذ بأيدي الشباب من كُتّاب وأدباء وشعراء، فهو خير معين لهم، وبنفس الوقت أراه في قمّة التواضع، وترى الأمل في عينيه، وهو الأمر الذي يجعله في حيوية الشباب رغم تقدم السن العمري.

يبدأ مجموعته القصصية المبهرة بـ "الكذبة" التي نرى فيها مدى صدق حبِّه لأبيه، وهي التي جعلت وجه والده ينطلق بالبِشر كتفتح الوردة عن أكمام الزهر، والتي يريد أن يوصلنا من خلالها بأنّ الحزن من السهل جداً أن يرحل عن الإنسان، فالحمد لله على نعمة النسيان.

ثم يُثنِّي قصصه بـ "زهرة النرجس"، ويتبعها بـ "هذا من فضل ربّي"، ثم "أنا وابني" والتي من خلالها يتجسّد لنا خُلق الابن "توفيق" البار بوالده، والذي كان قطعة من اللحم الكريه، -كما يذكر والده، ولكن في النهاية لا غنى للوالد عن ابنه.

ثم تأتي قصة "أنغام الحب"، وبعدها "الثمن"، ثم "صوت العدالة" ويا لها من قصة مؤثرة في زمن بَعُدَ فيه صوت العدالة.

ثم يأتي دور القصة التي حملت عنوان الكتاب وهي: "البيت القديم"، والتي من خلالها يُعيدنا إلى الزمن الجميل، الذي لا يصدق عليه مقولة "قديمك نديمك"، فأجمل ما في هذه الحياة هو الذكريات الطيِّبة التي يمر فيها الإنسان وخصوصاً في مراحل طفولته، فهذه الذكريات لا يُساويها أيُّ ثمن، وهي في الحقيقة رأس مال للإنسان في هذه الحياة، وهي كفيلة بأن تجعله في تفاؤل دائم وسعادة متجددة، فالبيت القديم عنوان للعطاء والتجدد، والحب والتضحية، ومنه ينبع حب الأرض والوطن؛ لأنه أولاً وأخيراً مسقط الرأس، ومن ليس له ماضياً فلا حاضر له.

وبعد ذلك يمتعنا الكاتب على التوالي بقصصه" مرزوق والآلة" كنهاية لمطاف المجموعة، والتي نرى فيها بوضوح- كشأن غيرها- صرامة الكلمات وجزالة الألفاظ وعذوبة المعاني وروعة الأسلوب ودقّة الأداء. فهذه القصة بالذّات تجعل القارئ لا يتركها حتى يُنهيها، ونلحظ حنكة القاص في اختياره للاسم المبرمج في أحداثها، فمرزوق ابٌ لعشرة اطفال، وهو يبيع التذاكر في الباصات، وهذا عمله منذ أمد، ووسيلته الوحيدة لتحصيل لقمة العيش، ولكن ستأتي آلة التذاكر؛ الأمر الذي يستدعي الاستغناء عن خدماته، فأصبحت نظراته لهذه الآلة تُسبب له الحسرة والألم، ولكن هناك آلة أخرى تنتظره في علم الغيب؛ ليشع بيته سروراً. وبذلك يريد أن

يوصلنا القاص إلى حقيقة حتمية مفادها بأنّ" الرزق على اللهّ يا مرزوق"، فعلام الهم يا من تخافون على أرزاقكم؟!

هكذا يَبدأ قاصنا المبدع وهكذا يُنهي، لتبدو حُلّته القصصية كعُقد جوهري فريد من نوعه، أخذنا معه من عالم إلى لآخر، ونحن مفعمين بالسعادة بلا كلل أو ملل.

أدعو لهذه الأنامل التي سطّرت ذلك الإبداع أن تبقى معطاءة متجددة، تحمل بين طيّاتها روح الشباب، كما عرفناها، وعرفنا صاحبها العَلَم.

قراءة في قصة "الإختيار"
للقاص يوسف الغزو

بقلم: محمد المشايخ[1]

تُذكرنا هذه القصة، المنشورة في عمان عام ١٩٨١م، ضمن مجموعة تحمل اسمها، بانّ مؤلفها القاص" يوسف الغزو"، هو صلة الوصل بين جيلين من المبدعين الأردنيين، جيل الروّادالشيوخ التقليدين، وجيل الكتّاب الشباب المحدثين، وأن له اسما كبيراً في الأوساط الأدبية الأردنية، يوازي اسم" عزيزنسين" في الأدب التركي، فكلاهما، دون ان يكون لأي منهما علاقة بأدب الآخر، من أبرز الأدباء السبّاقين للولوج لعالم الكادحين في القاعدة الشعبية، لا لوصف حالتهم فحسب بل لجعلها تأخذ الصدارة ة والأولوية، ولتُسلط عليها الأضواء التي تستحقها من قبل الأجهزة الحكومية والشعبية المعنية، وهو أيضاً من أبرز رواد كُتّاب الدراما الإذاعية والتلفزيونية في المملكة، ويختلف عن غيره من المبدعين في هذا المجال فهو الذي يكتب نصه وهو الذي يحيله إلىالمادة الدرامية، بعكس الكُتّاب الآخرين الذين يكتبون النص، ويحتاجون لمن يقوم بإحالته إلى سيناريو، كما أن هذا القاص يحظى بتقدير نقدي خارج المملكة يساوي أضعاف ما يحظى به في داخلها، فقصصه يُعاد نشرها في الصحف والمجلات العربية، بل إن وزارة الثقافة الفلسطينية، اعتمدت إحدى قصصه، وهي بعنوان" عطر من الماضي" ليتم تدريسها ضمن منهاج الصف التاسع الإبتدائي في فلسطين.

---

(١) محمد المشايخ: من مواليد الكرامة" محافظة البلقاء" عام ١٩٥٣، حاصل على بكالوريس في اللغة العربية وآدابها من الجامعة الأردنية عام ١٩٧٧، عضو رابطة الكتاب الأردنيين ومديرها الإداري خلال السنوات ١٩٧٧-٢٠٠٦، يعمل مديرا لمكتب مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري الكويتية في الأردن منذ عام ٢٠٠٦، صدر له (١٤) كتابا منفردا، وشارك في تأليف(٢٤) كتابا.

وبالعودة لقصته" الإختيار" فإنها تتلخص في معاناة أم فقدت إبنها الأكبر بعد تعرّضه لضربة شمس، فقررت حرمان طفليها الآخرين من رؤية الشمس كي لا يموتا بسبب ضرباتها، غير أنهما نتيجة هذا الحرمان أصيبا بمرض رئوي كاد يجعلها تفقدهما أيضا، وكانت نصيحة الطبيب لها أن تختار بين أن يتعرضا للشمس ويستأنفا حياتهما الطبيعية، أو بين أن يبقيا في الظلام الدامس حتى الموت.

وتكمن أهمية هذه القصة، في معالجتها لقضية تندرج في إطار الأدب الإنساني، فهي ليست قصة محلية أو قومية، إنها قصة البشرية بعامة، وهي أيضاً تعالج مسألة تجدد الحياة، باعتبار هذه القصة شغلت البشرية منذ فجر التاريخ، وضمن المستويات الأممية نفسها، نجد أن هذه القصة تعالج العلاقة بين الإنسان وعناصر الطبيعة بعامة، والشمس بخاصة، إذ ثمة من عبدوا الشمس في الماضي، من يرون فيها رمزا للحرية في الحاضر. وبالتالي فإن وضع الإنسان المعاصر في مواجهة مع الموت من أجل ضمان تجدد الحياة، ووضع الإنسان نفسه في مواجهته مع القيود من أجل ضمان تجدد الحرية، يُعتبر من أهم القضايا التي يعالجها المفكرون التنويريون في عالمنا حاليا، وقد سبقهم لمعالجتها عبر الأدب قبلهم بعقود القاص يوسف الغزو.

وقد بلغت الحنكة القصصية عند الغزو درجة جعلت قصته تتماهى بين أدب الأطفال، وأدب الكبار، فهي تحظى بالقبول والاحترام لدى هذين الطرفين.

وعدا عن رقة وسلاسة ألفاظها فحسب، فإن أسلوبها يندرج في إطار"السهل الممتنع".

وهي أيضاً من أهم القصص التي تتحدث عن المرأة في القصة الأردنية، وخاصة في ظل الغياب القسري لنصفها الآخر: الزوج/ الأب، وتعرض لها بصورتها السلبية، والتي تتطور مع الأحداث لتصبح إيجابية بتوجيه من الرجل، الذي مثله في القصة" الطبيب"، وهذا يعني إيمان القاص بالتكامل بين الرجل والمرأة على عكس كثيرين غيره من الأدباء الذين يتحدثون عنهما وهما في حالة صراع وتناقض وخلاف.

كما تعرض لضحايا الفقر والمرض في مراحل الطفولة والشباب والشيخوخة،

ولولا فهم القاص يوسف الغزو للقصة السيكولوجية ومراميها النفسية، لما استطاع عبر قصته هذه من إنقاذ أسرة بأكملها من براثن الموت.

ولولا مطالعته وقدرته على كتابة قصة" الواقعية الإشتراكية" نتيجة لإطلاعه على الأدب العالمي بعامة، والروسي بخاصة، لما جعل الأسرة الصغيرة، تُصبح جزءاً متفاعلا مع المجتمع الكبير، فيعمل على إنقاذها في الوقت المناسب.

وتُعتبر قصة" الإختيار" خير نموذج على القصص التي تتكيء على المونولوجات الداخلية، ويقوم" اللسان المبلوع" فيها بدور تعويضي كبير، لما لم يتم عرضه على أرض الواقع.

ونشير هنا، إلى الاستفادة المبكرة للقاص يوسف الغزو، من تقنية الفلاش باك، فقد استطاع عبر هذه التقنية أن يجعل قصته الواحدة هذه: قصة داخل قصة، وتحديداً بعد قوله عبر سرده القصصي:" نظرت نحو سرير همّا فارتدت بها الذاكرة إلى الوراء"، لتمضي في عرض قصة سابقة للقصة التي تعيش مأساتها في اللحظة الراهنة.

وقد استفاد كاتبها من خبرته الدرامية، إذ جعل القصة صالحة على مدى الأزمان، كي تتحول إلى سيناريو قابل للعرض سواء للإذاعة أو للتلفزيون أو السينما، فهي مليئة باللقطات المهيئة للعرض الفني والجمالي.

وأخيرا فإن من أبرز سمات قصص يوسف الغزو بعامة، و"الاختيار" بخاصة، لجوئها إلى الإختصار والتكثيف. فهو يمتلك الموهبة القصصية والملكات التي تجعله قادرا على إطلاق عنان خيوط القصة إلى أبعد مدى تشاء، وفي الوقت نفسه يجعلها مربوطة بكفه ليوقفها عند حدها حيث يشاء، وألا يسمح لها بالانطلاق إلى أبعد مدى، كي لا تستحل قصصه إلى عوالم فضفاضة مليئة بالحشو والإطناب.

يوسف الغزو وأفضلية المكان[1]
(في مجموعة الإختيار)

د. عمر عبد الرحمن الساريسي

الاختيار موقف، ونستطيع به أن نحكم على المستوى الفني والإبداعي لمن أجرى عملية الاختيار، على الرغم من أنه لا يكون للمختار يد في المواد التي اختارها من بينها، ويكفيه ان يشير لأحدها فيحكم على نفسه، لذلك قالوا: أن أبا تمام في حماسته أفصح منه في شعره.

نقدم بهذه المقدمة لندخل في المجموعة القصصية لكاتب القصة الأردني يوسف الغزو، الصادرة عام١٩٨٣م، ولعلها المجموعة الثانية، وقد سبقتها الأولى الصادرة عام١٩٨٢م.

أولاً: قد أوحت الينا هذه المجموعة بالمقدمة السابقة ليس لانه اختار لها اسم احدى أقاصيصه فيها، من باب تسمية الكل بإسم الجزء، كما يفعل الكثيرون، ولكن لأنه، فيما ارى، قد أختار ان يقف وراء المكان من بين عناصر عمله القصصي، وينحاز له، ويبين للقارئ كيف أنه يزينه له وللأجيال. فأنت، وأنت تقرأ بين دفتي مجموعة"الاختيار"، ينقلك إلى جبال عجلون بغاباتها الكثيفة وأدغالها التي قد تحجب الأنظار، والى سهولها الممرعة التي تخلب عيون الناظرين فيها فضلا عن عيون أصحابها. فهي تعز على أبنائها، وهم يهمون بالخروج منها للعمل في الخارج، فالواحد منهم حينما يجد نفسه فيها يتراجع عن سفر عقده مع زملائه للهجرة خارج الوطن، تقرأ ذلك في قصة" المقعد الخالي"، ويفعل مثله حينما يعبرون بأراضيهم.

إن هذا المكان الفسيح الجميل في سهوله وروابيه هو الذي حمل الطبيب حامد على ان يعمل في ريف بلاده على الرغم من انه ناجح أيضاً في العمل في المدينة، كما نرى في قصة"المواجهة" أن هذا المكان الذي جعله الكاتب مسرح أحداث قصته الرائعة" الثأر" بأجزائها الثلاثه، وهي فيما أحسب، يمكن أن تكون أرضاً لرواية كاملة بمثل هذه التفاصيل وغيرها.

---

(١) نشرت في جريدة الرأي ٣/ ٣/ ٢٠١١.

وتقضي شخوص قصص يوسف الغزو هذه لحظات وأياماً وسنين مليئة بالسعادة الروحية في أحضان الطبيعة الخلابة التي ترسمها ريشته الساحره.

ثانياً: ويبرز عنصر الشخوص في قصص يوسف الغزو هذه، وهم الفاعلون على أديم المكان، فبعد أن تقرأ قصته" الثأر" بأجزائها الثلاث (عام ٢٥ وعام ٤٥ وعام ١٩٤٦ من القرن الماضي) نقرأ بعدها مباشرة قصة" شجرة المحبة"، وفيها رد عنيف على الثأر، ولكنه رد فني لا يكاد يبين. وهذا مما يصنعه الكاتب البارع، من توجيهات خفية هامة يكون لها أثر كبير، ففيها شابان يخرجان على نظام الثأر الذي يلف أهلهما، فقد التقيا ولكل واحد منهما ثأر من الآخر، ولكن الشاب خالد يحمل غصن زيتون، من زيتون عجلون، ويقدمه للشاب سالم، برهاناً على ترك الثأر وإيثار السلام والأخوة. وهكذا تسقط الثارات بين الشباب المثقف الذي يدرك أثر عصره ووطنه عليه.

كذلك فعل الشباب الخمسة الذين قرروا الهجرة من الوطن، لظروف إقتصادية صعبة، ثم عدلوا عن الإغتراب،وألقوا عصا التسيار في وطنهم وأهلهم (المقعد الخالي)، كذلك الطبيب الذي إقتنع أخيراً بالعمل في ريف البلد، بعد مدة العمل في المدينة (المواجهة). بإختصار أحس شخوص يوسف الغزو في هذه الأقاصيص بواجبهم تجاه الأمة وتجاه الوطن الأهل.

ثالثاً: الزمان الذي تتحرك فيه أحداث قصص هذه المجموعة زمن بسيط حكائي تاريخي، ليس فيه خروج عن السرد المألوف. بالقص المألوف، فالجو جو السبعينات والثمانينات، والأحداث يسلم بعضها بعضاً في شكل تراكبي مرتب. أما من حاول أن يجدد في السرد فقد سلك مسالك متعددة في التدخل في الترتيب الزمني، بأشكال قد تبدو متعرجة دونما لزوم.

رابعاً: ويلفت أنتباه الناظر في هذه القصص بأنها قد أفرغت.في تشكيلات لغوية سليمة متماسكة، لا تنازل فيها إلى العامية على الإطلاق، بل ثمة ما يلفت الانتباه فيها أكثر، وأعني الجمل الحوارية، أن القاص يوسف الغزو لم يتنازل، في جمله الحوارية في أقاصيص الإختيار، إلى ما تسمح به الأسس الفنية للعمل القصصي، فهي تجيز لكاتب القصة أن ينطق الشخوص بلغاتهم المحكية.

وبهذا يكتمل البناء الفني للعمل القصصي، لكن صاحبنا لم يحتج إلى نزلة واحدة ينزل بها إلى العامية. وهذا فيما أرى، رقي نوعي بالكتابة القصصية، وإن رأى فيه آخرون تنازلا عن المستوى الفني في الكتابة.

خامساً: وقد طغى على فن القص والسرد إستخدام ضمير الغائب، ولم تخل بعض القصص من حديث التيار الداخلي(المونولوج) كقصة "خريج كلية الآداب"، وقصة اسمها "الأمل" وقصة "دعاء المبروكة" والكتابة بالحديث الداخلي افعل في نفس القارئ المتلقي.

سادساً: ويلمس القارئ أن كاتب هذه القصص لا يصبر كثيرا على تدوين اللحظات الرومانسية في حيوات شخوص، حيث ينهيها بحلول واقعية تتناسب مع الحياة الإجتماعية لأغلب الناس في البلاد. فقصة "بداية ونهاية" رسم دقيق لعلاقة حميمية بين شابين لم يلبثا حتى صارا زوجين ورزقا بالصبيان، واستمرت حياتهما بالسعادة، لكنها أنتهت بموت الزوجة فجأة! وقصة " الاختيار" تقرر الأم أن تحول دون دخول نور الشمس إلى بيتها خوفاً على طفليها، خشية أن يحدث لهما ما حدث لأخيهما، الذي أصيب بضربة شمس أودت بحياته!

لكنه في حكاية"الأمنيات" يجعل سالم يقتنع تماماً بأن الأمنيات والكسل لا تجدي في الحياة شيئاً، ولذلك يقرر العمل والضرب باليد لكسب الرزق، وفي قصة"دعاء المبروكة" يقتنع محمود أن ما تصنعه المبروكة من حجب ورقية مثلثة الشكل، ليشت شيئاً على الإطلاق! فيقرر أن يعمل عملاً مناسبا بديلا. كذلك فإنه ينهي القصة الأخيرة" السباق الأخر" ليقول على لسان الفتاتين الجميلتين أن الحياة الاجتماعية ميدان سباق آخر يقابل ميدان سباق الخيل.

إن شخوص قصص يوسف الغزو في مجموعة" الاختيار" يدركون أثر العصر عليهم فيفتحون المدارس في القرى ليعلموا الفتيان والفتيات، ويطرحون ما يجري بين أهاليهم من الثارات، في قصٍ فني مؤثر، بطريق غير مباشر.

قراءة في المجموعة القصصية (الاختيار)[1]
ليوسف الغزو

علي القيسي

لدى قراءتي للمجموعة القصصية الاختيار الصادرة عام ١٩٨٢ من القرن الماضي للأديب الاستاذ يوسف الغزو، والتي تقع في ١٢٦ صفحة من الحجم المتوسط وجدت في القراءة السريعة تقريباً والممتعة القص الأدبي والفني الحقيقي الذي تضمنته تلك القصص بين سطورها ومفرداتها. ولعل ذلك ليس غريباً على الاستاذ الغزو، فهو صاحب تجربة ثرية في فن القصة القصيرة وصاحب بصمات واضحة في الأدب المحلي الأردني فيما يتعلق بتصوير المكان ومحاكاة الزمان، ونقل الصورة العامة للحياة وترجمتها من خلال لغة وأدوات القص الفني التقليدي النابض بالانسانية والحياة، وهذا يعكس المعاناة التي عاشها الكاتب في بدايات حياته حيث مدارج الصبا وعشقه العميق للأرض والإنسان والهوية الوطنية التي من خلالها كتب وأبدع، وحلق وسما. هذا ما تؤكده هذه المجموعة القصصية(الاختيار) فالكاتب القاص الغزو يمضي بنا عبر هذه القصص إلى حيث المنظومة الإنسانية الحياتية في المجتمع الأردني، حيث العادات والتقاليد والموروث الاجتماعي والعقيدة السمحة والصراع الأزلي بين الخير والشر، والحق والباطل واللذة والألم والحرب والسلام والصدق والكذب، والحقيقي والمزيف، إلى أخر المفردات والقضايا الإنسانية الكبيرة. ولعل أسلوب القاص في هذه المجموعة أسلوب سلس وبسيط غير معقد ويحمل دلالات شخصية طبيعية لا تتقن فن المراوغة، أو اللف والدوران. ويظهر ذلك بالعفوية في ترابط الأفكار، وسهولة الألفاظ المعبرة عن المعاني في السرد القصصي، وحيث أن هذه المجموعة القصصية تتناول مرحلة هامة من حياة الناس في الأردن، وأظنها فترة ومرحلة السبعينيات وما قبلها، حيث المجتمع الأردني في بدايات العصرنة والانفتاح على العالم

(١) نشر هذا المقال في جريدة الرأي ١٤/ ٥/ ٢٠١١.

مجتمع بدوي أو فلاحي أو قريب إلى الريفي والمدني بعد ذلك بحدود معينة، فالرومانسية طاغية في هذه القصص، مجتمع حالم عاطفي قنوع مؤمن صادق مخلص ووفي وشريف، انه المجتمع الذي لم يتلوث بعد بالماديات وبزنس الإعمال والسوق والتوحش المادي، الذي نعيشه في الأيام، هكذا كان المجتمع الأردني، ثم دخلت عليه أحاديث الناس، وهي السبب الذي ساعد على تغير المجتمع ونقله من الهدوء والاستقرار النفسي، إلى دواعي الخوف والقلق والتوتر، وما يفرزه ذلك من أمراض عضوية ونفسية على صحة الفرد والجماعة. هذه هي ضريبة التطور والحضارة العرجاء فالقصص التي جاءت المجموعة تتحدث عن الأمانة والشجاعة والكرم والصدق والإنسانية بكل ما تعنيه هذه الكلمة. ولا ننسى المحبة التي هي الخيط الواصل الذي يربط جميع هذه القصص مع بعضها بعضاً.. وتحت عنوان- شجرة محبة- تدلنا هذه القصة عن المحبة الحقيقة بين الناس في القرية، بعد أن كاد الحقد والبغضاء وكلام الجهلاء يؤدي بكارثة ودماء، لولا طغيان العقل أولا، والحب ثانياً بين أفراد القرية واجتماعهم على الخير وبناء جسور المودة والمحبة لمواجهة الاعتداء الخارجي على أبناء القرية الواحدة... كان ذلك بمثابة الصحوة التي جعلت الناس قلباً واحداً وصفاً واحداً ضد الأعداء المتربصين، وقد قدم التضحية خالد بروحه فداء لصديقه وابن قريته سالم، والذي كان على خصام وعداوة معه.

وفي قصة الأمانة، نجد أسمى معاني الوفاء والصدق والإخلاص، لدى مسعود الذي سطر صفحة مشرقة في الأمانة والنخوة أمام صديقه سعيد، الذي استودع لديه(خمسة الآف دينار) وغاب عنه سنوات طويلة ولكنه رجع إلى بلده وإلى صديقه مسعود، حيث وجد المبلغ محفوظا كما هو، بالرغم من الظروف القاهرة التي مرت على مسعود بسبب نقص العلاج. مرض ولده نبيل وكان يحتاج إلى مبلغ من المال لمعالجته ولكنه لم يمد يده إلى الامانه، بالرغم من موت ولده فلذة كبده بسبب نقص العلاج...!!! وأما قصة المقعد الخالي... فهي قصة تنبض بالوطنية الصادقة والتشبث بتراب الوطن، مهما كانت إغراءات العمل في الغربة، وهو الحنين الحقيقي إلى الأهل والبيت والحقل والقرية والى كل نسمة هواء وزقزقة عصفور وحفيف شجرة، فالقاص الغزو اثر العودة إلى وطنه بعدما قطعت السيارة التي يستقلها هو وأصدقاؤه الثلاثة مسافة طويلة نحو الحدود وكانوا على وشك مغادرة الوطن. إلا أن الحنين العاطفي للقروي الذي لا يرضى بديلاً عن بلدته وقريته أبى مواصلة الرحلة وقرر العودة إلى وطنه وأهله مهما كانت الظروف صعبة

والحدث جلل. فالوطن هو الأم الرؤوم التي تحتضن أبناءها والقلب الكبير الذي يتسع للجميع...!!!

فالمجموعة القصصية الاختيار، مجموعة رائعة احتوت على لوحات فنية حقيقة تعكس حالة المجتمع بكل واقعية، والشخوص في هذه القصص شخوص حقيقيون، يعمل على تحريكهم القاص حسب الأدوار المناطة بهم ثمة عنصر هام جداً في هذا العمل الأدبي الرفيع، وهو عنصر التشويق والذي هو من أدوات العمل الإبداعي القصصي، بل هو أهم ما في السرد القصصي حيث يجعل الملتقى يعيش الحالة القصصية بكل مشاعره من حيث الأحداث وتسلسلها ومفاجآتها وذلك يعكس حالة المتطور لدى القاص الغزو في أسلوبه الرائع لجذب القارئ.

لقد وجدت من خلال قراءتي المتأنية لبعض القصص في المجموعة ، وجدت الحس الوطني الصادق والانتماء الحقيقي للموروث الاجتماعي والذي بناه الأباء والأجداد على مر الأيام والسنين حيث منظومة القيم الأخلاقية والإنسانية ، والتضحية من أجل الناس دون الأجر أو المقابل . فالحياة في هذه المجموعة القصصية ، حياة فاضلة ومتدفقة بالعطاء دون حدود...!! أبطال القصص أبطال حقيقيون كرماء شجعان صادقون فهم ينتمون إلى عالم قد عفا عليه الزمان... مقارنة إلى عصرنا هذا، فهذا الزمن ليس زمن أولئك الإبطال، إنه زمن الرويبضة، وزمن الفاجر، وزمن العاهر وزمن الفاشل، وزمن الحرامية والنصابين والقوادين ..! حتى قصص هذا الزمن ورواياته، ليست بأفضل من الواقع، بل هي تعكس الواقع المعاش وتتعداه في كثير من التطرف اللاخلاقي الذي بدا ينسحب على حضارة هذه الأيام، بقي أن أضيف أن قصص يوسف الغزو وجميع إبداعاته الأدبية تعكس الأصالة والوطنية والخلق العظيم، فهي مدرسة حقيقية ينهل منها القراء والمتلقون في البلد الأردن، وشهادة غير مجروحة يعتز بها قراء ومتابعو يوسف الغزو، الذي أتحفنا عبر هذه العقود من مسيرته الأدبية، بالأدب الأردني الحقيقي فهو لا يقل أهمية عن القامات الثقافية والأدبية العالمية والعربية من أمثال تولستوي، ومكسيمم غوركي، وسارتر، وفكتورهيجو، ونجيب محفوظ، ويوسف أدريس ومحمود تيمور، وغيرهم.

من وحي المجموعة القصصية" مسافات"
ليوسف الغزو

بقلم: الأديبة وداد الشيشاني

مَن منّا لم تُهدهده أمه أو جدّته؛ فتحكي له قصصاً ليشعر بالامان في حضن دافئ؛ ليقتربَ من النوم بخطوات وئيدة هانئة ثم يستسلم له حتى الصباح؟!.

كلنا سمعنا حكايات ما قبل النوم، ولكن معظمنا نَسيها أو سخر منها، الغولة وعروس البحر، ومصباح علاء الدين والشاطر حسن، وخاتم سليمان ... الخ.

قلة من الناس من قلّب هذه القصص بعقل وموهبة، ودرس أسرارها، وفكّرَ في استبقائها بقوالب لغوية جميلة وحُلَلٍ مُشوقة.

أحد هؤلاء الكاتب هو الأديب القاص" يوسف الغزو" وقد حدثنا في مقدمة مجموعته القصصية الشيقة"مسافات" عن حكايته مع القصة القصيرة- هذا الفن الجميل.

قلة هم من جعلوه متعة حقيقية لقُرائه، فالتشويه والتلويث الذي طال كل شئ في حياتنا طال أدب وحتى القصة القصيرة. حيث نبدأ بالقراءة وننهيها دون أن ندخل إلى عالم أو نستمتع بعبارة أدبية واحدة أو نفهم ماذا يريد أن يقول الكاتب أو تلك الكاتبة.

مجموعة(مسافات) أشبه بروضة جميلة أو بيدر غني أو نزهة ممتعة يقضي معها القارئ المتذوق وقتاً سعيداً يتمنى أن لا ينتهي.

المجموعة القصصية" مسافات" تأخذ القارئ لمسافات بعيدة عن كل المتاعب وتعيده إلى أماكن باتت نادرة في حياتنا وأرضنا وأردننا الجميل.

أين هي بيادر القمح الآن؟ وأين غابات الرُمان؟ وأين هو الحب الصادق الذي يوشك فيه المحب أن يهلك بسره فلا يبوح باسم حبيبه لأي كان. بل أين هو الأب الذي يتابع ويراقب ابنه بلطمة على وجهه عندما يراه يفعل ما يضره؟ وأين هو الإبن الذي يخجل من أبيه فيجتهد لكي يخفي عنه أفعاله الرديئة.

أربع عشرة قصة؛ كل واحدة منها: إما لوحة جميلة، أو حكمة بارقة،؛ أو نصيحة مغلفة بالأبوة، أو سمفونية تعزف عطاء وتضحية، أو تجربة خالصة تُقدم للقارئ ليتعلم منها ما لا يعلمه.

أما الغالب على كل القصص في المجموعة؛ فهو الشعور الإنساني الايجابي الذي يوصله لنا الكاتب بصدق، يدل على نظافته وصدق وجدانه في قالب لغوي راقٍ جميل، لم أستطيع الا أن أُشير إلى بعض ما استوقفني في كل قصة.

* القصة الأولى " من الداخل"

حيث يصف الفلل في المدينة فيقول: " الفيلات تغفو وسط الجنائن كأنها أرانب بيضاء في حقل مزروع"

* في القصة الثانية" البحث عن الكنز"

يقول واصفاً بيادر القمح: "كانت أكوام القمح الذهبي اللون تعانق أشعة الشمس كالعشاق، وأكوام التبن تغفو إلى جوارها كالحارس الأمين. أكوام القمح والتبن الخاشعة على ذراعي البيدر، كسبائك الذهب"

* في القصة الثالثة: (أغاني الحصاد)

فهي أغنية رائعة تعلمنا مراحل الحصاد، وفي كل مرحلة فيها نسمع الأصوات تصدر عن اصطدام المناجل بسنابل القمح، ثم (الدراس) (المذراه). أصوات كل مرحلة جمعها الكاتب ورتبها في كوبليهات متناسقة فأصبحت فعلاً أغنية جميلة.

* قصة الغائب:

قصة باتت شائعة ومعروفة في كل بيت أردني تقريباً: الغائب الذي لا يعود، إمّا لأنّه نسي من تركهم خلفه، أو طمعاً بالمزيد من الثروة، أو تنكراً للوطن وإعجاباً بكل ما يخرجه من جلده، أو ان يُغيبه الموت كما حدث مع نبيل بطل قصة الغائب.

* قصة مقسّم الأرزاق:

فهي فركّة أذن لكل التجار الذين يطففون الموازين والمكاييل لصالحهم؛ وكأنه يقول لهم أن العقاب للطمع هو الخسارة والتاجر الجاد الصدوق هو الرابح دائماً.

❋ القصة السادسة "غربة":

قصة اغتراب كل منا عن نفسه عندما يتلهى بأمور الحياة، ثم يصحو فجأة، ليتدارك أموراً كثيرة كان قد نسيها، ولو اقترح عليّ تسمية أخرى، لهذه القصة لأسميّها (صحوة) بدلاً من (غربة).

❋ القصة السابعة "عين من زجاج":

قصة تحكي أرفع معاني التضحية الأبوية الذي تبرع بعينه لابنه الذي فقد عينه بحادث سيارة.

قصة نعايشها في الواقع فالتبرع بالكبد والكلية والنخاع الشوكي باتت قصصاً يومية نعرف الكثيرين من أبطالها أما ما أدهشني في القصة فهو براعة الكاتب في وصف اللحظات التي تسبق فك اللفائف عن العين المزروعة (لنزار) بطل القصة حيث يقول:

"كانت اللحظات الثمينة تتساقط من عقد الزمان؛ كما يتساقط الدمع من العين".

❋ "المسافر":

قصة شاب اغترب ليدرس خمس سنوات، توفي جده خلالها، جده الذي كان قد تعلق به الحفيد لأبعد الحدود واحتار الأهل بالطريقة المناسبة لاخباره. ولكن المدهش أن الشاب لم يتأثر ولا حتى أنه سأل عن جده عندما جاء كل أهل القرية لتهنئته بالعودة الميمونة.

❋ "الشيء":

قصة "سالم" الذي نما في أعماقه شيء جميل. جمّل له الحياة بجملتها وأجمل وصف له هو وصف الكاتب:

"نما في الأعماق كما تنمو جذور أشجار السرو، وانساح في الوجدان كما تنساح المياه فوق سبخة، وأزهر على الوجه كما تزهر نرجسة في أحضان صخرة، قادم من العدم مسافر في الفراغ، مستجيرٌ بأحشاء القلب... ما هو" لم يعرف... حتى بدت له "سعدى" الفتاة الجميلة اليافعة فعرف أن هذا الشيء هو الحب.

الحب الذي يجمل كل شيء حتى العيوب، فالذباب صار فراشات ملوّنة، والمزابل صارت أكوام من السماد الطبيعي وحتى موت الخال الحبيب بات راحة له من عذابات وآلام المرض.

❋ "أشجار الرُّمان"

قصة اختزل فيها الكاتب نجاحات الإنسان وأعماله المفيدة التي تكون بذرتها (فكرة إنسانية) تلتمع بذهن إنسان بعد معاناة ليحس بعدها بالحاجة لشيء ممتع أو منتج أو مريح، كانت المعاناة التي يتجرعها أهل القرية في السفر من قريتهم لأخرى لاستبدال القمح بالرمان برحلة شاقة وفيها من المغامرة ما فيها، فخطرت للشاب فكرة أن يزرع الرمان في القرية.

أما جمالات الوعاء الأدبي في هذه القصة الرائعة فإنها متصلة اتصال القصة واخترت منها الآتي:

"شعر بالأمان حين شاهد الفجر يوشك أن يمتطي صهوة الأفق"

"وقبضتْ غيمة بيضاء كالقطن على عنان الأفق"

* "حينما يقع الشاطر"

قصة فيها رسالة رقيقة للآباء الذين يُسهلون على أبنائهم مسالك الانزلاق والأخطاء، وللأبناء الذين لا يجدون في أية نصيحة أو طريقة للتربية من الأب إلّا قهراً وظلماً واستخفافاً بإنسانيته وحريته ورجولته.

* "وتدور عقارب الزمن"

قصة مؤثرة يجب أن يقرأها كل من يعلق مصير حياته وسعادته بحب إنسان. فالإنسان متقلب بطبعه، وخيانة من أحدهم لا تعني أبداً نهاية العالم، ففي العالم أناس كثر، وقد يجد الإنسان سعادة مع إنسان آخر، وعقارب الساعة تدور شِئنا أم أبينا، ولا تتوقف بتوقفنا عند شخص أو حالة أو موقف.

* "أمواج الحب"

نعود فيها لحالة سامية راقية من الحب الذي لا يُبثُ في الأبواق، ولا تدري به الاّ القلوب التي تعيشه أين نحن منه الآن؟!

الهواتف والفضائيات والفيس بوك التي استباحت كل انسان وكل شيء ورخّصت المشاعر وشيأتها فباتت كأنها بنطلونات الجينز التي تُلبسُ وتُخلعُ وتُبدَلُ في اليوم الواحد وبالتالي فقد الإنسان المتعة بالشعور الجميل النادر كثر العرض فرخُصَ المعروض.

* أما القصة التي استوقفتني ووجدت فيها مجالاً للتساؤل والمحاورة وبعضاً من فلسفة الحب الصادق فهي قصة " مسافات" والتي سُميت المجموعة باسمها.

لا يَتيح لهم القرب الدائم رؤيتها..

" لماذا احببتُ هذا الإنسان تحديداً؟"

" لماذا أحببتُ هذه المخلوقة بالذات؟"

التعايش اليومي السريع المتعجل لا يتيح لاي اثنين التفكير بأسئلة أو الاجابة عنها اجابات مقنعة للعقل ، مرضية للقلب.

وهذا ما حدث مع الحبيبين في القصة " مسافات"

عاشا معاً كل منهما يطرح السؤال على الثاني ولا يجدان جواباً (لماذا أحببتني؟)

وشاءَت الظروف وافترقا وحلّ البُعد محل القرب، وأُحتل الاشتياق محل الوصال، فجاءَت الاجابة لكل منهما على سؤاله من خلال البريد.

الاشتياق فجّر مكامن القلب الهاجعة، فأنطقت الصمت ولكن المفاجأة كانت ان الاجابة كانت نفسها غادية رائحة على طرفي البريد.

القصة مختلفة عن باقي القصص، وجدت فيها فلسفة جميلة وغوصاً في مكنون شعور غالباً ما نرحب به ونرتضيه دون تفكير، حالة واقعية ولكنها متوارية خلف زحام امور غالباً ما تطفو على السطح في حالات السلسلة غالباُ لا نعقلها ولا نحاول التعب للغوص في مكنوناتها. إذ من السهل والمنطقي والأحب للانسان ان يستمتع بالحب دون اتعاب القلب والعقل والروح، ما دام سهلاً مريحاً ممتعاً بالوصال والقرب.

باختلال حالة الهدوء والسكينة بالفراق والبعد، يبدأ الامتحان الذي يضع الحب على المحك والتحميص الحقيقي لاستمراريته وجديته وصدقه وتنقيته من أي خبث.

في حالة ابطالنا هنا...(خالد وخلود) اللذَين عاشا حالة الفراق والاشتياق للتفكير باجابة السؤال، الذي لم يُتح لهما القرب معرفة جوابه، فكتب كل منهما للآخر وبنفس العبارات دون علم أي منهما كيف فكر وماذا كتب الآخر في جوابه.

وبرأيي الخاص أن تطابق الاجابة دلالة على نقاء وصدق هذه الحالة من الحب.

" اكتب اليك قبل أن تعودي.. أكتب إليك عبر المسافات أخشى أن يتلاشى الجواب مع تلاشي المسافات، أخشى ان يكون الوعي رديفاً للبعد وحده.

أخشى ان تُنسيني سعادة اللقاء صدق المعاناة؛ فيذهب الجواب ولا يعود ..." وبقية الرسالة رائعة جديرة بالقراءة ملياً.

وفي الختام أقول:

ان الكاتب يوسف الغزو ابن الأردن الحبيب، وابن عجلون الجميلة النظيفة البسيطة الطيبة العريقة بأرضها وأشجارها وأحراشها وقلعتها تنتج أناساً يعشقون الأرض والورد والبيدر والزيتون والعنب والصنوبر، فينغرسون في بيئتهم الجميلة فترشح منهم كل جمالاتها ونقائها في كل ما يكتبون وما يزرعون وما ينتجون من خير وطيب.

إذ لا نجد قصة من قصصه التي إلا وتشدنا للأرض والشجرة والعائلة والحب بكل أشكاله لكل شيء في الحياة النقية، وتنفرنا من كل ما هو نشاز وغريب وملصق في حياتنا التي باتت متعبة، فيشير لنا اشارة ذكية حانية ابوية إلى مواطن الراحة، بنفس الوقت الذي نجد قصصه أنها لا تجافي التحضر والحضارة ومماشاة الواقع الحالي من علم وطب وادوات زراعية حديثة. وعملية زراعة ونقل الاعضاء البشرية بما تستلزمه راحة وكرامة الإنسان ضمن ما يرضي الله ولا يؤذي الغير.

باختصار: كاتبنا مدرسة أدبية قائمة لا يشبه غيره تستحق الدراسة في كل ما يقول ويكتب في عالمنا الذي ضجّ بنفسه وبتطرفه دون وجود أي أمل في هدوء وسكينة إلا لأمثال أستاذنا الذي أمَدّه الله بهذا العقل ، وهذه الموهبة التي تجعلنا نستمتع بأدب جميل الأثر، طيب النكهة جديد لا يلغي الأصالة ويريح الإنسان ويماشي الحاضر الذي يخدم الإنسان ويسعده.

نظرةٌ عجلى في مجموعة
(يوسف الغزو القصصية وردة في الخريف)

بقلم: د. عودة الله منيع القيسي

- الأستاذ يوسف الغزو- قاصٌّ وروائي. وهو روائي أكبرُ منه قاصّاً. وهكذا كان المرحوم نجيب محفوظ؛ كان قاصّاً وروائياً. ولكن كان روائياً لا يبارى- وقاصّاً من الدرجة الثانية- على فرق في قوّة الموهبة بين الكاتبين.

- ولكن على أية حال ... فأنا لا أنوي أن أناقش رواياته ومجموعاته القصصية ولكنّي أكتفي بنظرة عجلى في مجموعته القصصية(وردة في الخريف) المنشورة عن وزارة الثقافة(الثقافة والفنون- سابقاً) سنة -١٩٨٧م. وأتناول منها ثلاث قصص، هي: شرخ في لوحة الربيع- الأستاذ محمود- وردة في الخريف.

- أغنى هذه القصص الثلاثة بالعاطفة الحزينة المؤثرة، هي الأولى، شرخ في لوحة الربيع؛ فهي تتحدث عن رجل مُسنّ كان له بيت شعر وغنم، تعلم أبناؤه، واماتت زوجته، وكان سعيداً مع أغنامه، يخرج معها في الصباح ويعود في المساء، ولكنّ أولاده حالوا أن يُقعدوه، وألحّوا عليه حتى قبل. ولكنه عانى من حزن وأسف عميق عندما أمسى بلا غنم يرعاها ويأنس بها، وفي ذات يوم رأى غنماً من بعيد، فتوجّة نحوها، وفي اليوم التالي- وجد هو وخروف ميّتين في هاوية جبل-!

- وهذا" بعيد- واقعياً- فرجل مُسِنّ لا يعقل أن يسرق خروفاً، ولكن ما يُعقل أن يقف مع الراعي، وأن يسايره- حيناً، وهو ينظر إلى الأغنام، ويتمعّن في أشكالها واشيائها، ثم يعود إلى بيته- المصنوع من الشعر- شديد الحزن، فيمرض فيموت.

- وهنا .. نجد فارقاً واضحاً بين القاصّ يوسف الغزو الأردني- وبين القاصّ الطيّب صالح السوداني- في مجموعته القصصية(دَومةُ وَدَّ حامد)؛ لقد جاءت الجرافات واقتلعت- دومة ودَّ حامد- وحزن الناس لاقتلاعها، ولكنّ الجهة المعنيّة بنت مكانها مصنعاً، فكان ، أن انحاز الطيب صالح إلى التقدم والحضارة- بينما انحاز يوسف إلى إغلاق الباب على التقدم والحضارة، فانكفأ

المعنى إلى حياة البداوة، أجل- حياة البداوة ملأى بالمشاعر والأحاسيس، ولمسات السعادة الآتية من البساطة ومن معايشة الطبيعة، والحيوان الذي يعيش هناك. ولكنّ ذلك يجب ألا يصرفنا عن ولوج بابا التقدم والحضارة، ولا سيما وكلُّ حياتنا حتى الآن هي حياة أشبه بحياة البداوة- إذا قورنت بحياة الغرب، وأقاصي الشرق.

- وقصة(وردة في الخريف) التي سمّى القاصّ يوسف الغزو- المجموعة باسمها، هي تشير إلى علاقة حُبّ مع فتاة كالوردة- لكنّ الوردة الحقيقة- وردة الخريف- كانت بلا أزهار- أمّا وردته، وهي الحبيبة، فقد كانت، قبل أن تغيب، وردة مُزهرة في كل الفصول.

وقد قام تكتيك القصة على المقارنة بين الوردتين- الحقيقة، والأخرى البشرية، من خلال- حوار- قام بين القاصّ وبين صديقه، ولكنّ تعابيرها كانت قريبة من- التعابير العادية- فإذا قرنّاها إلى الأوصاف التي أطلقها- كمال- على حبيبته- في رواية نجيب محفوظ(قصر الشوق) بَانَ لنا أن كمالاً أغدقّ على حبيبته من الأوصاف ما يصل إلى شفافية الشعر وغناه وزخمه.

والقاص يوسف كان متواضع العاطفة، ولكننا نظلم يوسف عندما نقارنه بعملاق الرواية العربية-نجيب محفوظ، أمّا إذا قّسناه بأجود القاصين الأردنيين وقف معهم كواحد من أجودهم.

- أما قصة الأستاذ محمود.. فذكرت أن هذا الأستاذ الذي يدّرس الصفوف المتوسطة كان يقول لهم:(الدروس المقرّرة، يا أبنائي، هي ليست كل شيء،(لكن الأهم) أن يحفظ كلٌّ واحد منكم ما استطاع من معارف الدنيا -ص-١٤١ .

- وهو محقّ في ذلك ، ومثله القاصّ يوسف الغزو، ولكنّ علوم الدنيا أو معارفها هيَ أن يحفظ من شعر المتنبي ونظرائه، وهذا أمر جيد، إذا نُظر إلى الثقافة العربية،.ولكنه وعي ساذج إذا قورن بما أصبح في دنيا الكوكب الأرضي،(وليس في الدنيا العرب) من علوم.

" وقد وُفّق القاص إذ جعل الأستاذ محمود يشتغل في دار نشر، بعد أن تقاعد، وأن يأتي الراوي- خرّيج الثانوية- وزميلُهُ يبحثان عن عمل في دار النشر التي يعمل فيها أستاذهما، وأن يسألهما بشعر المتنبي العظيم، لأن السؤال في مجال الثقافة يتناسب مع عمل دار النشر.

- وأخيراً... حيّا الله القاصّ والروائي الأستاذ يوسف الغزو.

إضاءات على خصوصية المكان والزمان والشخصيات[1] ودورها في المعمار القصصي عند يوسف الغزو في مجموعته القصصية القصيرة (مسافات)

بقلم الشاعر الناقد محمد سمحان

تشتمل هذه المجموعة القصصية، والتي صدرت قبل عشرين عاما، للقاص يوسف الغزو، على سبع عشرة قصة قصيرة، واذا كان الأسلوب هو الكاتب والعكس صحيح كما قال أحد النقاد الغربيين، فإنني أجد في قصص يوسف الغزو القصيرة ورواياته التي قرأت معظمها ما يؤكد على هذا القول. فالقارئ يجد في ما كتب يوسف يوسف نفسه بشخصيته وأفكاره وأرائه ولغته ومفرادته ورؤاه، كما يجد فيها بساطته وعفويته وصدقه ونبل مقاصده.

وقصص يوسف الغزو التي يكتبها بمكر الراوي أو السارد في اختيار الشخصيات وتحريكها ورسم سيناريوهات حركاتها وسكناتها المحكمة، والتي ينظمها ويؤطر حراكها وحواراتها خيط شفاف من تيار الوعي متماسك ومنسوج بحنكة وسيطرة تامة على أسلوب كتابة القصة القصيرة كلاسيكية البناء البعيدة عن التعقيد الغنية بالتصوير حتى ليخال للقارئ أنه أمام لوحات أو سكتشات من مبسلسل درامي طويل لا ينضب معينه لانه مستقى من نبع الحياة الذي لا ينضب له معين.

ولعل أبرز ما يميز قصص الغزو ويجيئ كقاسم مشترك في كل كتاباته هو أنتقاء الاماكن والشخصيات وقد وجد في بيئة الارياف الأردنية ومراحل تحولاتها السياسية والاقتصادية والتعليمية وانعكاساتها على القيم والمفاهيم الاجتماعية ومدى تأثير التحولات على الواقع المعاش وما تركته من اثار سلبية أو إيجابية تجعل من قصصه ورواياته ارشيفاً وسجلاً رصديا لمجمل تلك الانعكاسات والتحولات.

(١) نشر المقال ضمن كتاب نقدي للناقد محمد سمحان.

ولعل تلك أيضاً خصيصة يكاد ينفرد الغزو في احتفاظه بها في معظم كتاباته، مما أعطى لقصصه ثراء وخصوصية قلما تجدها عند سواه من كتّاب القصة القصيرة أو الرواية في الأردن، حيث تجده يرصد بعين البصيرة وبدقة المتابع النابه مجمل حركة الحياة ويعاين بعين المبصر الواقع البيئي بكل مجرياته ومفرداته ودقائق تفاصيله، مع الاغراق في تتبع التفاصيل لما تقدمه للقارئ من اضاءات تعينه في سعيه لاكتناه المرامي ولابعاد التي يذهب إليها القاص ليحقق من خلالها الهدف الذي يسعى لبلوغه من الوظيفة التي ينبغي ان يقوم بها الادب والقص بخاصة، ليضع ويكرس مفهوم الادب في خدمة الحياة في منأئ عن العبثية التي يلجأ إليها اخرون.

الذهنية الحادة أو تيار الوعي أو الرسم المستبق لابطال قصص يوسف الغزو الذين لا يختلقهم عبثا وانما ليقوم كل منهم بدوره على مسرح قصصه وكانه يقوم بذلك على مسرح الحياة ليؤدي كل منهم دوره في القصة على اكمل وجه وليقول من خلال السناريوهات الثرية والحوارات الذكية ما يريد الغزو ان يقوله ويوصله ويحققه من اهداف من خلال مجرى حياة وتصورات وتطلعات وحركات وحوارات هؤلاء الابطال والتي تتسرب بحميمية وبدون افتعال أو انفعال إلى قلوب وعقول المتلقين.

وسيجد القارئ النابه مدى تاثر الغزو بكتابته لكم هائل من المساسلات المسموعة والمرئية من خلال ادخاله باتقان وتوظيفه للسيناريو والحوار كمقوم رئيس من مقومات القص لديه.

ولعل شدة اهتمام الغزو في توصيل أفكاره والتعبير عنها بدقة مسؤولة يحاسب عليها نفسه عليها قبل سواه وبحثه المتاني عن الشخصيات التي ستحمل أفكاره وآراءه وحرصه على ان يكون ناجحا في مسعاه جعله مقلا في أنتاجه، لقناعته إن العبرة في النوعية لا في الكمية، فجاءت قصصه ورواياته ناجحة في توصيل ما أراد ان يقوله للقراء ببساطة وحميمية خالية وخالصة من التعقيد واللعب بعقل المتلقي كغيره من أصحاب القص بما يشبه الفهلوة والأستذة والاستذكاء.

تلك إضاءة ومقدمة لا بد منها قبل الولوج في عوالم مجموعة الغزو التي نحن بصدد الحديث عنها.

ففي قصته الأولى(من الداخل) نجد أن الغزو قد اختار القرية الريفية بمساكنها وبيئتها وسكانها مكانا لقصته وبالرغم من حالة البؤس التي صورها بها إلا انه يحذر من أن تكون النظرة

إلى الظاهر مضللة عن جمال الباطن من خلال إعلانه المبطن بالانحياز لبساطة وطيبة أهل الأرياف، مبديا بوضوح حنينه الدائم إلى أيام تلك الحياة المفعمة بالبساطة والصفاء والنقاء في القرى وكأنه يدعو إلى هجرة معاكسة بالروح والعاطفة نحو الأرياف إذا استحالت الهجرة بالأجساد إليها، من خلال حبكة قصصيه محكمة البناء وتقنيات سرد متقنة يقودها تيار وعي جارف بمكانها وبأحداثها وشخوصها.

وفي قصته الثانية(البحث عن الكنز) نجد إن الغزو أيضاً يذهب بنا مرة أخرى إلى الأرياف وحياة القرى موحيا تارة ومصرحا تارة أخرى بأهمية ووجوب الارتباط بالأرض وعدم الانخلاع عنها أو منها وبنفس مواصفات القصة الأولى من حيث تيار الوعي وتقنيات السرد وبذهنية تعليمية محببة وغير مباشرة تشد القارئ إلى النص كما تشد الفلاح إلى الأرض.

وفي قصته الثالثة(أغاني الحصاد) والتي يشير عنوانها بمضمونها مباشرة نجد ان الغزو لا يبرح أسلوبه أو مضمونه أو بيئة أو مكان أو شخوص أو تقنيات السرد لديه حتى الهدف والذهنية وتيار الوعي بروح رومانسية مفعمة بالحنين إلى الأرض والريف والحياة الزراعية وأيام الطفولة ورائحة المحاصيل والبيادر وأغاني الفلاحين في موسم الخير والعطاء.

وفي قصته الرابعة(الغائب) يظل الغزو متمرسا وراء أسلوبه ومنهجه وفي التركيز على المكان والبيئة والشخوص لكنه هنا يذهب بنا إلى عمق وبعد أخر حيث يصور لنا ملامح السفر والاغتراب بحثا عن لقمة العيش بعد أن باتت الحياة الاقتصادية في الارياف لا تؤمن لقمة العيش الكريم لابنائها. ويختتم قصته بنهاية درامية مفارقة ومحزنة مبستعملا تقنيات السيناريو والحوار كبانوراما تصور الاحداث بمجرياتها المتعاقبة دون ان يفقد حنكته اوخيوط تيار الوعي أو ذهنيته في ما يريد ان يوصله من مضامين للقارئ باسلوب من السرد الحزين الشفيف.

وفي قصته الخامسة(مقسم الارزاق) يواصل الغزو قصه الذهني التربوي التعليمي غير المباشر مختارا نفس الاماكن والشخوص والبيئة ليعبر لنا هنا عن تحولات الاخلاق في الارياف نتيجة التحولات في المهن واخلاقيات التحول التي تعصف بالاخلاق والقيم والمثل العليا.

وفي قصته السادسة غربة يخرج الغزو عن مألوف مضامينه وبيئته القصصية ليغوص في أعماق تحولات النفس الانسانية في كل زمان ومكان متكئاً على أسلوب التداعي والسيناريو والمونولوج

الداخلي ليوصل ما يريد أن يبلغه للمتلقي بأسلوب شفاف بعيد عن الوعظ المباشر ليقلل من أهمية هجوم الشيب وضياع العمر والتمهيد للعودة من السعي في الدنيا إلى السعي للآخرة.

وفي قصته السابعة عين من زجاج يأخذنا الغزو إلى موضوع التضحية الرائعة التي يقدمها أب من اجل ولده حين يعوضه عن ضياع عينه بمنحه عينه بدلاً عنها بحبكة قصيرة وخطوات مدروسة بذهنية متوقدة وبتيار وعي متماسك وموجه وبهدف تربوي تعليمي غير مباشر يوحي ولا يقول وبأسلوب شيق وسلس وممتع أيضاً.

وفي قصته الثامنة(المسافر) بأسلوبه الذي سبق أن اشرنا إليه يلفت أنتباهنا إلى المتغيرات النفسية والاجتماعية والاخلاقية التي تحدثها الغربة والتغريب في حياة الناس وقيمهم بفعل تغيير المكان ومتغيرات الزمان والثقافات في أبناء الأرياف فتخرجهم هذه التحولات عن قيمهم ومثلهم التي كانت سائدة في بيئاتهم البسيطة التي تربوا عليها إلى ما تأنفه النفوس التي اعتادت على تلك الحياة بما تحمله من صيغ التكافل والتضامن إلى حياة الانانية والانكماش على الذات والتفتت الاسري الناجم عن الانخلاع عن تلك البيئة والحياة في بيئات اخرى وثقافات أخرى تفرض على المتنقل منظومتها الغريبة عن البيئة المنخلع عنها ومنها.

أما في القصة التاسعة(الشيء) فيا خدنا الغزو وبرومانسية شفيفة إلى التحولات التي يمكن أن يحدثها الحب بكل أشكاله وألونه في النفس الإنسانية رامزاً إليه بكلمة الشيء وكيف أن هذا الإكسير العجيب الذي لا يجد لنموه واستمرار بقائه ونقائه أفضل وأمثل من بيئته الأرياف وحياة الفلاحين والقرى ليساعدهم في التغلب على ما يعترض حياتهم من متاعب ومصاعب وأتراح ونوائب مؤكداً على أهميته كعنصر فاعل ومؤثر في حياة هؤلاء الناس.

وفي قصته العاشرة(أشجار الرمان) يستمر الغزو في التركيز على بيئة الأرياف وحياة أهل القرى من الفلاحين والبسطاء وطرق معيشتهم في رحلة رومانسية إلى أيام طفولته أو طفولة أقرانه وبساطة أفكارهم إمكانية الإفادة منها حتى ولو كانت صغيرة وبسيطة إلا إنها تأتي كلها في النهاية وبأسلوب تربوي تعليمي ذهني غير مباشر أيضاً، وكأنه يريد أن يقول أن الأفكار الصغار يمكن أن تنمو وتكبر وتثمر كالأشجار.

وفي قصته الحادية بعد العاشرة(حينما يقع الشاطر) وبحبكة قصصية أيضاً وبذهنية تربوية تعليمية وسيناريو وحوار بارع وبمفارقات بسيطة غير متوقعة وشيقة يأخذنا الغزو أيضاً إلى حياة القرى وأخلاقياتها وقيمها في موضوع بسيط وغير معقد وعادي ليخبرنا عن فاعلية القيم وتماسك منظومتها وفاعليتها في تهذيب السلوك واحترام الأبناء لآبائهم ورسم سلوكياتهم.

في قصته الثانية بعد العاشرة(مسافات) يمضي بنا الغزو في مرحلة من التداعيات والمفارقات وبشفافية ورومانسية إلى الأحلام والحب الرجل والمرأة ذلك الحب الذي دخلت في مفرداته وطرائق التعبير عنه كل الألفاظ المتداولة بين أهل الريف كالحقل والطابون والجاروشة رغم بعد المسافات بين الحبيبين سواء كانت مسافات الزمان بعيدة أو المكان والتحولات.

وفي قصته الثالثة بعد العاشرة(وتدور عقارب الزمن) يتكئ الغزو على محور الحب في التفكير والتعبير عن مجمل ما يعتمل في دواخله من أفكار ومشاعر وبأسلوب الحوار والسيناريو أيضاً مصوراً كيف الحب يستطيع أن يدير أو يحرك عجلة الحياة مهما كان ثقلها أو وطأتها على النفوس وكيف أن الخيانة هي نقيض الحب وقاتلة الحياة مستفيداً من الساعة كتقنية فاعلة يستعين بها لتوصيل أرائه وأفكاره.

أما قصته الرابعة بعد العاشرة(أمواج الحب) يصور لنا الغزو حالة حب وانعكاساتها على الأم وإبنتها المحبة وكيف تتم تلك العلاقة في المجتمعات البسيطة والمغلقة ماضياً بنفس الأسلوب في إستعمال السيناريو والحوار والمفرقة في النهاية التي تعطي القصة رواء وحيوية حتى أخر كلمة فيها.

أما في قصته الخامسة بعد العاشرة(تداعيات امرأة رافضة) فيذهب بنا الغزو نحو اتجاهات جديدة في مضامين قصة إلى صميم حياتنا الاجتماعية بكل ما فيها من متناقضات في المفاهيم والقيم التي تلقي بظلالها على حياتنا من خلال التحولات التي طرأت عليها ومرت بها، مما يستدعي اتخاذ إجراءات وقرارات يفرضها رعب القيم والعادات والتقاليد الموروثة، وعقم المواجهة بين تلك القيم والمفاهيم والعادات والتقاليد وبين ما وصل إليه مجتمعنا من مستويات متقدمة في العلم والتحضر في أسلوب هو ذاته وبتقنيات هي ذاتها ملتزمة بالسيناريو والحوار وتيار الوعي والذهنية التربوية التعليمية غير المباشرة مبيناً عقم المواجهة بين الجديد والقديم لخضوع وخنوع الناس في النهاية لهيمنة القديم المتوارث على حساب ما رفدتهم به معطيات التعلم

والتطور الاقتصادي والاجتماعي من آليات مستعملا أداة التلفاز كوسيلة فاعلة وموحية في تقنيات القص كما استعمل من قبل آلة الساعة كمؤشر على الزمان.

في قصته السادسة بعد العاشرة (ومن الحب ما ظهر) يركز الغزو على صفات الكذب والنفاق والدجل وغيرها من الأمراض والمسليات السائدة في مجتمعنا والتي تمارس كحلول للمسائل والمشاكل والمعضلات التي تواجه الحياة الاجتماعية في أبسط مكوناتها وخلاياها وهي الأسرة وكيف أن الحياة المعاصرة قد تستدعي أو تستوجب القبول ببعض الحيل أو التنازلات من قبل الطرفين في سبيل استمرار الحياة أو مقابل أثمان لا تقارن مع الجرائم الحاصلة كجريمة الخيانة الزوجية.

أما في قصته السابعة بعد العاشرة والأخيرة(شروط موضوعية) في هذه المجموعة فيطرح فيها الغزو رأيه ورؤيته للواقع الثقافي والأدبي السائد وخاصة بين كتاب القصة رافعا صرخة مدوية في وجه الأدعياء والمزيفين والطارئين على هذا الفن وكيف أن غياب أو صمت المحترفين المتقنين في كل فن أو صمتهم على ما يجري حولهم يكرس رموزاً وشخوصاً وأساليب رخيصة وزائفة ومزورة بأسلوب الفهلوة والشطارة والعيارين وسيادة المعايير المضللة. لكنه طرح كل ذلك بأسلوب ذكي جداً وببناء واستدعاء شخصيات استطاعت أن تحمل أعباء رؤاه ومضامينه وأهدافه بأسلوب السيناريو والحوار وبنهاية مفارقة أيضاً معتمداً على نفس الذهنية والتقنيات التي مهر في استعمالها في تقنيات السرد.

نخلص من ذلك وبعد هذا الطواف في قصص هذه المجموعة إلى تأكيد ما ذهبنا إليه وبنينا عليه في بداية هذه القراءة من أحكام أوضحتها مطالعتنا لهذه القصص سواء من حيث خصوصية المكان والزمان والبيئة والشخصيات ودروها في بناء المعمار القصصي لدى يوسف الغزو وتوظيفه لها بشكل ذهني تعليمي واعٍ ومدهش مع الاعتماد على تقنيات السيناريو والحوار والآلات والدلالات وبلغة سهلة وبسيطة غير معقدة وبروح كلاسيكية في السرد وبمكنة وحنكة عالية في كتابة القصة القصيرة تنم عن مهنية عالية وبأسلوب يؤكد مقولة أن الكاتب أو الكاتب هو الأسلوب ولتصبح تلك الخصوصيات من أبرز خصائص فن السرد عن كاتبنا يوسف الغزو.

رواية(اللوحة)[1]
للأستاذ يوسف الغزو

نقد: بقلم الدكتور
عودة الله منيع القيسي

أراد الروائي الأستاذ يوسف الغزو أن يطبع في نفس القارئ أمرين أساسين: الأول - أن قناة الغور الشرقية إنجاز زراعي عظيم، حوّل الغور إلى جنة خضراء، تتضاحك أزهارها من أقحوان ودحنون وسوسن ....إلخ. ويجعل الفلاحين يشعرون بالسعادة لما يمنحهم الماء المتدفق في القناة من محاصيل مختلفة، فصليّة وسنويّة ودائمة. وما يطرئه على المنطقة من حركة دائبة، يأتي بها الحراثُ والتعشيب والحصاد وجني الثمار، وحركةُ الماكنات الزراعية والسيارات الشاحنة؛ الكبيرة والصغيرة التي تنقل المحاصيل من الغور، وتعود إليهم تحمل البضائع والمأكولات والمشروبات الغازية المثلّجة.

والأمر الأساسي الثاني أن(الحبّ) يتغلب على العقبات، وأنه يقع بين المتجانسين، كفريد ابن شيخ القرية عبد اللطيف؛ فريد الذي أنهى الثانوية العامّة، واشتغل كاتباً في ورشة في مشروع القناة، وكسحر ابنة سمعان صاحب القهوة في القرية التي أنهت الصف التاسع وكانت مغرمة بالمطالعة.

وقد نجح الروائي في عرض هذين الموضوعين من خلال القصّ والسرد والوصف والتحليل والحوار... هذه التقنيات التي تشدّ القارئ إلى

موضوع الرواية، وتجعله يواصل قراءتها بشوق ورغبة.

الناحية الفنية والناحية الأخلاقية في الرواية:

---

(١) نشر المقال في جريدة اللواء الاسبوعية الأردنية.

لقد نجح إلى حد كبير في الناحية الفنية، وتمكن من أن يؤصل لهدفي الرواية، بتقنية ناجحة، كما ذكرنا، وأسلوب مشرق فصيح، يُردّ به على دعاة العامية الذين يظنون أن الواقعية تقتضي أن يُنطق الناس بلسانهم، فيدور الحوار في مثل هذه البيئة الغورية باللهجة العاميّة.

وليس كذلك؛ لأن المهمّ- فنياً- أن تُنطق الناس بما يعرفون من معانٍ وأفكار، ولا تحمّلهم فوق ما يعون. أمّا اللغة فيحسن أن تكون الفصيحة التي هي لغة القرآن الكريم، والتي يتخاطب بها ويكتب بها كل المثقفين في العالم العربي، ويفهمها فهماً كل العرب؛ والدليل على ذلك أن نشرات الأخبار تذاع بالفصيحة في كل البلاد العربية، ويفهمها كل العرب، حتى الرعاة الذين يحملون مذاييع صغيرة في جيوبهم. وإلى جانب النشرة تفهم أشياء كثيرة مما يرسلها المذياع والتلفاز.

والدليل على ذلك أيضاً أن الأعمال الفنية التي تترجم عن اللغات الأخرى تترجم عادة بالعربية الفصيحة. ولولا أن اللغة- وعاء- يمكن تغييره ليأخذ الفنان منه ما يناسب مستقبل أمته، وما تطمح إليه مع الأيام... لما صحّ أن ننقل الفن من لغة إلى لغة؛ لأن الإنجليز- مثلاً- الذين ننقل عنهم لا يتكلمون اللغة العربية، وإنما يتكلمون -كما هو معروف- اللغة الإنجليزية. واللغة- وعاء- كما قلنا كلما ابتعدنا عن الأسلوب المكثف المركب كأسلوب الشعر، واقتربنا من الأسلوب البسيط كأسلوب العلم، وأسلوب الأعمال الروائية إلى حدّ كبير.

ولهذا... تصعب ترجمة الشعر، لأسلوبه المكثف، وتستحيل ترجمة القرآن الكريم، لأنه الذروة التي لا تدانى في البلاغة، وتسهل ترجمة العلم وترجمة الأعمال الروائية. وإن ترجمة الأعمال الروائية أسهل من ترجمة الأعمال القصصية، للفرق بين النوعين في كثافة الأسلوب.

ومع نجاح الروائي إلى حدّ ما في الناحية الفنية، فإن عليه مآخذ كثيرة في هذا الجانب نورد بعضها، بعد قليل.

أما في الناحية الأخلاقية، لا من منظور الناس في الريف أو المدن الذي غطاه كثير من الغبار، خلال العصور التي ابتعدت فيها المجتمعات العربية عن الإسلام... ولكن من منظور الإسلام الصافي الذي يُفهم من القرآن الكريم والحديث الشريف... فلم ينجح الروائي! لقد إنساق وراء عادات الناس وتقاليدهم التي كونتها عصور الظلمة والأمية والتخلف. ووراء الآراء الوافدة من الغرب التي لا يقرها الإسلام، ولا يقبل بها أنواعَ سلوك في منهاج الحياة الذي يستميح خطوطه وألوانه من القرآن الكريم والحديث الشريف.

وسنعرض لهذا ... بعد أن نعرض بعض الهفوات في الجانب الفنّي.

من هفوات الجانب الفني:

١- الرواية كلها تخلو من همزات القطع، ومن التنوين، وكأن الروائي صاحبها... لم يراجعها، بعد أن خرجت من مطبعة بدائية يعمل فيها أناس جهلاء في اللغة. وهذا عيب كبير على رواية كتبت بلغة عربية مشرقة. إذ لا يجوز أن نستهين بهذا الجانب الإملائي لما له من أثر على صحة القراءة عند القارئ العادي. والروايات- بشكل عام- لا تكتب للمثقفين وحدهم، وإنما هي فنّ شعبي يراد منه تثقيف الجمهور الذي يستطيع القراءة. ولا شك أن سوء الإملاء ينزل بهذا الهدف المعتبر.

٢- يقول عن فريد- ص٩-:" يريد أن يتفرغ لهوايته التي ملكت عليه فكره وخياله" هواية الرسم." لم نجد فريداً قد رسم ولو لوحة واحدة، قبل أن يرسم لوحة الغور بعد أن إزدان بالخضرة، بعد مدّ قناة الغور الشرقية. كان يمكن أن يرسم صورة لينبوع الماء تحيط به الأشجار والصبايا الواردات، أو لوحة لجزء قناة الغور الشرقية، والعمل جارٍ فيها، أو لوحة لمنظر في عمّان التي سكن فيها سنوات يطلب العلم أو لوحة لأبيه.... إلخ، ثم يطلع على هذه اللوحات أصدقاءه كسعيد، او حبيبته سحر أو بعض الفنانين الراسخين الذي يستطيعون أن يسددوا أخطاءه.

لا يكفي أن يذكر في عدد من المواطن في الرواية أنه كان هوايته الرسم، لان الصنعة تبدو على صانعها، بل لم تذكر الرواية أنه قرأ لبعض نقاد الفنّ أو اطلع على معارض أو لوحات ليتثقف في مجال هوايته. كيف يستطيع أن يرسم لوحة عظيمة للغور، وهو لم يتمرس بفن الرسم ولم يطلعنا على رسومات له تسبق هذه اللوحة؟ طبعاً، يستطيع القارئ أن يملأ هذا الفراغ بخياله، ولكنه من خارج العمل الروائي، يحسب على العمل الروائي ولا يحسب له.

٣- تقول الرواية عن فريد عندما يأتي إلى أهله-ص-: " يحترمون صمنه، لأنه لا يزال ضيفاً بحكم غيابه الطويل عنهم. فهو يواصل دراسته الثانوية خارج القرية منذ أعوام". أي في عتمّان، في حي ماركا في غرفة واحدة، يسير إليها في طريق ترابية صاعدة كما تذكر الرواية. ونقول: لماذا يغيب طويلاً وهو صبي لم يُنهِ الثانوية العامّة. وعمّان ليست بعيدة عن الغور، والباص يصعد في الصباح من الغور ثم يعود إليها في المساء كل يوم؟ هذا تقرير غير مقنع.

ومثل هذا كثير مما يصور فريداً لا يزور القرية إلاّ لماماً:" واللحظة المناسبة في اعتقاده هي التي ينتهي فيها من دراسته، ويعود إلى قريته ليستقرّ فيها، هادئاً متأملاً، ممارساً هوايته المفضلة، بعيداً عن

صفحات الكتب، ومصاعب الفحوص وضوضاء المدينة" ص١٠- ونقول هذا الوصف يليق بمن أنهى الدكتوراة مثلاً، وأراد أن يستجم في قريته، لا من أنهى المترك، أدنى شهادة علمية في الأردن!

وفي الصفحة التالية؛ الصفحة الحادية عشرة يتحدث الروائي عن عودة فريد إلى قريته، واستعجابه أن كل شيء في مكانه بقول:" سبحان الله! كل شيء في مكانه، الطاحونة القديمة على جانبي الوادي، السفح الأخضر الذي يزرع بالخضار المخصصة لاستهلاك أهله وجيرانه، خزان الماء الصغير، والنبع الشاحب الذي يزوره، الأعشاب التي تنمو على حافته، الطين الجاف المترسب في قاعه، الفتحة المستطيلة التي تغلق وتفتح حين الحاجة......".

هذا يعني أن الصبي يدرس في باريس أو واشنطن ولم يزر أهله من عشر سنوات، وليس في عمّان، لا يغيب عن أهله أكثر من شهر على أحسن الفروض، إن لم يعد إليهم كل نهاية أسبوع!

ومثل هذا كثير، لو أردنا أن نتابعه لسودنا به عشرات الصفحات. ولمننا- للإختصار- نكتفي بحادثة واحدة إضافية:

جاء سمعان صاحب المقهى إلى هذه القرية، ومعه ابنته الصغيرة سحر. مدعياً أن زوجته قد توفيت. والحقيقة التي تذكرها الرواية أن زوجته، واسمها نعيمة، لم تمت وإنما طلّقها، فقد رجع من عمله في القهوة في عمّان، على غير موعده، فوجد امرأته عارية الكتفين، وهي تجلس أمام رجل غريب يرسم لها صورة، فلم يفهم من هذه الحادثة إلاّ أن هناك علاقة جنسية بين امرأته وبين الرجل الغريب.. فطلقها بهدوء، وأخذ ابنته، وهاجر إلى هذه القرية التي فتح فيها القهوة. وأصبحت سمعة مطلقته- نعيمة- في مهب الريح يلوكها كل انسان يعرفها. ومع هذا بقي أهل القرية لا يعرفون سوى ما قاله سمعان أنها ماتت.

أيصح مثل هذا الكلام؟ لو أنه هاجر إلى أمريكا لكان ذلك ممكناً، ولكن أن ينتقل من عمّان إلى الغور، ويعيش فيه أكثر من عشر سنوات، دون أن تُعرف الحقيقة في القرية... فذلك مستحيل يدل على غفلة في تقديم الحدث، ولا سيما أن المرأة أصبحت صاحبة فندق- الأمل- في عمّان، وأن مئات الناس يعرفونها ويعرفون قصّتها!

يضاف إلى ذلك الروائي لخص قصته- نعيمة هذه- في علاقتها الزوجية، وحبها للفنان الذي كان يرسم لها صورة، وطلاق زوجها لها، وزواجها من رجل عجوز، وإرث الفندق عنه، وقيامها

بإدارته. من الصفحة المئة والعشرين إلى الصفحة المئة والثامنة والعشرين. وهذه قصة أخرى تصلح أن تكون موضوعاً لرواية أخرى. لقد كانت عبئاً على الرواية الأصلية، وورماً زائداً أثقل نهاية الرواية وأفسدها. كان يجب أن يسكت الروائي عن هذا الملخص، وأن يُبقي على المعلومة المعروفة في مجتمع الرواية، وهي أن زوجة سمعان، أم سحر قد ماتت.... هذا... أدعى إلى نجاح نهاية الرواية، وانتهائها نهاية طبيعيّة ترتاح لها نفس القارئ.

الجانب الأخلاقي:

والآن نصل إلى الجانب الأخلاقي بعد أن عرضنا شيئاً مقبولاً من الجانب الفني:

١- عندما أرسل عليان، جابي الباص جاهة إلى أبي سحر يرأسها الشيخ عبد اللطيف، مختار القرية، أبو فريد، لم تقبل سحر بالخاطب، وادعت أنها لا تريد الزواج في الوقت الحاضر (ص٨٠).

وعند سمع فريد –بطل الرواية، أبن الشيخ عبد اللطيف أن عليان عرض الزواج بوساطة وجوه القرية، أراد أن يعرف الامر من أبيها سمعان. وعندما جلس قُرْبَهُ في القهوة تشعّب الحديث حتى وصل إلى سحر، فأخبره سمعان بالخطبة وبرفض سحر، وبعد حديث طويل عرض فريد على سمعان أن يقنع سحر بالخطبة، فدعاه إلى الغداء. (ص ٨١) ولكنه لم يقنع سحر، فعندما رأى أنها لا تقبل بعليان عرض عليها الزواج منه: "قال وكأنه يكمل لذّته الطفولية"- لأنني أنا الذي سيتزوجك، وأنا الذي يحبكِ."(ص ٨٨).

ومع أن الروائي حاول أن يدافع عن فريد بأنه لن يعرض عليها الحب والزواج حتى يعرف منها أنها لا تقبل بعليان زوجاً، (ص ٨٤) فإن في ذلك خداعاً، كان يجب أن يسلك الطريق الواضح، وأن يقول لأبيها "إذا لم تكن تقبل بعليان، فأنا مستعد أن أطلب يدها إذا لم يكن عندها ممانعة. ويمكن أن يُعرف ذلك بلقاء ثلاثي؛ أنت وسحر وأنا." لا أن يقول له بأنه مستعد أن يقنعها، وهو يحاول، في حقيقة الأمر، أن يجّس نبضها، كما يقال. يقول الروائي عن فريد:

"أمام هذه الحقائق كلها، أحّس برغبة ملحة في لقاء سحر، والتحدث إليها، فماذا يفعل؟ لم يجد أمامه سوى ذلك السبيل، فعليه أن يسلكه." (ص ٨٤) أي سبيل الخداع.

قد يقال: أليس الخداع موجوداً في الحياة عند بعض الناس، فلماذا يتجنبه الروائي؟ فنقول: إن الخداع موجود في الحياة حقاً، ولكن لا يفعله الناس أمثال فريد الذي وصفه الروائي بأنه شاب مثالي! هذا تناقض في رسم شخصية البطل (فريد)، يعاب على الرواية. ونقول أيضاً: إن الروائي

-أيّ روائي -يمكن أن يذكر عن شخصية من شخصيات روايته سلوكاً خادعاً. ولكـن عليـه في مشهد آخر أن ينفر الناس مـن الخـداع، عـن طريـق بعـض الشخـصيات التـي تكتـشف الخـداع فترفضه. لأن الروائي -والفنّان عامة -يقبل على العمل الأدبي، وهو صـاحب منظـور اعتقـادي خاص، على ضوئه يعيد "تشكيل" الواقع، وإلاّ، فإن الفنّان الـذي لا يفعـل ذلـك لـيس صـاحب "رسالة" يقدمها إلى الناس ويحاول أن يقنعهم بها. وإلاّ، أيضاً، لما كان هنـاك مـن فـرق بـين فنـان شيوعي، وفنان رأسمالي، وفنانٍ إسلامي في وصف كل منهم للواقع! الحقيقة الأكيدة أن كلاًّ مـنهم يعيد "تشكيل" الواقع من وجهة نظره، ومن منظوره الاعتقادي.

٢- انفراد شاب بفتاة غريبة، أو خلوته بها:

جلس فريد مع صاحب القهوة سمعان، وخـلال تـشعب الحـديث سـأله عـن ابنتـه سـحر، فأخبره أنها مغرمه بالمطالعة، ولكنه قال:

"- سوف أخبرها بوجـودك، ولا أظنهـا ستفـضل الكتـاب عـلى رفيـق طفولتهـا،" ص ٢٥.

وتساءل فريد: "، كيف يدعو (سمعان) إبنتـه لمقابلـة شـاب غريـب؟ وكيـف يتحـدث عـن هـذا الموضوع دون مواربة أو حرج؟. لم تكن تلك التساؤلات تشكل أساساً لموقف فريد في الحياة. فهـو لا يرى مانعاً أن تقابل الفتاة الشاب وتتحدث معه، سـواء أكـان ذلـك في القريـة أو في المدينـة. ولا مانع أن يبارك الوالدان أيضاً هذا اللقاء؛ فالفتـاة التـي أُحـسنت تربيتهـا، والـشاب الـذي أُحـسن تهذيبه، لا يشكلان أي خطر اجتماعي عند اللقاء- منفردين -أو بين مجموعة من الناس. لـذا، فقـد كبر في نفسه موقف سمعان، بل تمنى أن يتطبع كل أهل القرية بطباعه". (ص ٢٥، ٢٦).

أمّا أن يلتقيا منفردين أي في خلوة، فذلك ما لا يقرّه الإسلام الذين نـدين بـه، الروائـيّ وأنـا؛ لأن الرسول -صلى الله عليه وسلم- يقول: "ما خلا رجل بأمرأة إلاّ كان الشيطان ثالثهما".

فكيف يقول الرسول الكريم ذلك ثم يأتي كاتب مسلم يبيح الخلـوة بـين الـشاب والفتـاة، أو بين الرجل والمرأة بشكل عام؟

إن كُتّاب الرواية في العالم العربي (وكذلك الشعراء، وغيرهم من الفنانين) قد تـأثروا بـالروائي نجيب محفوظ الذي حـصل عـلى جـائزة (نوبـل) والـذي لا يـدين بـالقيم الإسـلامية والتـشريع الإسلامي، بل أخذ تصوره للحياة من ثلاثة مصادر: شيوعي وغربي وإسلامي، فهو يرى أن نظـام

الاقتصاد يجب أن يقوم على النظام الاشتراكي المشتق من الفكر الشيوعي، وأن تكون –الحرية الشخصية –مُباحة، وعلى ذلك، فللإنسان أن يكون بلا دين أو أن يؤمن بأي شيء يشاء، ذلك راجع للحرية الشخصية. وعلى ذلك، فقد أخذ بالتصور الغربي للحياة، والسلوك فيها، ومن المعروف أن التصور الغربي يبيح لقاء الشاب بالفتاة، وانفراده بها، بل يحثّ عليه. وأكثر من ذلك، فإن التصور الغربي الحديث قد أباح ممارسة الجنس كاملة بين الفتى والفتاة، قبل الزواج، وحثّ عليه. لأن الشاب الغربي –نتيجة هذا التصور- لا يقبل أن يتزوج من فتاة عذراء!

لأنه، من ناحية، يعتبرها كالطفلة ليست بذات تجربة وخبرة في أمور الحياة وأمور الجنس خاصة! ومن ناحية أخرى، يعتبرها شخصية انطوائية منعزلة، غير قادرة على صنع علاقات الاجتماعية، والجنسية خاصة. نعم، تأثروا بالروائي نجيب محفوظ، وبالمصدرين اللذين استقى منهما تصوره السابق إضافة لهما الإسلام، لما جرؤ كاتب مسلم على أن يبيح الخلوة بين الفتى والفتاة، ومهما كانت التربية جيدة لأن التربية لا تكفي وحدها، فخالفا قول الرسول الكريم السابق، والله تعالى يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (الحشر: ٧)، ويقول: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (آل عمران: ١٣٢). ويقول: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠).

دعك يا أخي يوسف من دعاوى العلمانيين الذين يقصدون تخدير المسلمين البسطاء بقولهم: "فالفتاة التي أُحسنت تربيتها، والشاب الذي أُحسن تهذيبه، لا يشكلان أي خطر اجتماعي عند اللقاء منفردين." وانزع ذلك ومثله من روايتك، أو إِيتِ بمشهد آخر لشاب مثقف آخر ينقض الادعاء السابق، واستغفر لذنبك! الحقيقة أنّ الشاب عندما يخلو بفتاة ينصب معظم وعيه على جسدها، وعلى لوازم وأماكن الجنس في هذا الجسد، بل إن الرجل الكبير، في الأربعين والخمسين وما فوقهما إذا "خلا" بامرأة جميلة يحصر معظم تفكيره في الجنس!

ولا تلتفت إلى مزاعم العلمانيين والماسونيين واليهود الذين يتهمون المسلمين بأنهم لا يرون المرأة إلا من خلال الجنس. هذه رؤية جميع الرجال، في كل العصور، ومن أي عقيدة كانوا وإلاّ، فلماذا قال فرويد عن الجنس، ما قال؟. والذين لا يعترفون أنهما يريدون للمرأة أن تخرج "سافرة"، وأن تجالس الرجال، وأن تذلل طرق الخلوة لهم، بل تذلل طرق العلن، عن طريق الخمرة والرقص والغناء، ليكون ذلك وسيلة إلى الخلوة! وما يتبعها من منكر!

إن الإسلام العظيم، اعترف بأهمية الجنس في حياة الرجل والمرأة. ولهذا، شجع على النّكاح لا السّفاح، فقال الرسول الكريم، مما قال: "يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج" وقال القرأن الكريم مما قال: ﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ (النور: ٣٢).ولهذا، حرّم الخلوة كما أسلفنا، بأعتبار تجنبها وسيلة من وسائل الضبط والنظافة هذه الوسائل التي منها التربية الصالحة، واجتناب المحرمات. ولهذا قضى بجلد كل من الزانية والزانيْ اللذين يخرجان على سلوك المجتمع الإسلام النظيف، مئة جلدة، قال تعالى: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النور: ٢) وليشهدوا ذلك للعبرة والعظة.

٣- ومن تصورات الكاتب الغربية التي تشبه السلوك السابق، أنه أباح لفريد أن يلتقي بسحر قبل الخطبة؛ لقد رآها عليان الذي أراد أن يخطبها، تحت شجرة الدفلى القريبة من الخزان: "لقد شاهدها في ذلك المكان، ولكنها لم تكن وحدها، كانت برفقة شاب يعرفه تمام المعرفة، فريد بن عبد اللطيف، يضحكان ويتناجيان، ويهمس كل منهما للآخر بكلام" (ص ٩٤). وهذه مرّة من مرات عدة التقيا خلالها في هذا المكان.

٤- وأنه أباح لفريد بعد أن خطب سحر، أن يسافرا معاً إلى عمان (ص ١٢٥) كأن الخطبة تبيح مثل هذا، إن الخيطبة غريبة على خطيبها حتى يسمح الأهل أي ولي الأمر بالدخول، معلناً ذلك على رؤوس الأشهاد. وما أكثر الخطبات التي فسخت قبل أن يتم الزواج!

٥- وأنه أباح لنعيمة أن تقابل أنور، الشخص الذي أحبها وأحبته، قبل أن تتزوّج من سمعان، وأنها اتفقت معه أن يأتيها في بيتها في غياب زوجها، وهو في القهوة، لكي يكمل لها رسم الصورة التي بدأ رسمها قبل أن تتزوج، أيام الحب: "وخلال لحظات كان الاتفاق قد تم أن يحضر هو إلى منزلها، ساعة أو ساعتين، يومياً، بغياب زوجها! وقد وعدها أن ينتهي من هذا العمل، خلال أيام قليلة."(ص ١٢٣)

وفي اليوم الذي أوشكت فيه اللوحة على الاكتمال، وقع المحظور، وحضر سمعان إلى البيت في غير موعده، وشاهد زوجته تجلس أمام رجل غريب كاشفة عن كتفيها الجميلتين، والرجل الغريب يحدق في مفاتنها الأنثوية الفاتنة، وبنظرات لم يستطيع سمعان أن يفسرها إلا على وجه واحد،"(ص ١٢٣).

أليس هذا السلوك سلوكاً غريباً، أنجز بمثله كثير من الفنانين هناك لوحاتهم التي صوروا بها النساء؟!

وأخيراً نقول: إن الروائي يوسف الغزو قد أحسن في استعمال الفصحى؛ لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، اللغة المشتركة بين العرب، وفي جميع أقطارهم.

وقدّم وصفاً وسرداً وتحليلاً وحواراً، حيّاً، أمتع به القارئ الغفل الذي لم يطلع على الروائع العالمية، وفي مجال الرواية، أو الذي لم يكن صاحب فكر إسلامي حسّاس للقضايا الأخلاقية. وأدخل إلى نفس القارئ أن قناة الغور الشرقية عمل عظيم. وأن الحبّ قادر على التغلب على جميع العقبات، والانتصار في النهاية.

أمّا من ناحية أخلاقية، فالروائي وقع في مطبّات تناقض الإسلام. لأنه -ككثيرين غيره في الوطن العربي- تأثر بتصور الروائي نجيب محفوظ، عن الحياة عامّة، وعن المرأة وعلاقتها بالرجل خاصة، وهو تصور غربي. ولهذا التصور الغربي، فضّل نجيب محفوظ العلاقة مع إسرائيل، على العلاقة مع العرب، لأن إسرائيل -كما قال في جريدة الأهرام المصرية، غير مرّة- تمثل الحضارة، والعرب يمثلون البداوة!

كان على الروائي يوسف الغزو -المسلم الطيب- أن يقدم تصور الإسلام عن الكون والحياة والإنسان، على كل تصور آخر، غربي أو شيوعي شرقي.

وبالله نستعين.

* قراءة في قصة (عامر) ليوسف الغزو[1]

بقلم الأديبة منيرة شريح

ورده في الخريف مجموعة قصصيه للقاص والروائي الأردني "يوسف الغـزو" وهـي تتـضمن قصة بعنوان: "عامر" تعكس فيها تعكسه قدرة الكاتب على أن يصوغ قصة بالغة الاتقان مـن أجـل أن تؤدي المضامين التي يُريدها خير اداء. وهي اضافة إلى ذلك تضعنا في قلب الشروط التـي تـنظم علاقات الرجال بالنساء في مرحلة بعينها، من مراحل التطور الاجتماعيُ والـسياسي الـذي يعيـشه عالمنا العربي. وتكشف لنا تلك العبثية الضاحكة التي تتسم بها هذه العلاقات.

تبدأ القصة بدخول مارد عملاق على عامر وامه وزوجته. ويتساؤل منه غاضب ينفجر:

- أنت عامر؟!، الويل لك أن كنت هو.

وهي بداية صارخه، توحي بالبطش الشديد المفاجئ الذي لا يملك الفرد له دفعاً. فهـو اشـبه ما يكون بالزلزال الذي لا يتوقعه أحـد، والـذي لا يـضبط ردود الفعـل عليـه الا منطـق الغريـزة والبديهة. فإما الفرار وأما الذهول بلا حراك، حتى يقضي الله امراً كان مفعولاً.

ولأن المسألة هنا متعلقة بالعلاقات الانسانية لا بالكوارث الطبيعية فقد الهمت "عامر"بديهتـه أن ينكر نفسه قائلاً:

- لا يا سيدي لست عامراً.

ثم تقدمت زوجته بدور وكأنما هي التقطت بحسها الانثوي روح الموقـف فقالـت: "لـو كـان يحمل اسم عامر ما تزوجته." ثم فسرت ذلك بقولها:

- لأنه اسم قديم ويوحي بأنه كان خربا ثم عمر، وأنا لا أحب الا الجديد لم يبـق الا أن اتـزوج رجلا بهذا الاسم.

(١) نشر المقال في العدد ٨٦ من مجلة افكار.

ثم تتقدم امه مؤكدة أن ابنها ليس عامرا، وانها حين ولدته اقترح بعضهم أن تسميه عامر، فرفضت، لأن هذا الاسم على وزن غادر وعاثر وداشر وجائر وهي اسماء توحي بالغدر والخيبة. ثم تنهي حديثها قائلة:

- المجنونة أنا يا بني –والحديث للمارد– كي اسميه بهذا الاسم؟

أننا هنا أمام عبثية ضاحكة يرسمها الكاتب بدقه وصنعه محكمة، وهي عبثية تأخذ مداها حين يسأل المارد: "ما أسمك أذن؟".

فينسى عامر أنه كان أنفا قد أدعى بأن اسمه هو عدنان فيقول مرتجفاً.

- عواد يا سيدي، فيقول المارد غاضباً:

- وعدنان؟

وتدرك الزوجة حراجة الموقف فتتصدى للاجابة مازحة:

- لا تدقق يا سيدي. عدنان، وعواد. كلها حرف العين.

وندرك نحن بدورنا أن الكاتب يرسم الموقف رسماً، ويصعد العبثية فيه إلى درجاتها القصوى في محاولة لبيان قدرة الكلام على كل انواع التلوّن، وعلى أن يكون حاملاً لاوجهٍ مختلفة من المعاني. قابلاً أن يكون درعاً واقياً في وجه القوة الباطلة التي لا يملك الإنسان امامها حولا ولا طولاً. ولعبة اللغة تعكس قدرة الإنسان على التحايل وعلى مواجهة الظروف. فهي سلاحه حين ينعدم السلاح، ومخبأه حين تنكشف مواقعه، وملاذه الاخير حين يعوزه الملاذ. ويتعزز هذا الفهم حين تنقلب الآية ويأتي رجل آخر يقول بصوت رقيق:

- هل السيد عامر هنا؟ له عندي جائزة وبشرى.

فمع اختلاف الموقف تختلف اللغة، ويتحول الكلام عن وجهته الأولى فنرى الام تقول وهي تؤكد أن ابنها هو عامر نفسه صاحب الجائزة:

- هل هناك اروع من هذا الاسم يا بني؟ عامر يوحي بالعمران والعمر المديد، وهو على وزن الفرس الضامر والفرح الغامر، والولد الشاطر.

كما ترى الزوجة تقول:

- صدقني يا سيدي. لو لم يكن يحمل هذا الأسم ما تزوجته، فقد كان عامر هو فتى الاحلام الأسر، في عينيه ابحر واسافر، وإلى دنياه الجملية اتوق واهاجر.

ويذكرنا هذا كله بمسرحية "الكرسي" ليوجين يونيسكو "الكاتب الفرنسي حيث تكثر العاب اللغة، ويعول عليها في اكتشاف عبثية العلاقات الانسانية على أنني مهتمة هنا بالاسس النفسية التي تدفع الام والزوجة إلى الدخول في هذه اللعبة، وإلى علاقة ذلك بالواقع المأساوي الذي ظل العالم العربي يحياه قروناً عديدة.

لقد اعتادت المرأة العربية اخفاء زوجها أو ابنها أو أخيها عن أعين طالبي سواء كانوا أصحاب ثأر، أم رجال سلطة أم دائنين بطريقة أو بأخرى تحيط بالوان من الحماية، وتضطر في سبيل ذلك إلى انماط من التحايل بعضها غريزي وبعضها مكتسب، وبخاصة حين تكون المجتمعات بلا رابط وتكون الفوضى هي السائدة، ويغلب قانون الغابة شريعة الانسان.

أن للأم والزوجة امتدادهما لها في حياة الرجل. تبسط ظلها على ابنها، وتقيه الاخطار الخارجية بكل ما تستطيع من قوة ووسائل.

ولعل الكاتب قد أراد أن يقدم لنا هذه الحقيقة الانسانية في هذا الاطار الذي استخدم فيه العاب اللغة، وجعلها ما يلجأ إليه الإنسان في مواجهة القهر والاستلاب.

كاتب يسعى إلى تاريخ الأردن في الرواية
الغزو: الكاتب الحر يسرج الفكر والقلم رسالته في الحياة[1]

حاوره – إبراهيم السواعير

يرى الكاتب الأردني يوسف الغزو أن "الأردن مظلوم روائياً، وان هناك من يتجاوز عنصري الزمان والمكان فيما يكتب؛ فيلغي خصوصية الرواية الأردنية في"تنكب" طريق التجديد، دون "تحديق" في جملة التحولات التي يمكن الاستناد إليها ضمن محوري الإبداع والأصالة".

ويشير مدير تحرير مجلة الكاتب الأردني، الصادرة عن اتحاد الكتاب والأدباء والأردنيين إلى أن "الرواية عالم قائم بذاته، ويحتاج. فيما يحتاج. حقبة تاريخية ذات خيط قصصي يمكن أن يلامس جملة التحولات المعاشة، وينطلق من خلالها".

وينطلق المولود في عجلون عام خمسة وأربعين، وصاحب المجموعة القصصية "القارب"، وروايات "الصديقان". "اللوحة"، "ثقوب في الجدار" من "أن الكاتب صاحب رسالة عليه إبلاغها، وأن لم يفعل فعليه أن يكسر قلمه، وينام مع النائمين!".

ويبدي الحائز على ميدالية الحسين للتفوق الأدبي في القصة القصيرة عام خمسة وتسعين، والمتخصص في أدب الطفل، وكاتب العديد من البرامج الدرامية التلفزيونية، رغبته بالتفرغ لمسألة "التأريخ الروائي" في الأردن منذ بدايات عام خمسين؛ ذلك من خلال روايات تؤطر مراحل زمانية، ومكانية متباينة. وحول هموم الكتابة وانشغالاته الابداعية، اجرت "الرأي" الحوار التالي مع الغزو:

* نراك بعيداً عن القول حدّ الجفاء؛ فما يشغل الكاتب المخضرم عن "بعض" دور له في الحياة؟!

---

(١) نشر الحوار في جريدة الرأي عدد ٢٨/ ٦/ ٢٠٠٥.

- كتبتُ كثيراً، ولمّا تعدّتْ مقالاتي "الألفَ" قلتُ لعلّي حدث عن الـدرب يومـاً، لعـلّ المقالـة تعبث بالقول أو تشتهيه؛ فما كان مني سوى أن "لويت" العنان لأنهض بالواقع المر، فأعتقـد القـوم أني فقدت اتجاهات "علم الكتابة"، أو أن "بوصلتي" لم تعد تستقيم، وأن الكتابة قد تستحيل!.

وما اعنيه بوضوح أن الكتابة ليست سوى زرع سنبلة في الحقول، وليست سوى بعـض حـب الدواء، وأن مهمتنا في الكتابة —حسب الذي قـد خبرنـاه —سـد ثقـوب الجـدار، ورد العواصـف والعاديات. وقد وهم البعض أن الكتابة، أعني السياسة، صنو التشنج والإنغلاق، فـراح يعاضـل دون التفات سويّ للعيوب، أن كل "حميد" نـشير إليـه يعـزّزّ فكـراً، ويمـنح ثـوب الـسياسة لونـاً جديداً يساهم في دفعه للأمام: فتربية الطفل، والسعي للعلم، والعمـل المخلـص، الفاعـل، الحـر، والزرع في الأرض لُب السياسة دون نقاش؛ وما شتم "شارون"، أو لـوم "بـوش" وإثبـات مهـدِ "عروبية القدس" برهنة للحقوق؛، ومن شك أصلاً بتلك الحقوق؟!، على الكاتب الحر أن يـسرج الفكر، والقلم الحر ضمن رسالته في الحياة، وإن لم يستطع فهو موت قريب!،

* وكيف تقاوم موت النصائح في الزمن المرّ، والقوم قد غرقوا في الرمال؟!

- سؤالك بنبىء عن بعض هم؛، لدي من النصح كم وفير، ومن "سبل" القول مـا أستطيع بـه أن أقول الذي أبتغيه:

وضعت "مداميك" في القصة التي قد كتبتُ، ومع أن بث الرسالة كان بطيئاً، فـإن "التغلغـل" جاء أكيداً، وحقق ما كنت أسعى إليه.

صحبت الإذاعة قبل الثلاثين عاماً، وكان المسلسل يفعـل فعـل الحـروب العظـام، كتبـت لـــ "تلفازنا" ما يزيد على "مائة" ضمن مقياس ساعاته تلـك، ثـم توجهـت للطفـل، ذاك المهمـش في كل شيء؛ فخاطبته —وهو عدّة أيامنا القادمات. وقد حَظي الطفل مني بخمسة وعشرين مخطـوط تربية أو سلوك. كتبت مقالتي الأدبية في غير لونّ، ضمن المتاح هنا، أو هناك!.

وتأتي الرواية دَيدني الحرّ، إيحائي الحرّ، منفذي الحر، ترساً قوياً لـرد الرمـاح، ورد الريـاح عـن الجسد المستكين المعلقّ تحت السماء، وفوق التراب!.

* خلال الثلاثين عاماً كتبت الثلاث روايات دون سواها؛ فما سر هذا الخفوت؟!

- سبيل الرواية ليس يسيراً، ويحتاج عالمُه كي يقوم لتاريخه الفوضوي المنظم في "الاجتماع"، و"جمر السياسة" و "الاقتصاد"، وإن وجد الخيط في لظم هذا بذاك، فإن الرواية سوف تقوم!

لأنك حين تروم الرواية لا بدّ أن تحتفي بالمكان، ولا بد أن يحتويك الزمان، فأنت تؤرخ للعنصرين على كوكب الأرض، لا خارج الأرض في كوكب المشتري أو زحل. وأنت بهذا تحرك سيل "المداد" قليلاً لترصد ما فات دون جفافٍ، ودون تملّقٍ أو إنحناء!

* وهل حقق الأردني الروائي تلك الشروط، أم انزاح "منفلتاً" بالجديد؟!

- تظل الرواية تتبع في سيرها للمكان؛ فتطفو خصوصية الروح في عمق ملمسها للجروح، وتاريخ تلك الجروح الصعاب، وتبقى الرواية سراً دفيناً يعمقه الإنتماء المرير؛ و"تجنيسها" ليس غير ارتباط ببعض المفاهيم والإتجاهات، ضمن فضاء تحدده "هيمنات" الزمان، وظل المكان، وبوح التمرد، والإحتواء!

ويمكنني القول أن الرواية لم تستطع أن تغطي الزمان، وظل المكان، وقد ظلم الأردني الروائي تلك الجذور، وأعرض عنها بدون اهتمام، وسار "يلملم" في سعيه ذاك شعث الفراغ، ونيل الخواء!

ويغيب عن البعض أن "المجدّد" قد يتنكب درب الرواية، أو قد يثور على ما يراه؛ فيمضي إلى القول أن الإطار عتيق، وأن التحول بات وشيكاً، وأن ثراء الرواية ظل سقيماً بدون انفلات من "الزمكان" المقيت، البغيض،! وأن مسيرتنا لم تبارح تقاليدها الماضيات بلا نزعةٍ للوثوب!.

وأُحدق كل صباح جديد يرفُّ على العين رف السنين على الراسخ الطّود، والريح تقتلع الثابتين، و"سود" الغيوم تؤجج في النفس طول النظر!

وقد كنت حدقت من قبل، إذ كنت طفلاً يداعبه الشوق نحو الجديد، فتقلع عينيه "حمى" الحياة، ليهفو إلى حلم لن ينال!

كتبتُ "الصديقان"، وأرخت بـ "اللوحة" الزمن المر، حيث معاناة قريتنا في بداياتها عام سبعين، أو ما تلاه، وعام ثمانين في "طفرة" غيرت نظرة الناس نحو الحياة، ونحو اقتصاد جديد! وأذكر أني تناولت سر وجوم الفتاة، وقلة وعي المحيطين يوم تردت ضحية جهل والمفاهيم في كل مطمح لها، أو خلاص!.

أؤرخ فيما أقوم به للحياة، وأبحث عن سرّ خذلانها بين زهو الجديد، وجمر القديم، وأصدر عن نفس لا يموت! وأذكر أني كتبتِ "ثقوب الجدار" وقد صدرت عن أمانة عمان عاصمة للثقافة عام ألفين واثنين، وحازت على لهفة الناقدين، وكانت مثار حراك أصيل، ولكن! تجاوزتها الصحافة دون اكتراث!

* وماذا عن مشاريعك المقبلة؟!

- لدى مشاريع! وأول تلك المشاريع سعيٌ حثيث لـ "تأريخ" "الأردن" في الرواية منذ بدايات "خمسين" حتى السنين الأواخر من بعد "ألفين" في شكل سلسلة من رواياتي التي أرتجي أن تمر على كل تلك المراحل دون فراغ، ويسعفها في سعيها ذاك خيط مضيء يقص علينا فضاء الهجير بأسلوبه النافر المستقل!، فجاءت تباشير "قطر الندى" في نهايات "خمسين" مرحلة أرخت "نضج" حقبتها عبر سبع السنين التي جسدت بصمة لا تزول! ويحتاج هذا عناء كبيراً، وجهداً يجاوز خمس السنين، وأرجو بأن أتمكن في فسحة العمر من أن أتم مساراً أراه قريباً على الصادقين وإني لأرجو دعم الجميع، بإيصال سلسلتي للجميع، وكسر حواجز صمت طويلٍ توالت عليه سنون طوال!.

"تايكي" للغزو
شفافية فن السرد وسطوة الواقع[1]

عرضها – إبراهيم السواعير

تتناول رواية يوسف الغزو الأخيرة، "تايكي"، الحقبة التاريخية من ١٩٥٦ وحتى ١٩٦٢، في الأردن، وما تمخضت عنه من تحولات سياسية واجتماعية وسلوكية في حياة الأردني، وما طرأ عليه من تشكل في الذهنية وتصور الأمور.

وتلامس الرواية، الساعية لمناقشة آنذاك، بعض الأحداث السياسة المتعلقة بأنماط التفكير، وترصد "تايكي" الواقع في تلك المراحلة، من خلال التحولات الاقتصادية، وما ينتج عنها من أنماط الحياة والسلوك، ومعايير الزعامة المحلية في مجتمع الأغوار الوسطى، تحديداً، وبعد الإعلان عن مشروع قناة الغور الشرقية، وإنجازه الوحدات الزراعية، وتقسيمها، وبروز طبقة الملاك الجدد؛ ولكن بالتأكيد "ليس على طريقة الإصلاح الزراعي في مصر" كما يرى الغزو،، تتنامى إحداث الرواية، وتستوعب مراميه الاجتماعية، ورسائله المواجّهة.

"تايكي"، رواية، أو وثيقة تاريخية بحتة، توغل في بدايات التحول، وأسبابه، وترقبه،، وتحاول الوصول إليه، وتفعيل ما يرتبط به.

وهي ترصد التحول من الزراعة البعلية في الأغوار عقب القناة إلى الزراعة المروية، التي أنهت حقبة التعامل مع الأجير، وجاءت بطبقة جديدة من الملاك الصغار الذين حققوا أشواقهم في رؤية "سند التسجيل"، الحلم في قطعة أرض مروية، تزرع بأكثر محصول، بدلاً من أنتظار الموسم كل عام.

إلى هنا، يبدو ما أراده الغزو واضحاً؛ قضية "التحول في وسائل الإنتاج"، ونشوء التجار، وآلات الحصاد الميكانيكية، وحراثة الأرض.

---

(١) نشر هذا العرض في جريدة الرأي ٣/ ٤/ ٢٠٠٧.

ولكن هل طوّع الغزو ذلك فنياً؟!، وهل ضمنها أفكار النص المختمر في ذهنه، أم أنها مجرد وثيقة، قصصية، لا أكثر، ولا أقل؟! يرى الغزو، أن "رواية تايكي رصدت ما أمكن واقعاً حدث، ومزجت شفافية الفن بسطوة الحقيقة الصلبة؛ فتماهت بين طياتها خيالات الفنان المرهف،

وفعل الفأس في الأرض الصلبة، فـ "ربيع"، بطل الرواية، الفنان يذوب،

بل يقطر فناً، ولكنه، مع ذلك يحمل الفأس، ويحاول صناعة الأصل لفنه،

فينحاز ما أمكن إلى نظريه الفن للحياة، وليس الفن للفن نفسه،

معترفاً أن الخيال وحده لا يصنع فناً خالداً إذا لم يغرف من واقعه، الذي يهيء له أسباب وجوده، وأن الخيط القصصي في "تايكي" جاء بأحداثه الكثيرة، المتشبعة والمقنعة، متناغماً مع حدث الرواية التاريخي، المراد التأريخ له، روائياً".

يذكر أن جانب الرواية الحكائي يدور حول "ربيع" الفنان، إبن أحد وجهاء قرية "شتوة" في الأغوار الوسطى، وهي القرية التي يعود إليها بعد إكمال دراسته في العاصمة، عمان، ويرفض إكمال دراسته العليا؛ غراماً بقريته.

ولكنه يرفض، أيضاً، أن يشتغل في الأعمال المكتبية، متفرغاً لـ " الفن"، فقط، وهو الفن الذي يعارضه الجميع، إلا "تايكي" التي تقف إلى جانب موهبته التي لا تقدر على رسم لوحة خضراء للأغوار، ببساطة لأنها حلم لا يتحقق. و"تايكي"، كما جاء في الرواية، هي فتاة أرمنية، يعمل والدها "موريس" في مقهى له، أنشاه في "شتوة" التي قدم إليها وابنته الرضيعة قبل عشرين عاما من احداث الرواية. وفي مقهاه يجد أهل القرية الراحة بعد العناء، وعلى "طاولاته" الخشبية يفضفضون بما يؤرق لياليهم، ويهربون من هموم الارض والعائلة، ومع علاقة الحب الوثيقة الناشئة بين "تايكي" و "ربيع" تبقى اللوحة الخضراء تستعصي على الفنان الهاوي، الذي يستبشر بقرب أنتهائها ببدء العمل بمشروع القناة وهكذا؛ يستنتج "ربيع" أن مشروع اللوحة الكبرى — القناة — هو الأصل؛ وأن ما عداه يتفرع عنه، وتدور بقية الأحداث القصصية حول شخصية "مظهر جميل غيث "أستاذ" ربيع" الذي وجهه للفن، و"بريهان" السيدة الجميلة، صاحبة الفندق المشهور"تايكي" في عمان، وتتفرع هرمية البناء الروائي عند الغزو لتدل على أن صاحبة الفندق كانت مغرمة بأستاذ الفنون "مظهر"، وأنه حين مرض، زوجها والدها من "موريس" الذي

طلقها بعد أن علم قصة الحبّ التي كانت تعيشها "بريهان"، وخصوصاً بعد تردد الأول عليها في بيتها ليرسم لوحتها التي لم تكتمل.

ويكشف سير الرواية أن "تايكي" توهمت أن والدتها فارقت الحياة من زمن؛ وبعد معارضات الأهل والأخوة لزواج "ربيع" ابن وجيه القرية، وبـ "تايكي" ابنة "مريس"؛ كما كان يتهكم عليه أهل القرية، وبعد طول اخذٍ وردٍ، تواجه العائلة معضلة أن "تايكي" لا تحلّ ل "ربيع"؛ وقد رضعت "تايكي" من والدة ربيع ثلاث رضعاتٍ متتالية، وهنا، يسعى الجميع للتحقق قبل أن تقع الواقعة؛ ولكن، تموت المرضعة، وتضيع الحقيقة بموتها.

(قطر الندى) ليوسف الغزو:
رواية ترصد الواقع الأردني في الخمسينيات[1]

عمان – إبراهيم السواعير

يؤرخ يوسف الغزو بـ(قطر الندى)، الرواية لـلأردن، في مرحلـة الخمسينيات من القرن المنصرم، بقوله: "وقطر الندى، هي البداية، وهي التحديق الأول في خصوصية الرواية التي تـؤرخ للأردن وصفا، ولمخاضاته السياسية والاجتماعية والاقتصادية مسيرة، ولأنـماط السلوك والمنهج الانساني الفردي والمؤسسي فيه. وهذه الرواية، كذلك تناولت شريحة زمنية من ١٩٥١ــــ١٩٥٧ من خلال خيط قصصي قادر على جمع حبات الـزمن، واستيعاب الأحـداث ورصـد المخاضات وايقاعات العصر بقدر الامكان".

قطر الندى، آخر أعمال الغزو، الصادرة عن البنك الأهلي الأردني، قـصد منها صاحبها أن تكون رديفا لحقبة من التاريخ الأردني، وقد حبلت بها ذاكرته أعواما طوالا، حتى جاءه المخاض إلى جذع النخلة كما يقول الناقد الزميل محمد سلام جميعان، في تقديمه لها: "، وأنا هنا لا أود الخوض في جدل العلاقة بين التاريخ والرواية، فهذا الطراز من الأدب جديد عندنا في الأردن، وربما كانت رواية الغزو ثالث رواية ترفع الخمار عن التاريخ الأردني المعاصر، وهي حلقة من حلقات متصلة بمستقبل الكتابة والأيام أنتدب لها يوسف نفسه، أولها قطر الندى، التي أرجو للقارىء أن يجد فيها بل الصدى، وأن ينظر إليها من زاوية الفن، لا من زاوية السياسة، التي كثيرا ما تزعجنا لأننا لم نصل إلى كلمة سواء فيها، فتاريخ الأدب أرحب صدرا من معاوية!".

ومع ادراكنا أن التاريخ لا يحتاج تبيانا، ومع معرفتنا بأن الرواية انما هي لقطة عامة لحقبة زمنية انسانية،، حقبة قد تطول أو تقصر، بكل ما تمثله تلك الحقبة من صور للانسان في سلوكه وتصرفه وعصفه الفكري، وسعيه لتحقيق ذاته ومخاضاته وتحولاته، فكأنما الرواية كاميرا تصور مرحلة،

(١) نشر المقال في جريدة الرأي ٢٥/ ١٢/ ٢٠٠٦.

ولا تتوقف عند جدار، بل تخترقه، فتتكشف عن الصراع والوفاق، والأبيض والأسود وهي لا تتوقف عند التسجيل المتحرك من الأشياء، بل تتسلل إلى أعماق النفس البشرية، فترصدها، وترصد تأثيرها على الواقع من حولها.

في قطر الندى، سلط الغزو الضوء على قرية أردنية نائية، أسماها "زيتونة"، ورصد من بين أهلها جارين يعانيان من اشكالية ارسال بناتهما إلى المدينة المجاورة لاكمال الدراسة التي وقفت بهما في القرية عند حد الصف الثالث الاعدادي "التاسع حاليا"، وجعل احدهما مغرما بسماع نشرة الأخبار من الراديو الوحيد من القرية، الموجود في مقهى رمضان، وكان معجبا بسماع تعليق أحمد سعيد من صوت العرب المحظور سماعه آنذاك. تلك الفترة التي لم تكن في الأردن جامعات أصلا، لينتهي الأمر بأحدهم لاكمال "مرحلة المترك"، ودخول دار المعلمين مع أصدقاء الريف وزملاء المدينة.

الشاب القروي، ميلاد، القادم من زيتونة، يعجب بفتاة صغيرة جارة له، اسمها قطر الندى، وهي بحسب الرواية بالغة الجمال، ساحرة النظرات، ولم يكن بينهما أكثر من نظرة خاطفة تسمح باختلاسها ظروف القرية العصبية، ما حدا بأحد أصدقائه الأثرياء في المدينة لأن يسخر منه ومن هذا الحب الصامت الذي طال أمده.

قطر الندى، التي تقعد مع القاعدات المتحسرات على اكمال الدراسة في المدينة، بعد أن أنهت الصف الأخير في مدرسة القرية، تدور حولها أحداث الرواية: عمها المتمرد على جملة العادات والتقاليد، يترك القرية ويتزوج من أهل المدينة، بل وامعانا في هذا التمرد يرسل ابنته لتدرس في بيروت، ويجهد في اقناع أخيه بأن يحذو حذوه، ويرسل ابنته لتأخذ نصيبها من التعليم في المدينة.

وفي المدينة، أيضا، كان "شايلوك"، المسمى بـ"تركي المدهون"، الذي وظفه الغزو لملاحكة قطر الندى، التي أقتنع والدها وأرسلها لاكمال تعليمها في المدينة، فتصبح نهبا بين هذا وياسين الذي يقرر الزواج بها، دون أن يعلم بغرام ميلاد معها صديقه الحميم وقطر الندى بين الصمت خوفاً من الفضائح وبين تحمل غلظة الآخرين تتشظى دون أن يحس بها أحد.

وفي المدينة، كذلك تتوالى الأحداث، ويكشف النقاب عن زيجات سرية، وتنازلات عن الأملاك، وتدور رحى المؤامرات وتشب نار العداوة والقتل وخيوط الجريمة، والتقاء المصالح، أو تفرقها. وينهي الغزو حياة قطر الندى، التي تضع الصديقين في حيرة من أمرهما، بعد أن

يكتشفا أي حب وقعا فيه، ينهيها دهسا أثناء مطاردة تركي المدهون لها بعد حب من طرف واحـد، ولم يعد يجدي نفعا.

قطر الندى، وباختصار، شكلت مدخلا روائيا صادقا عند الغزو، وهـو ـ بحـسبه ـ لا يبتغـي غير انصاف الأردن روائيا في هذا العمل، والأعمال التي يسعى إليها في مقبل أيامه.

* أشواك يوسف الغزو التي لا تدمي القدمين[١]

بقلم إبراهيم العجلوني

- "يضم هذا الكتاب طائفة من المقالات التي يتوخى بها الصديق الاستاذ يوسف الغزو ايصال افكاره إلى أكبر مجموعة من الناس، وقد كان منهجه فيه أن يباشر موضوعه بغير ما ديباجة مسهبة أو مدخل عريض، وأن ينفذ إلى فكرته بايسر السبل فأذا هي بين يديه ويدي قرائه واضحة بلا التباس غنية عن التأويل. بلقاء بادٍ امرها تسر الناظرين.

واذا كنا قد عرفنا يوسف الغزو قاصاً وروائياً، فها نحن اولاء نعرفه كاتب مقالة، أن لم نقل صاحب رسالة يود أن يذيعها في الناس. فأذا ضاقت القصة بمضمونها نهضت الرواية، واذا ما تأبت الرواية نهضت المقالة على نحو ما نجده في هذه النظرات النقدية التي تشي ببالغ حرص صاحبها على أن يكون وطنه من أجمل الاوطان، وشعبه من أحسن الشعوب.

لقد غطى الكتاب ميادين، اجتماعية وثقافية كثيرة، ولست اريد أن استبق القارئين إلى ما فيه من ذلك، ولكنني لا املك في الوقت نفسه الا أن أشير إلى بعض النقاط التي اجدها باعثة للجدل والمحاورة، ولا سيما تلك المتعلقة بالنظام والحرية واللغة، وهي نقاط تضيء موقف الكاتب بوجه عام. وتظهرنا على زاوية الرؤية التي يطل منها على الاشياء.

أما الحرية فقد جعلها الكاتب مرادفة للوعي، مشتملة على النظام في آن واحد فهي عنده "وعي كامل شامل لحركة الحياة. وعي يسيرنا عبر مسارب محدده فلا نصطدم بغيرنا"، وهي وجهة في التأويل ترى إلى الحرية والضرورة في اطار واحد، على نحو ما يذهب إليه الاستاذ العقاد، لكنها قد تكون ذريعة لمصادرة الحرية حينما تؤخذ في معزل عن مجمل الشروط الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تجعل الإنسان انساناً، أي أنها وبلغة الصديق الغزو "خطيرة خطورة الموت إذا اسيء فهمها".

---

(١) من مقدمة لكتاب يحمل هذا الاسم.

- "ويظل بأمكاننا القول أن يوسف الغزو الكاتب هـو نفـسه الروائـي والقـاص عنايـة بالغـة بالنظام والجمالية الموزونة وتعديل كبير على "الوسـط الأدبي" واحتفـال كبـير بالإنـسان وقـضاياه وهمومه صغيرة وكبيرة.

رواية الصديقان ليوسف الغزو

* بقلم د. فواز طوقان[1]

"عندما تعتزم أن تقرأ هذه الرواية "الصديقان" انصحك بالتفرغ زمانا ومكانا". لن تستغرقك قراءتها أكثر من بضع ساعات، وهذا ما قصدت إليه حين قلت بالتفرغ لها "زماناً". ولكن التفرغ لها مكانا اعني به: أنك أمام عمل أدبي جيد يجب أن لا تزعج عن مكانك وأنت تقرأه. واعدك أيها القارئ الرشيد، إذا أنت تفرغت زماناً ومكاناً لرواية "الصديقان" فأنك واجد متعه عقلية رشيقه ستصبحك بعد قراءتها وقتاً طويلاً.

بدأ اهتمام مؤلفها يوسف الغزو بالادب مبكراً. وكانت قراءاته الادبية متنوعة فمن كتب التراث القديمة ككتب الجاحظ وابن المقفع وامثالهما إلى كتب الروائين العرب المحدثين من أمثال نجيب محفوظ ويوسف السباعي، إلى دواوين الشعراء العرب القدامى والمعاصرين. كما قرأ الكثير من أعمال المؤلفين الاجانب مترجمة وأحب بخاصة روايات همنغواى، وجاك لندن وارسكين كالدويل، وطالع كثيراً في المسرح وبخاصة المسرح الشكسبيري.

وقد كان أول ما نشره هو محاولة شعرية قصيرة في مجلة رسالة الأردن عام ١٩٥٨. وكانت له محاولات شعرية أخرى لم تنشر ولكنه توقف عن كتابه الشعر قبل عام ١٩٦٧ واتخذ القصة القصيرة، وسيلة للتعبير الفني. كما كتب المقال الادبي، كوسيلة أخرى للتعبير. ونشرت بعض مقالاته في الصحف المحلية. واذيع بعضها مسجلاً من دار الاذاعة.

بدأ في نشر قصصه القصيرة في جريدة الدفاع منذ عام ١٩٦٨. وفي مجلة الاذاعة والتلفزيون عام ١٩٧٠. ومنذ ذلك التاريخ اخذ ينشر أنتاجه القصصي في كافة الصحف المحلية. وفاز عام ١٩٧١ بمسابقة ادبية اجرتها صحيفة عمان المساء. كما فاز عام ١٩٧٣ بالجائزة الأولى في مسابقة ادبية اخرى اجرتها دار الاذاعة عن قصة "المشروع الكبير" وكان عدد القصص المتقدمة كبيرا

---

(١) استاذ الادب المساعد في الجامعة الأردنية.

جداً. كما نشرت احدى قصصه القصيرة ضمن مجموعة قصصية مختارة من كتاب صدر عن دائرة الثقافة والفنون باسم "الوان من القصة الأردنية". كما نشر عددا من القصص القصيرة في مجلة أفكار التي تصدر عن دائرة الثقافة والفنون. وعددا أخر في مجلة البيان الكويتية التي تصدرها رابطة الادباء في الكويت.

ولم يقتصر أنتاجه الادبي على الفنون السابقة بل وجه اهتمامه إلى المسرح وكتب اولى نصوصه المسرحية. وتجري الآن دراسته في دائرة الثقافة والفنون على امل اخراجه في موسمها المسرحي لعام ١٩٧٥ – ١٩٧٦.

على أن الفن الادبي الأكثر التصاقاً بقلبه هو فن الرواية رغم انه يكتب القصة القصيرة باستمرار. وهو في هذا لا يناقض نفسه فأنه يعتبر القصة القصيرة والرواية وجهين لعملة واحدة، أو هما في الحقيقة فن واحد. ولكنه رغم ذلك يعتبر أن مجال الرواية أوسع وأرحب وأنه بأمكانه قول ما يريد فيها أكثر مما يستطيع في القصة القصيرة.

هذا السجل الادبي الغني أهل يوسف الغزو لعضوية رابطة الكتاب الأردنيين فأنضم إلى صفوفها في الاشهر الأولى من تأسيسها، فكان عضوا عاملاً فيها مما خوله أن يعمل في "لجنة القصة" المنبثقة عنها.

ومع أن الرواية شغل يوسف الغزو الشاغل، إلا أنه ما زال في أول الطريق. فرواية "الصديقان" التي أقدمها للقراء هي اولى رواياته التي قرر الخروج بها إلى الجمهور. وهي رواية جديرة بالقراءة، وليست في أي حال من الاحوال تجربة أولى لكاتب صاعد.

- "الصديقان" رواية رمزية في كل ابعادها، رغم أن ظاهرها يعزي بأعتبارها من النمط الواقعي الصرف.

تتخلص "الصديقان" في أنها سرد على فترتين، لطرف من حياة شابين، احدهما ريفي، أو قروي أن شئت والأخر من سكان المدينة، تتعاورهما الأمال والالام، وتطحنهما عجلة الحب والموت، والعطاء والشح، والرجاء والخيبة،. إلى أن ننظرهما في أخر الرواية وقد شق كل منهما طريقة المختلفة عن صديقه. وتوفق في الحياة العملية.

وقد يتبادر إلى الاذهان انني أضلل القارئ إذ قلت أن "الصديقان" رواية رمزية، لا واقعية. وعليها، فأنني ابرهن ذلك الان.

يلعب القحط والخصب اللذان يخيمان على جو القرية دوراً رمزياً في نقل ما يدور في دخيلة فوزي الفتى الريفي، من أحاسيس كانت "قاحلة" أو "قحطاً" في أول عهده بالحياة، ثم اضحت خصبة فيما بعد. أما هطول المطر، ذلك الحدث الذي أرق افكار فوزي زمانا قبل أن يجيء، حصل وفوزي في المدينة فكان الحد الفاصل بين سني القحط التي عاناها وهو ما يزال مشدوداً في أوج عواطفه إلى القرية، وبين التحول الجديد الذي طرأ عليه وهو في المدينة، حيث يبوح بسره الجديد لفتاته.

أما الصديقان، في حد ذاتهما، فهما رمز لتآخي القرية والمدينة، مجتمع القرية ومجتمع المدينة، أهل المدر وأهل الحضر، ذلك التآخي الحتمي الانسجام. ففوزي القروي البسيط، حين يقابل منيراً، ابن المدينة المحنك، انما نرى مجتمع القرية يقابل مجتمع المدينة بكل آماله وتطلعاته وتشوفاته إلى مستقبل، لا أقول أفضل، وانما إلى مستقبل غير ما هو عليه. والصديقان، عندما يتقابلان، نحسب لاول وهلة أن المناقشات بينهما تصرفات فردية حتمتها تقنية فن الرواية. لكن سرعان ما يتكشف لنا أن نقاشهما ليس فردية صديقين، بل مجتمع القرية يناقش مجتمع المدينة في مفهوم العلاقات الانسانية في أوسع آفاقها.

،. وطلبة المدرسة، والذين يظهرون كأنهم شلة من طلبة المدارس المفرطين في الفكاهة والمرح، يرصدهم يوسف الغزو على أنهم جيل الشباب يقابل جيل الشيوخ لا حفنة من "الملاعين" يماحكون استاذهم الشيخ همام. ولاحظ أيها القارئ، حسن اختيار المؤلف لاسم الشيخ.

علي أن ابعد الرموز صعوبة في الرواية، لا من حيث دلالته وانما من حيث استعماله هو قضية ذهاب ندى إلى المدرسة في المدينة أو عدمه، ثم ما حصل لها بعد اتخاذ القرار بالذهاب أو عدمه. ولا اريد أن افسد الحبكة على القارئ لكنني اتساءل هل يريد المؤلف في رمزه هذا أن يوجه أم ينبه أم أنه مجرد سرد محزن لاحداث جرت اقتضتها حتمية السياق؟.

على هذه الشاكلة، تسير احداث رواية "الصديقان" وتعرض أشخاصها بحيث تتركنا في النهاية، كما أسلفت، امام مجموعة من الرموز تصطرع في أذهاننا بمتعة عقلية رشيقه ستصبحك بعد قراءتها وقتاً طويلاً.

- "بالأضافة إلى الرمزية السلسة في هذه الرواية، فأن عنصر التشويق، احد عناصر الرواية الاساسية، تكنيك أحسن يوسف الغزو استعماله. وبكل تأكيد، سيجد القارئ صدق ما أقول عند قراءة الرواية. ولعلي عندما طلبت من القاريء التفرغ زمانا ومكانا رواية "الصديقان" كان حذق المؤلف في استعمال عنصر التشويق هو الحصان الذي أراهن عليه. لكنني لا أحب أن أكون الصديق السمج الذي يروي لك نهاية قصة الفيلم السنمائي الشيق قبل أن تراه بنفسك، فأفسد عليك جمال "الصديقان" بسرد أمثلة على عنصر التشويق كي أريح ضميري الاكاديمي. لكنني أقول، بكل حرص أن الذي يشدك إلى صفحات هذا الكتاب الذي بين يديك ويخرجك من رحى الرمزية التي تطحن، انما هو مهارة يوسف الغزو في سبك الحوادث وتحريك الشخوص وتأليب الاقدار.

العنصران السالفا الذكر هما أبرز عناصر رواية "الصديقان" المرئية وأود هنا أن أتحدث عن بضعة أشياء تتعلق بتقنية "الصديقان" وببنائها القصصي من قبيل لفت الانتباه، لا أكثر.

أوجه عناية القارئ إلى لغة الحوار هي على العموم لغة فصحى، لا يحاول المؤلف أن يخوض من خلالها المعركة الاكاديمية الدائرة حول "اللغة الثالثة" لغة المسرح العربي التي يبحث عنها الكتاب المسرحيون في العالم العربي فلا يجدونها. لكن القارئ يجد في مقاطع الحوار التي تتخلل "الصديقان" ضرورة صياغتها بالفصحى، لا لشئ سوى أنها تؤلف بمجموعها كثيراً من صفحات الرواية. ويوسف الغزو من هذه الزواية، تقليدي، أي لا يريد التجديد في اللغة العربية المعاصرة، ولا يريد الخروج بها عن القوالب الجاهزة التي تحدرت الينا بها. وهذه وجهة نظر خاصة به. على أننا عندما يقرأ الحوار الذي تزخر به "الصديقان" يتملكان شعور بالالتصاق في الرواية. هذا الحوار يبعد السأم عن القارئ ويشده إلى الشخصيات أكثر مما لو كان السرد مكان الحوار. نستذكر هنا أن يوسف الغزو يكتب المسرحية بالاضافة إلى الرواية والقصة القصيرة.

وأوجه عناية القاريء أيضاً إلى تقسيم الذكي الذي جرى عليه المؤلف في روايته. فقد قسمها إلى قسمين وخاتمة. والأول تجري معظم احداثه في القرية والثاني في المدينة. يقودنا هذا التقسيم إلى الاستنتاج بأن "الصديقان" في الاساس رواية يحاول فيها المؤلف تقديم الحل للتناقض الاجتماعي الذي نعيشه في المجتمع الأردني. نرى في القسم الأول الحب يلعب الدور الاعمق، ونرى في القسم الثاني الصداقة تلعب نفس الدور. هذا التقسيم هو الرمز الأكثر شمولاً في الرواية. التركيز على ازدواجية المجتمع، وحل التناقض عن طريق الحب (الاخلاص) والصداقة (التعاون) يذكرنا بعنوان الرواية: الصديقان. هذا من ناحية، أما الخاتمة فلي فيها رأي. يبلغ الكاتب "الاوج" climax في الفصل الثالث عشر، وليس من الضروري أن يسترسل بعد ذلك. لكنه يثبت فصلا آخر، مغايراً لكل ما في الرواية من خصائص اعتقادا منه أن النقاد سيصنفونه في باب ما يسمى: anticlimax، أي هبوط مفاجيء من الاوج. لكن صفة الادب العربي عبر السنين هي صفة الهبوط من الاوج. بالله عليك، قل لي، أي قصيدة منذ امرئ القيس إلى البوصيري تنتهي بالاوج؟ ليس سوى تلك القصائد المعاصرة التي تأثر ناضموها فيها بالادب الغربي، وهو ادب الاوج وهذا الفصل الاخير هو الذي يترك في نفسك ذيول رواية "الصديقان" زمانا طويلاً.

- "هذه هي رواية "الصديقان" واحدة من الروايات أردنية معدودة ظهرت حتى الان، في وسط واقع محلي مثقل بالشعر والقصة القصيرة ومظاهر النقد الادبي. وهي وأن كانت ذات طابع محلي فأنها تنسحب على الواقع الاجتماعي في البلدان العربية الاخرى. ولعلي لا اعدو الصواب إذا قلت: أنها رواية من صلب مجتمع الدول النامية في اتجاهات الكرة الارضية الاربع ذلك المجتمع الذي اثقل الكتاب كاهله بأعمالهم الادبية المكتظة بمضامين الصارع في المجتمعات الغربية.

- "رواية الصديقان محاولة جريئة لرأب هذا الصدع ولبناء الجسر الموصل بين جمهرة الكتاب وجمهور القراء.

يوسف الغزو ونجيب محفوظ

* بقلم نزار مؤيد العظم[1]

- "مؤلف هذه الرواية كاتب ممتاز، متمكن من فنه الروائي خصيب الخيال مشرق الاسلوب، صاحب جمل قصيرة ذات قدرة تعبيرية جيدة، بارع في وصف البيئة المحلية، حاذق في التحليل النفسي، وابراز انفعالات ابطاله واحاسيسهم بأدق خلجاتها. والرؤية عنده ذات شمول وشفافية، يمهد للأحداث المقبلة بطريقة تظل ممسكة بأنفاس القارئ واهتمامه.

والقارئ يتفعل ويهتز، ويعيش مع الأبطال، ويشم رائحة الارض في جفافها وابتلالها. لا يقل جودة في رأيي عن نجيب محفوظ من حيث قدرته على ابراز البيئة المحلية والتقاليد وطباع اشخاص الرواية، والعمل الدرامي لديه متكامل متناسق رائع.

---

(١) فقرة من تقرير حول رواية الصديقان.

الجزء الثاني من أشواك يوسف الغزو التي لا تدمي القدمين

بقلم: خليل السواحري

هذه الباقة من الخواطر والمعالجات تجمعها صفه واحدة مشتركة - ربما بأستثناء اشجان من لبنان- وهي ابتعادها عن السياسة وهمومها واوجاعها وأنني لأغبط الصديق يوسف الغزو من كل قلبي على هذه المقدره العجيبة في النأي بنفسه عن السياسة وغبارها الأني المتعكر، ولا أدري أن كنت أستطيع تسمية ذلك ميزة تمتاز بها كل كتابات يوسف الغزو تقريباً. قصصه ورواياته وكتاباته الاذاعية والصحفية حتى الأن.

تراوح اشواك هذا الكتاب بين محاور متعددة تبدأ من صفحات التاريخ القديمة المشرقة — فلسفة الهجرة النبوية- مروراً بالتاريخ المعاصر — عنزة غاندي- وتعرج على الفنون بأنواعها الموسيقى والادب والمسرح. ولا ينسى المؤلف أن يتناول مشكلات راهنة في حياتنا اليومية كحوادث الطرق وقضايا التربية والتعليم ومسابقات ومضان، الخ،

وبعد، فأن ثمة تنوعاً اذ في هذه المعالجات، هو تنوع هذه الحياة وثمة شذرات وجدانية ولمحات انسانية، تستحق أن تبذل جهداً في قراءتها والتوقف عندها."

للصديق يوسف الغزو تحياتي. واعتقد أننا سنكون بأنتظار الجزء الثالث من اشواكه، ربما بعد عامين أيضاً.

رواية اللوحة ليوسف الغزو

بقلم: د. فواز طوقان[1]

- " يطيب لي أن اقدم إلى جمهور القراء في الأردن الرواية الثانية للكاتب يوسف الغزو. ولقد كنت قدمت روايته الأولى "الصديقان" قبل سنوات.

- "اللوحة رواية غزيرة المضامين، تأخذ من شخصية "فريد" بطلاً اجتماعياً حقيقياً، حري بالكتاب أن يصوروا طرفاً من سيرة حياته حتى تكون مثالا يحتذى، وانك لا تجد في نفسية هذا الإنسان الأردني اية شائبة تشوب مثاليته الممكنة، لا المستحيلة فما رأيك بمواطن آثر ان يعمل بيديه، ليرى بلده على الصورة التي يتصورها: لوحة نابضة بالحياة والخصب والرواء، على أن يهرب من واقعة إلى تخيلات ومثاليات بعيدة عن المعاناه الحقيقية. ما أحوجنا في هذا الوقت الراهن إلى المثقف الذي يعمل في وطنه بوحي من ثقافته، لا الذي يقتصر على التهويمات الفكرية والفذلكات الكلامية، فينظر لنا كيف يجب أن تكون الاشياء عليه، وهكذا رسم الكاتب يوسف الغزو شخصية بطل "اللوحة".

- "أن تقنية الرواية عند يوسف الغزو وما بين الأولى "الصديقان"، والثانية "اللوحة" تقنية متطورة، بينما ترى قلة الخيوط في الأولى. نجد أن الكاتب هنا برع في الامساك بأكثر من خيط ليحرك بها نسيجاً قصصياً متشابكاً.

- "ونجد كذلك أن اسلوب الحوار في رواية "اللوحة" أخذ سبلاً أكثر حيوية منه في رواية "الصديقان". ومرد ذلك إلى سببين: التطور الحتمي الذي انجزه الكاتب يوسف الغزو عبر السنوات القليلة الماضية، والخبرة المثمرة التي جناها من كتاباته الثقافية للتلفزيون والاذاعة. وبالتالي غدت الوقفات الحوارية في رواية اللوحة مقطعات رديفة للسرد القصصي، فأنت تفيد

(١) استاذ الادب العربي المساعد في الجامعة الأردنية سابقاً.

منها جزيئات ترفد بها الحدث ولم تعد مجرد مواقف للحوار التقليدي يـصطنعها أي مؤلـف لكـسر رتابة السرد واملاله.

- " أن اللمحات الخاطفة التي اقتطعها الكاتب من شق قناة الغـور الـشرقية ونراهـا في خلفيـة بعض الفصول لهي لفتة لطيفة من الكاتب. فهذا الانجاز العمراني الذي افرز بالـضرورة تطـورات اقتصادية اجتماعية القي في يوسف الغزو انساناً حساساً تـأثر مبـاشرة فعكـف عـلى تـصوير تلـك الاجواء المتطورة من منظاره الادبي، واسلوبه الجميل.

يوسف الغزو يطير بجناحي قطر الندى وتايكي

بقلم: د.بشار الشريدة

شتوة (أخيراً) يراها كأنه يراها لأول مرة بدت الأراضي الشاسعة المسورة بالجبال من الشرق، ونهر الشريعة (الأردن) من الغرب كصحنٍ خالٍ من الطعام.

يستهل الروائي يوسف الغزو روايته تايكي بكلمة شتوة وهو اسم القرية التي تنطلق منها أحداث روايته، وهو بهذه الاستهلالة التي بدأت بكلمة هي المفتاح الرئيسي لباب رزق الفلاح والمزارع فالشتوة هي أمنية لكل مزارع، والشتوة بالمعنى الدارج تعني المطر المشبع للأرض بدون أن يؤثر سلباً فلا يكون من الغزارة بمكان ليحدث سيولاً جارفة ومضرة، فالشتوة هي الامنية وهي النعمة من الله لأنه بعدها يدرّ الخير واللبن والعسل والخضرة والينابيع والآبار، ثم يتابع الغزو استهلالته تلك بتفاصيل العلاقة بين الارض والإنسان واصفاً دور الماء وسرسوب الماء والجدران الأستنادية، ومعرشات العنب وأشجار الدفلى.

لقد توغل الغزو من خلال تايكي في تفاصيل الموروث الحضاري الأردني وتمكن من الولوج إلى صلب العادات والتقاليد والصفات الحميدة للإنسان الأردني ورحلته مع الحياة القاسية وتطوره. ثم تابع وصف العلاقة التاريخية بين الضفتين فالكازوز كان يأتي لشتوة من نابلس بواسطة باص شتوة نابلس وبالعكس، كما أن ربيع ابن شتوة يبيع في عمان ونابلس وإربد ورام الله.

شخوص الغزو في روايته تمثل الشخصيات الأردنية البسيطة الفقيرة التي تحمل رؤيا خاصة للمستقبل مع تحدٍ كبير، فأحلام الجميع تمثلت بالعلم والتعليم في دمشق ومصر وبيروت، ولا يفوته هنا ذكر شهادة المترك الأردني تلك الشهادة التي أهلت معظم رجالات الأردن.

يصف الغزو برامج التنمية في الأردن فمن خزان الماء البسيط على السد الاسمنتي إلى قناة الغور الشرقية، ويحرك الغزو وشخوص القياسين والمساحين والفنيين بمهارة ليصف بناء القناة التي أصبحت فيما بعد شريان الحياة لوادي الأردن.

الوصف البانورامي يعتبر من ميزات يوسف الغزو، ففي وصفه الدقيق للغابات والوديان والينابيع والنباتات الصخور يجعلك تنظر إلى المشهد البانورامي من مكان شاهق ثم يغوص بك مرة أخرى في تفاصيل المكان بجميع أبعاده، ويصل بك إلى الطحالب في عمق بحيرة السد أو الضفادع التي يشق صوت نقيقها الفضاء.

كما يمثل نبل الصفات الأردنية المتمثلة في شكل احتضان الإنسان الغريب في قرية شتوة والتي تمثلت باحتضان موريس وأبنته تايكي في تلك القرية، ويمضي الغزو محلقاً في فضاءات الامل والرؤيا والمشاريع والتحدي والحب أحياناً، متمثلاً في قصة الحب العذري التي تربط بين تايكي وربيع معرجاً في تحليقه إلى وصف الحداء أو الغناء الشعبي الأردني.

كما ويؤرخ هنا للكثير من الأحداث العربية والعالمية وانعكاساتها على الحياة في شتوة، مثل وفاة محمد الخامس واعتلاء الحسن الثاني عرش البلاد وتقديم ينغوريون استقالته للرئيس الأسرائيلي اسحق بنس في.

لقد أعتلى يوسف الغزو في روايته تايكي عرش النجومية والإبداع وهي الرواية الثانية بعد قطر الندى التي تؤرخ لمرحلة الخمسينيات والستينيات، وهي من أدق المراحل في تاريخ الأردن، وها هو يحلق بجناحيه فهل من يدعمه لمواصلة المسيرة والتجلي.

لقد وصل نجيب محفوظ إلى العالمية من خلال توغله في مفردات الحارة المصرية، التي عاش فيها وكتب على مقاهيها، ولا اعتقد أن مشروع يوسف الغزو يقل عن ذلك إذا ما وجد الدعم اللازم والتفرغ ليتمكن من إكمال مشروعه الروائي الوطني الأردني، تحية من القلب ليوسف الغزو.

رواية قطر الندى ليوسف الغزو

محمد سلام جميعان[1]

"كنت أنوي أن أكتب دراسة نقدية عن هذه الرواية. وما فتئت أن ركبني شعور وجدت نفسي منقاداً إليه، بعد أن حدثتني وساوسي بأن مراكب النقد عندنا لا بد وأن تحمل يوسف الغزو في أظعانها ذات يوم. بعد أن قطعت عنه الفراسخ والاميال وجابت صحراء العرب وجبال الالب، دون أن تعطيه مقعده الذي يليق به في جمهوريته السعيدة. فالنقد عندنا يفرض على الادباء والمتأدبين آراءه فرضاً. ومن لا يصدع قلمه بما يجهر به النقاد فهو ذمة تاريخ الأدب.

ويوسف الغزو لم يصدع قلمه بما يؤمر. فكان واحداً ممن ركبوا رؤوسهم من ادبائنا، وحافظوا على صبغتهم والوانهم في فهم الروائي والقصصي، فلم يرق لهم سحر الجديد، لأن له في التجديد رأياً لا يعجب النقاد، وهو أنه لا جديد في الادب، إنما الجديد في العبارة العصرية والمضمون العصري أيضاً، أما تخريب الشكل بأسم الحداثة، فهو في نهجه مرفوض.

ومن هنا فلم يرق له سحر الجديد، ولا أغوته حيَّةُ الحداثة بمكرها، ولهذا فقد سلم له اليوم كما أراه رأسماله الأدبي، سواء ركدت رياح السوق الادبية أو عصفت وظل من المكتهلين في فن القصة والرواية، وكأنه ولد كي يقص ويروي.

لكن غربة يوسف الغزو عن النقدو مجافأة النقاد لإبداعاته الأدبية، رغم حضورها في كثير من صحف ومجلات العالم العربي المتخصصة، ورغم الحديث عنها في برامج متخصصة بالإذاعات والتلفزيونات، واختيارها كمادة لتذوق النص الادبي في الجامعات، واختيار بعضها لمناهج وزارة التربية والتعليم للصغار والكبار، وتحول معظمها إلى مادة درامية للإذاعة والتلفزيون، وإذاعة بعضها من إذاعات محلية وأجنبية، وإعادة نشرها في مجلات عربية، ومع الإشارة إلى مصدر نشرها الأول، رغم ذلك، فقد ظلت المشكلة بين يوسف والنقاد قائمة، وليس لبدعة ابتدعها، أو ثلمة

(١) نشر المقال في مجلة الكاتب الأردني العدد ١/ ٢٠٠٤.

تقدح في فنه الأدبي، بل لأنه لم يستطع أن يتحرر من هذه في الدعاية لنفسه، ولم يرجُ التعرف على الجمهور إلا عبر رواياته المتلفزة، واعتماده على تذوق ذلك الجمهور وحسه الفني المرهف، فعَسَّرَ بذلك على نفسه طريقة الشهرة التي سرعان ما تشتعل ثم تنطفئ كما يشتعل عود الكبريت، فهو غير راغب بشهرة محورها الإعلام، بل بوضع يستطيع فيه أن يصنع للناس فناً فطرياً أصيلاً يبقى كما بقي فن دستوفسكي، وهمنجواي، ونجيب محفوظ، فهو يرى أن العديد العديد من أصحاب الأسماء المشتعلة في وسائل الإعلام، لا يحفظ القارئ العادي البسيط بيت شعر واحد من أشعارهم، ولا يحفظ اسم كتاب من كتبهم، لأنهم في أبراجهم العاجية يجلسون، وعبر هلوسات ذاتية يكتبون، فيوسف إذن ساعي بريد موفق في حمل كتبه إلى نقاد بيت العنكبوت، فغدا أدبه مغبون الصفقة، ممنوع من الدخول إلا إلى نخبة لا يعنيها المقصود والممدود من الكتَّاب والمؤلفين، ولا الفرار في يوم زحف شباب الحداثة على الشيوخ المحافظين.

وللقارئ أن ينصرف عن إتمام قراءة كلامي بدعوى أن أمله فيَّ قد خاب، لأن ما عددته "مثابة تقديم" فاض منه الامتداح على الكفاية، ولهذا القارئ أقول: ليس من عادتي أن "أجبر الخاطر" أو "أشمت" حين يتعلق حديثي بالكتب والكتاب، ولكن يوسف الغزو عندي ليس حبراً وورقاً فحسب، ففي أدبه وشخصه ما يستدعيك إلى التريث في الحكم، وألا تأخذه هو وأدبه بالظن، أو إصدار الأحكام الغيابية، فقد تجشم في رحلتي الحياة والأدب ما يرضي النفوس ويفرغ الجيوب، فعضد نفسه بالأدب، فالنبوغ يحتاج إلى صبر وجلد، ويوسف ممن يتمتعون بهاتين الخاصيتين.

"ورواية "قطر الندى"، حبلت بها ذاكرة يوسف الغزو اعواماً طوالاً، ثم أجاءه المخاض إلى جذع نخلة التاريخ، فهي رواية بالغة الرشد، لن أدخل بتفاصيل أحداثها ودلالاتها ومضامينها، بل أقول أنها ترمي إلي أكثر من التسلية، وأكثر من التدوين، وهي إلى ذلك تحمل بضاعة مختلفة بضاعة منها: أنتقال يوسف الغزو من الواقعية الاجتماعية إلى الواقعية السياسية، فحصة الزمن الأردني في هذه الرواية غلالها وافرة، ينحو فيها الغزو منحى التاريخ الاجتماعي والسياسي لحقبة طالما نأت عنها أقلام السياسين إلا على وجل، على وفرة ما قرأت من مذكرات سياسيينا الأردنيين.

"وأنا هنا في غنى عن الحديث عن جدل العلاقةبين التاريخ والرواية فهذا الطـراز مـن الأدب حديث عندنا في الأردن. ربما كانت رواية الغـزو ثالـث روايـة ترفـع الخـمار عـن التـاريخ الأردني المعاصر، وهي حلقة من حلقات متصلة بمستقبل الكتابة والايام، أنتدب لها يوسـف الغـزو نفـسه أولها "قطر الندى"، أرجو للقارئ أن يجد فيها بلّ الصدى، وأن ينظر إليها من زاوية الفـن، لا مـن زاوية السياسة التي كثيراً ما تزعجنا، لأننا لم نـصل إلى كلمـة سـواء فيهـا، فتـاريخ الأدب أرحـب صدراً من الرواية، وليقدم حجته وبرهانه على يوسف، أو لـه، وأراه. أي النقـد، سـيكون منـصفاً، والحكم العدل حول هذه الرواية، واحدة فقط أظنها ستجمع بيننا أيها القارئ العزيز، هي رجـائي لك ألا ترخي القناع دون هذه الروايـة، إذا رأيـت فيهـا حـديث الـسياسة بـارزاً، فـالأدب خـادم لقضاياه، وعليها أن يتمتع بروح الاستقلال، وإن صحَّ زعمي كما صحَّ زعم "دبـشليم" في "كليلـة ودمنة" فإن يوسف قد تمتع بروح الاستقلال في هذه الرواية، وحرص أن يظل خارج الأيـدلوجيا، وخارج القلاع الحكومية أيضاً، وحين تفرغ أيها القارئ من "قطر النـدى" فلـن يظـل لـسائل ردّ، وستدرك عندها روح يوسف الأدبية، ودعابته الساخرة، ونقده اللاذع لمرحلة مـا زال النـاس فيهـا مختلفين، ولكن يوسـف هنـا، وحـد بـين الأدب والـسياسة، والفـن وقـضاياه الاجتماعيـة بمتعـة أسلوبية ستدعو لي وله بعدها بطول العمر، وحسن الختام.

رواية ثقوب في الجدار

بقلم: محمد سمحان

- "لم تفتنه مغامرات التجريب والتخريب، وهلوسات ادعياء التجديد والمعاصره والتغريب. وفاء منه للفن الروائي الاصيل. وقناعه بأن الفضاء الروائي ليس مسرحاً للفوضى والهلوسات واللامعقول. ذلك أن الرواية كائن حي، يولد ينمو ويتطور وينبض بالحياة. وابطالها شخصيات تعيش بيننا ويمكن أن نلتقي بها في أي مكان: في البيت، في الشارع في المؤسسة والجامعة والمقهى. بسلوكهم اليومي، وعصفهم الفكري، وحراكهم الاجتماعي غير مصنوعين ولا مستوردين من عوالم اخرى. يرصدهم الروائي بعين بصيرته ويلاحق تطور شخصياتهم وسلوكياتهم وتفاعلاتهم، وانعكاساتها على الوسط الذي يعيشون فيه. ويطاردهم في سرهم وعلنهم، ويتابع اختلاجاتهم لتؤدي الرواية عملها التطهيري. وتفعل فعلها في ضمير قارئها، من خلال تطور شخصياتهم وتداعياتها. فيضيف للمتلقي رافداً لوعيه الثقافي والسياسي والاجتماعي يمتع ويفيد.

هذه الرواية –ثقوب في الجدار- تزخر بالشخصيات العادية جداً التقطها الراوي من بين ظهرانينا، والتي تضج بأحداث نراها ونعيشها، ونسمع عنها، ويحركها في فضاء روايته بعفويه واعية، وتؤدي دوراها في نسق استراتيجي متصاعد، يرسم خفايا النفس الانسانية، فيعرى شرائح عاشت ولا تزال معنا، وتركت وما تزال ظلالها وتأثيراتها على مجتمعناً تتحرك أو يحركها يوسف الغزو بشكل واعٍ على دروب درامية وبأسلوب روائي محكم غير متكلف ولا مصنوع، ليقول لنا ما يريد من خلالها.

أنها اضاءة نوعية متقدة لرصيده الروائي، وحركتنا الثقافية الأردنية والعربية يقدم يوسف الغزو نفسه بها كعلم ومعلم بارز، نستطيع أن نفخر ونضاهي بها وبه محلياً وعربياً.

أنهارواية تضج بالواقعية السياسية والاجتماعية والاخلاقية، التي تعري زيفنا، وتكشف انفصامنا، وتضيء مساحات من الوجوه السوداء والظواهر الهدامة في مجتمعنا. أنها لرواية جدير بالقراءه. وروائي جدير بالاحتفال.

رواية ثقوب في الجدار

* بقلم د. عودة الله منيع القيسي[1]

"رواية رائعة، تصل في مستواها إلى مستوى روايات نجيب محفوظ الاجتماعية: كالقاهرة الجديدة، وخان الخليلي وزقاق المدق غير أنها هبطت كبيراً في الفصل السادس وعنوانه: "معروف قابيل" عندما أنتقل الروائي الغزو من القص إلى تقديم محاضرة على لسان "ثلجي أبو فكرة" وتمددت على واحدة وعشرين صفحة من صفحة (٢٢٠- ٢٤١).

وقد هبط هذا الفصل لأمرين: الأول- أن الأمر أصبح مناقشة "أفكار" (ولا أقول: فِكر لأن الفكر يقوم على نظرية كنظرية الكاتب الأمريكي هنتجتون عن أنتهاء التاريخ. مع أني لا أراها صواباً. أما الأفكار فهي لقطات متناثرة تعيش على السطح). وبمنقاشة الأفكار هذه توقفت الحركة وغاب الحدث وحرم الموقف من الحيوية التي يجلبها الحدث، واصبحت هذه الصفحات أقرب إلى كتاب في السياسة منها إلى أن تصلح في رواية، رواية اجتماعية.

ومع ذلك "فإن الذين يكتبون روايات سياسية يحرصون على الحدث والحركة، وأن تأتي الأفكار السياسية، متناثرة (لامحشودة في مكان واحد) على طول صفحات الرواية.

والأمر الثاني- أنها قامت على أفكار "مختلفة" فثلجي الذي هو يوسف الغزو يلخص أفكاره في النقاط الثلاث التالية:

١- أن مجاراة الواقع أمر ضروري. ولذا فصلح السادات مع إسرائيل هو خطوة سياسية "مقبولة". لأننا لسنا أقوياء لنوقف عدونا عند حده. ولأن الرسول الكريم قد أجرى معاهدتين إحداهما مع إليهود في المدينة والثانية مع قريش في صلح الحديبية. وصلاح الدين عقد صلحاً مع الفرنجة يسمى صلح الرملة.

(١) نشر المقال في مجلة الكاتب الأردني العدد ١/ ٢٠٠٤.

٢- أننا يجب أن نهتم بواقعنا الداخلي، ونطوره ونبنيه، لا بالعداء إلى أميريكا أو غيرها. فضعفنا هو الذي يطمع بنا عدونا، وليس اللوم راجعاً على عدونا وإنما هو راجع إلينا، إلى ضعفنا! ليس المهم رفع الشعارات وإنما العمل بصمت.

٣- الجماهير غوغائية يجب ألا يلتفت إلى شعارتها وإنما يلتفت إلى الحقائق التي ترسو على أرض الواقع الصلب. وسيأتي اليوم الذي يشعر فيه الناس بأنهم ظلموني: "أنا لا ألومك يا أخي. أما أنا فهذا قدري، وهذا رأيي لو كانت الأمة كلها ضدي، وقد يأتي اليوم الذي تشعر فيه أنك كغيرك، قد ظلمتني". ص ٢٢٦.

وأقول: ما ورد في الرقم الأول من ضرورة مجاراة الواقع فهذا، يجب ألا يكون إذا كان يتعارض مع المبادئ. ولو كانت مجاراة الواقع مما يؤخذ به وإن خالف المبادئ، لفعل ذلك رسولنا، في المرحلة المكية. إذا كانت قريش قوية والإسلام ضعيفاً، بل لأخذ به بلال بن رباح الذي كان يُلقى في الشمس الحارقة وتوضع صخرة على صدره، وهم يقولون له: قل: آمنت باللات والعزى وهو لا يقول: إلا أحد. أحد. ومثل بلال عشرات منهم عمار بن ياسر وأبوه وأمه. والواقع يراعى عندما لا يصطدم بالمبادئ، فإذا اصطدم بها، فلا.

أما الصلح الذي عقده الرسول الكريم مع بني يهود وآخر مع بني قريش" فمختلفان جداً عن صلح السادات مع بني إسرائيل اختلاف الضدّ لضده. فالرسول صالح بني يهود في المدينة لأنهم كانوا مواطنين وأهل كتاب" فلا ضير أن يبقوا على كتابهم على ألا ينصروا أحداً على المسلمين. فلما خانوا وناصروا الأحزاب كان في حِلٍّ من عهده لهم فأجلاهم عن المدينة. إذن، هو صلح القوي لا الضعيف كصلح السادات مع اسرائيل الذي لا يملك حولا ولا طولاً.

وصلح الرسول الكريم مع قريش كان صلح الذي يُعِد القوة لتصبح جاهزة للردع إذا خان العدو المعاهدة، ولهذا غزا الرسول قريشاً في السنة الثامنة للهجرة عندما نقضوا عهدهم فحاربوا بني خزاعة مع أحلافهم بني بكر تحت جنح الظلام. كان الصلح في السنة السادسة وكان فتح مكة المكرمة في السنة الثامنة. وليس كذلك صلح السادات الذي هو صلح الضعيف مع القوي صلح الذي يريد أن يتخلص من تبعات الحرب، مستسلماً للعدوّ وهكذا، صلاح الدين في صلح الرملة مع الفرنجة، كان لإعداد القوة التي يقهر بها العدو. وهكذا، تمّ لخلفائه تطهير أرض فلسطين من الإفرنج الغزاة.

ولا شك أن صلح السادات مع اسرائيل هو الذي أضعف الدول المجاورة وجعلها تجلس إلى طاولة المفاضات مع إسرائيل. لأن مصر هي أكبر قوة عربية، فخروجها من الصراع يعني كسر الجناح الأيمن للصقر العربي، فلم يستطيع أن يحلّق بجناح واحد، فانحط على الأرض والتصق بها، تاركاً لاءات الخرطوم الثلاث وراء ظهره. ولو ظلت مصر في الصف العربي لما حدث مفاوضات مع إسرائيل، ولكان الأمل في إعداد قوة تمكن من استرداد الأرض، أمراً قابلاً لان يكون واقعاً يوماً، ما.

إذن صلح الرسول الكريم وكذلك صلاح الدين من أجل إعداد القوة التي تشكم العدو، أما صلح السادات فإنه استسلام للعدو وخيانة لقضية العرب الأولى.

وما ورد في الرقم الثاني، يدل على قصر نظر أولاً -لأن البناء الداخلي لا يتعارض مع الشعارات ومع العداء لأمريكا. بل كيف يكون بناء دون شعارات؟ لأن الشعارات هي المبادئ التي نتوخى تحقيقها ولو بعد زمن طويل، إن العمل دون شعارات إنما هو خبط عشواء لاتعرف أين تضع قدمها. إن القرآن الكريم نصفه شعارات. أي: دعوة للإنسان لكي يعمل ويبني على هدي هذه الشعارات (= المبادئ) وإلا فكيف كان يمكن للعرب أن يخرجوا من عبادة الأصنام إلى عبادة الله تعالى؟ إن الرسول الكريم كان يحارب على جبهتين: جبهة الشعارات، وجبهة العمل وتربية الإنسان المسلم، متسلحاً بهذه الشعارات.

وإن معاداتنا أمريكا إنما تخلق لدينا إفرازات نفسية وفكرية تحصننا ضدّ نمط الحياة الأمريكية، وضدّ الفكر الامريكي الرأسمالي الذي يندفع نحو اللذة معتنقوه وإن كان حراماً، ويفرون من الألم وإن كان واجباً. والذي يتصارع معتنقوه لنهب المال تصارع الوحوش، بحيث تجَمّع المال في أيدي -٣٪ ويعيش على الأقساط -٨٠٪ وما بقي عاطل عن العمل ولا يجد ضرورات الحياة.

أمّا أن الكاتب يجب أن يتمسك برأيه -كما ورد في الرقم الثالث- وإن كان ضدّ رأي الجماهير، يقوم على نظرة "برجوازية" تتعالى على الجماهير، مع أن الكاتب قد يخطئ في رأيه- كما أخطأ ثلجي -على حين لاتكاد تُخطئ الجماهير لأن الرأي الجماعي غالباً لا يضلّ على حين يقع أن يخطئ الكاتب- الفرد -مراراً. إن هذا موقف مختلف يعزل المثقفين عن الجماهير.

ثم، إن المفكرين والمثقفين- غالباً –مترددون"كهملت"، فلا يجزمون أمرهم ويُقدمون. أما الجماهير فإنها –إذا آمنت بشيء تجزم أمرها وتقدم كما حدث في إيران عندما انطلقت الجماهير إلى شوارع طهران غاضبة، وذلك اضطر الشاه أن يرحل. وكما حدث بالأمس القريب في "جورجيا" إذ تدفقت المعارضة المسيسة إلى الشوارع واحتلت مبنى البرلمان وطردت منه الرئيس العجوز شفردنادزة الذي نوى أن يستدعي الجيش ليقتل الآلاف من أجل أن يستتب لهذا الرئيس العجوز، كرسي الحكم. ولكن الجيش أعلن عدم انصياعه لأوامر الرئيس، إذ أمروه، فاضطر أن يستقيل تحت ضغط الجماهير التي أدركت التلاعب في أنتخابات البرلمان، ولو أن المفكرين والمثقفين انعزلوا عن الجماهير، لما استطاعوا أن يغيروا شيئاً، ولظل عجوز يتربع على كرسي الحكم يدعمه برلمان مزيف مغشوش.

إذن –الكاتب نجح، روائياً، واخفق كصاحب أفكار لاتعباً برأي الجماهير، وقدّم هذه الأفكار بشكل جامد ميت يدابر الفن الروائي الذي يقوم على الحدث والحركة والتصوير، مما يجعل الأفكار المباشرة- على صورة محاضرة ونقاش يعقبها- نشازاً على الفنّ الروائي.

لقد اتبع الكاتب تكنيكاً ناجحاً في الربط بين الشخصيات الرئيسية في الرواية. تأتي الشخصية من خلال حدث، تغيب لتظهر بصورة اوضح في الفصل المعنون بأسمها. مثلاُ: فيروز هيكل شعبان، ظهرت في الفصل الأول بلمحة خاطفة، ثم عادت إلى الظهور بقوة في الفصل الثاني المعنون بأسمها، ثم ضلت تظهر في جميع الفصول الاخرى حتى الفصل الاخير. الفصل السابع الذي عنوانه: "الجدار" بحيث تجلت لها صورة مميزة لا تختلط بغيرها من الشخصيات النسائية التي وردت في الرواية.

ولعلّ هذا التكنيك أغنى فنياً من التكنيك الذي يجعل لكل شخصية فعلاً مستقبلاً لا يمر ذكرها في غيره، وهذا التكنيك شبيه بتكنيك رواية زقاق المدق لنجيب محفوظ. ولكن الرواية برئت من التقليد لنجيب. فهناك تلاق بين الروايتين، وهناك اختلاف بينهما في التكنيك وفي الموضوع والمضمون.

وقد ابدع الكاتب في تصوير حياة المقامرين، وما يجره القمار عليهم من خسران مالي، ومن سقوط همة، ومن قطيعه مع الزوجة والأولاد، ومن ذل يلحق ببعض المقامرين كما كان الحال مع هيكل شعبان زوج عبلة قابيل واب كل من الابن نورس والبنت فيروز هيكل الذي كان يقبل

قدمي المعلم قيصر صاحب القهوة لكي يحصل منه على نقود مقابل شيكات يوقع عليها، ثم أمسى تابعاً ذليلاً لقيصر. ولما عرف المعلمُ قيصرُ أن البيت والسيارة بأسم زوجته، أشار إلى ذيب جاروشة –تابعة- أن يرفع عليه دعوى بالشيكات فَزُجّ به في السجن، ثم تعود دخول السجن والخروج منه مراراً. وحاول أن يبيع ابنته –فيروز- إلى المعلم جاروشة مقابل مهر مغرٍ، ولكن الأمّ وخالا للبنت كانا صارمين فحال دونه ودون إمضاء هذا الزواج غير المتكافئ الذي هو أقرب إلى البيع منه إلى الزواج.

وابدع كذلك في تصوير حياة النشالين ومدمني المخدرات الذين يتعاطونها ويبيعونها على سقف السيل وكل منهم له دوره في الجماعة حتى كان منهم الفتوة والملوط الذي يتثنى كالنساء الدلع: حتى ساءلت نفسي: من أين لرجل محترم كيوسف الغزو أن يعرف حياة هذه الجماعة الفاسدة؟ ولكنني تذكرت نجيب محفوظ في زقاق الذي عرف المعلم كرشه صاحب المقهى الذي يعاشر الصبيان بدل النساء. وعرف زيطه صانع العاهات.

قال الكاتب في حوار بين مرزوق ونورس:

"- هيا معي.- إلى أين؟ إلى فيلا كحل الليل، ثم أشار إلى وقال:- نورس هيكل شعبان، تشرفنا، ولكن اسمه غير سياحي. اختر له اسماً يناسبه. فكر خفيف قليلاً ثم هتف:- ما رأيكم بأسم "عزوز لابس شوز"؟ نظر مرزوق إليّ مستمزجاً وقال:- ما رأيك يا أبا النوارس؟- موافق.

كانت فرحتي بعودة معاشي (يقول نورس) كافية للموافقة على أيّ قرار يتخذه مرزوق سناره وأركان حربه الذين سرعان ما توافدوا إلينا، واحداً إثر الآخر. وعرّفني على أسمائهم الحركية: خفيف كحل الليل نشال درجة أولى، حمدي أبو شاكوش قبضاي وقاطع طرق، وسالب ممتلكات بالقوة. وأخيراً كروان حيران. مخنث له كثير من المهام والواجبات اللوطية، وانتحال، صفة النساء عند الحاجة. قال مرزوق:

- رحبوا معي بزميلكم الجديد: عزوز لابس شوز. صفقوا بحرارة فنساءل كروان حيران: إنه ما يزال صغيراً ما رأيكم ان يعمل معي؟"ص- ١٣٦.

وعلى جودة الرواية ففيها بعض المواقف غير المقنعة. من ذلك ما يلي:

- ففي صفحة (٥٥) يرى أن الخطبة يجب أن تتم بعد التعارف لاعن طريق الأم. وأقول: هذا صواب ولكنه يقول: "فالأصل في هذه المسألة الإيجاب والقبول. وهو الذي يمكن الخاطبين من الخروج معاً وتعرف كل منهما على الآخر (ص – ٥٤). وأقول: لا تخرج فتاة مع شاب إلا وتحدث الملامسة والقُبل. ثم افرض أنهما لم يتفقا وفسخا الخطبة من يَرُدّ ما ضاع؟ الأصل أن يجلسا معاً وأن يتحدثا ولو قبل كتب عقد الزواج. ولكن في بيت ولي الأمر، وتحت إشراف مَحرَم بالغ عاقل حتى يقف الأمر عند مطارحة الآراء.

- وتقول فيروز: "صحيح أنه قد تمرد ذات مرة. ولكنه عاد فاستقام من جديد. وهل كان ما فعله قلبي –وهو عضلة غير ارادية- تمرداً؟ انه يخفق بغير إرادتنا ويتوقف بغير إرادتنا" ص ٥٨.

وأقول: القلب في الحب عضلة إرادية على حد كبير، إذ لا يحدث حب بغير توجه ورغبة في الحب. ضع عشر حسناوات عند صوفي قد فرغ قلبه من النساء فلن يُحبّ واحدة منهنّ. وضع امرأة متوسطة الحسن مع رجل يبحث عن حبيبة فإن قلبه سيعلق بها لحظة أن يراها ويطارحها الكلام والغرام.

- الآنسة فيروز وهي في المرحلة الثانوية تبحث عن عمل لتساعد أمها دون علم الأم، وتجد عملاً في مكتب محامٍ. وتظل الأمور عادية حتى يطلب منها العودة –يوماً- في المساء، ويكون سكران فينقض عليها ويمزق ثيابها وهو يحاول وهي تدافع عن نفسها حتى سمعا طرقاً على الباب، فأعطاها المفتاح واختبأ ففتحت الباب.فلم تجد أحداً فطلبت منه أن يخرج "ثم اقتربت منه وبصقت في وجهه" ثم انصرفت. ص ٦١.

أقول: أولاً: كيف لم تعلم الأم وفيروز طالبة في الصباح حتى الواحدة ثم في مكتب المحامي حتى الثامنة، أما سألتها أمها عن سبب تأخرها حتى الثامنة مثلاً؟

ثانياً: كيف بقي المحامي ملاكاً حتى تلك الليلة التي سكر فيها. العهد بالرجل إنه يبدأ بحركات خفيفة كلمس اليد ثم تزداد إنه موقف مفتعل غير مقنع.

ثالثاً: أن تدعوه فيروز وتبصق في وجهه فهذا تصرف لا يصدر من طالبة في الثانوية وإنما من امرأة جربت الرجال مراراً حتى وصلت إلى درجة الوقاحة وعدم الخوف من الرجال.

هذه مواقف ثلاثة غير مقنعة، ومثلها الملاحظات الأخرى التي سبقتها، وملاحظات أخرى لم نذكرها لعدم اتساع مقالة لها.

وهذا العمل الروائي على عمومه مبدع ومقنع وممتع. أما الهفوات فتوجد في كل عمل روائي أن لا تكثر، هنا لم تكثر.

رواية ثقوب في الجدار[1]

بقلم وداد الشيشاني

كالملك الصالح الذي يرى عيوب رعيته ولا يريد أن يحكمها بأصدار الاحكام والأوامر. أو كالجد الحكيم الذي يروي لأحفاده قصصاً من قصص الحكمة التي تلمح وتقول لهم ما يراه بعيداً عن اساليب الاوامر أو حتى الوعظ. أو كالأب الذكي الذي يدرك أنه لن يحكم ابناءه بالامر والنهي، فقرر تربيتهم بالحب أولاً، ثم بالقدوة الصالح ثانياً، واخيراً بتركيز الاضواء على كل ما هو خطأ أو خطر يجب أن لا يقترب منه الابناء واظهاره تحت الضوء كثقب يشوه الجدار، وكلنا نعرف أن الثقوب إذا كثرت في الجدار تضعفه كليا حتى ينهار، وماذا بعد الانهيار؟

ثقوب في الجدار رواية للكاتب الأردني الملتزم (يوسف الغزو) تؤرخ لمرحلة سيئة برأيي المتواضع. من القرن الذي رحل للتو أي من اواخر السبعينيات حتى اواخر الثمانينيات، وترصد عيوبها بالتفصيل، من خلال عدد من الشخصيات يقارب الثلاثين شخصية أهمها واصدقها وأكثرها الما هو الجدار.

تتنوع هذه الشخصيات تنوع أي مجتمع بين مثقف واع، ومتعلم أجوف، وكاتب ملتزم، وشاعر ساخر، ورجل حزبي متمسك بمبدئه رغم كل الخسارات وهناك مستوى آخر من الرجال وهم ضعاف الخُلق والإرادة، والانتهازيون من سلبيات ينتجون جيلاً أسوأ منهم ينخرون الجدار ليزيدوا من تشويهه وضعفه وثقوبه.

أما الشخصيات النسائية فهي رسم دقيق لحال النساء آنذاك.

فمن (نسرين أبو زهرة) المرأة المتعلمة المتدينة الموظفة الملتزمة والتي تنازلت عن الزوج الذي أحبته لأنها يئست من الالتقاء مع فكره أو حتى التماشي معه وأعادت له ابنته (خزامى) بعد أنتهاء فترة الحضانة الشرعية لديها.

(١) نشر المقال في مجلة الكاتب الأردني العدد ١/ ٢٠٠٤.

وأخرى هي (عبلة قابيل) التي ابتلاها الله بزوج ضعيف الإرادة بنساق لنزوة الغني السريع بوسيلة هي أقبح سوسة يمكن أن يُبتلى بها رجل وهي آفة القمار.

أما ابنتها فيروز فقد ربتها أمها، على التصميم والإرادة والصبر حتى تجاوزت كل ما قد يحطم حياة البنت بورقة وحيدة كانت في يد أُمها وهي ملكية البيت الذي تقيم فيه حيث كان ملكاً لها ورثته عن والدها. ولا أغفل هنا دور شقيقها (معروف قابيل) الذي كانت تجده سنداً معيناً لها في كل مشكلة تواجهها.

(فطنة) شابة عرض لنا الكاتب من خلال شخصيتها التافهة معظم مشكلات البنات التافهات وهن لا يأتين للحياة تافهات، وأنما هن حصيلة ضعيفة لما يرشح من جدار مثقوب.

فطنة لا تمتلك سوى شعر جميل، وصدر ناهد وساقين مغريتين هذه هي مقوماتها للحياة جعلتها كل سلاحها لاصطياد رجل فلم تفلح، مع إنه كان بإمكانها الاستفادة من (نسرين) زوجة شقيقها المتعلمة وشقيقها (فطين) المتعلم أيضاً لاكتساب ما يجعلها امرأة ذات فكر وشخصية واحترام من الجميع، ولكنها للأسف تاجرت بما هو زائل وكأن الكاتب يقول للبنات: ابحثن عن السعادة في جوهر الأشياء واسعين للهدف على أرض صلبة بدلاً من الانزلاق.

(خزامى) بنت فطين ونسرين عاشت عند والدها بعد أنتهاء مدة الحضانة الشرعية للأم بعد طلاقهما. بنت لا تحلم إلا بالزوج الغني وقد سلكت من أجله كل مسالك القذارة وفي النهاية لم تصل إلا لمحطة الندم.

وهناك شلة من النساء التافهات: سهاد، نوال، شادية، فاتن، ناهد، وهن صديقات خزامى وزوجات من يسمون برجال الأعمال يتسلين طوال النهار بالنكات البذيئة والنزهات الفارغة يلقين بمهمة (الأمهات) الهامة في بناء الأمة للخادمات ويتفرغن لتضييع الوقت والنفس والأسرة وكل ما هو جوهري ثمين في حياة المرأة.

وهنا وتلقائياً لا بد للقارئ من المقارنة بين نسرين وعبلة وفيروز من جهة – رغم الاختلاف في مقاومات شخصية كل منهن، وبين فطنة وخزامى وغيرهما من التافهات – وعلى اختلاف شخصياتهن أيضاً من جهة ثانية.

وهناك مقارنة أخرى تتقدم على شاشة عقل القارئ بين نموذجين نسائيين هما فيروز وفريـال، ونماذج شخصيات رجالية وهي شخصيات فطين ومعروف وبلال والمقارنة خاصـة بـين النـماذج التي تصنف متقاربة هي مرحلة متقدمة من مراحل التفكير، أراد الكاتب من خلالهـا أن يقـول لنـا الكثير فالتعلم والمبادئ وحتى المناصب لا تكفي لبناء وطن قوي.

أما زبدة ما يريد قوله الكاتب- حسب ما فهمت، للقارئ بعد تصوير دقيق لحال الأمة في كافـة نواحيها آنذاك (وما زال أكثر تدهوراً) هو ما يقوله على لسان الكاتـب الملتـزم "ثلجـي خـاطر أبـو فكره". والذي كانت له أفكار في كل مجالات الحياة، وكلها كانـت مثـار جـدل. وأمـا أكثـر ارائـه جدلاً فكانت في الشأن السياسي، حيث كـان يقـول رايـه بـصوت مـسموع وبقـوه بقبولـه بفكـرة السلام مع إسرائيل على اعتبار أن بديل أخرللامة حالياً. وقد تحدى الرافـضين الـذين لا يملكـون وسيلة الا الشتم واللعن. ويؤكد الكاتب من خلال شخصية ثلجي رأي العقل في مرحلة لا تملـك الامة الا ما فرض عليها، وهو ما قام به الرئيس المصري الراحـل(انـور الـسادات) فـاعتبره انـساناً صادقاً مع نفسه ومع امته وحتى مع عدوه وهي قمة الشجاعة برأيه.

وأخيراً دفع ثلجي ثمن صدقه كـما دفعـه الـسادات عـلى يـد شـلة مـن الأوبـاش والزعـران المأجورين.

الرواية غنية وقد اعتبرت "الجدار المثقوب" هو الوطن من ناحية والبيت مـن ناحيـة اخـرى، والارادة الانسانية من ناحية ثالثة.

عرىّ الكاتب في هذه الرواية كل فرد فنياً، حتى مَن يرى نفسه مثالاً، الرواية تعرضت حللـت كل ما يخطر على بـال الاحـزاب، الـسجون المقـاهي، المـدارس، الجامعـات، النـوادي، الاسـواق الشعبية، الشركات، مكاتب العمل، وحتى البيوت على أختلاف مستوياتها.

أما الثقوب التي تمكنت من رصدها ومنذ الصفحة الأولى فهي:

١-البطالة بكل ما تفرزه من فقر وفراغ وما يفرزانه بالتالي من مشكلات بل وجرائم.

٢-قلة القارئين وما ينتج عنه من جمود ثقافي في عقل الإنسان.

٣-القمار آفة تضيع الفرد والأسرة وتكون باباً تدخل منه كل المنكرات كما حصل مـع أسرة هيكـل في الرواية.

٤-العيش على اجترار الماضي رفض الواقع بدل العمل لبناء الحاضر والمستقبل.

٥-التمييز في التربية بين البنت والولد بتفضيل الولد فقط لكونه ذكراً وليس لأي خصلة أخرى.
٦- التناقض بين القول والفعل على كل المستويات من الشخصية وحتى أعلى مراتب القادة والمسؤولين.
٧- مفهوم (الخطبة) الخاطئ في مجتمعنا الذي يؤدي بالبنت إلى خيارين أحلاهما مر؛ فإما أن تنتهي الخطبة لتصبح البنت مطلقة (رسمياً) مع ما تحمله هذه التسمية من سلبيات ظالمة للبنت لا يشاركها فيها الرجل، أو استمرارها لتؤدي إلى زواج فاشل.
٨-النظرة المنقوصة لأهم قرار في حياة الإنسان وأهم مؤسسة لبناء المجتمع ألا وهو (الزواج).
٩- عدم قدرة الإنسان على طرح نفسه كما هو فيطرحها كما ينتظر منه الآخرون أن يكون، فتحدث حالة الفصام المتعبة للإنسان نفسه، والتناقض الذي يتعب به كل من هم حوله.
١٠- غياب الحوار بسبب الحواجز الكبيرة التي تُحرّم النقاش وتحول دون إطلاق العقل وأعمال المنطق. مثلاً مناقشة الكبار عيب، ومخالفة الوالدين حرام، صوت المرأة عورة، ألخ.
١١- الخلط بين خصوصية الإنسان ومستلزمات علاقاته بالآخرين وإهمال مبدأ (اختلاف الرأي يجب أن لا يفسد الود) خاصة بين الزوجين إذ أن الفكر المستقل يجب أن يغني الزواج ويثريه لا أن يؤدي إلى الطلاق.
١٢-الحكم على القضايا العامة والكبيرة من خلال مشكلة شخصية أو شعور خاص.
١٣- التأكيد على ما آلت إليه شخصية الإنسان العربي من الشك والتشكيك بكل من حوله وبكل ما يجري حوله من أناس وأحداث وعلى كل المستويات.
١٤- انسلاخ الفن عن واقع الأمة وهبوطه إلى الدرك الاسفل وتحول اهله إلى أناس ذوي سيكولوجية خاصة تميل إلى الانحلال الخلقي –للأسف، والجشع المادي.
١٥- النظام التعليمي الذي كان وما زال –رغم تحسنه حالياً، لايفي بحاجات الطلبة الاستثنائين بقدراتهم وانضباطهم سواء في التميز أو الهبوط، وهذا هو السبب الرئيسي في تسرب الطلبة من المدارس كما هو الحال مع (نورس وشلته المنحلين) طبعاً بالإضافة إلى أسباب أسريه واقتصادية كثيرة.

١٦- إنجاب الأطفال دون تخطيط أو تفكير بمستلزمات تربيتهم، وهذه المشكلة وإن اعتبرها الكثيرون قضية خاصة بالأسرة من خلال تفكير مراهق إلا أنها ليست كذلك بل هي مشكلة تعيق تقدم الأمة خاصة في دولة محدودة الموارد مثل الأردن، وما مشكلة نقص المياه والبطالة وازدحام المدارس والجامعات إلا دليل على تخلفنا في حلها.

١٧- ظاهرة الحيتان والتجار الجشعين واستغلال المناصب العامة التي تفرز طبقة الأغنياء، وطبقة الفقراء تتلاشى تدريجياً بينهما الطبقة الوسطى بازدياد الأغنياء غنى والفقراء فقراً، فيختل الوضع الصحيح للمجتمع ويؤدي به إلى مشكلات تنجم عن الحقد والكراهية والإحساس بالظلم والأنسحاق، وبالتالي إلى الجرائم التي يقال عنها حالياً (إرهاب) وأراها أنا شخصياً ثورة فكرية حسية تتطور غالباً لتصبح حرباً أهلية في محاولة لإعادة الاتزان لمجتمع اختل بالفساد والظلم إلى وضع كل إنسان في موقعه الذي يستحقه، والثورات في كل دول العالم خير دليل على ذلك وهو ما سيحدث يوماً في الوطن العربي وكل شعوب الدول المختلفة ونحن منها للأسف، وان أُطلق عليها تأدباً –كما يقول الكاتب، دول العالم الثالث.

١٨- التأكيد على أن الفراغ مفسدة، ولكن فراغ المرأة مفاسد لا تعد ولا تحصى.

١٩- مهما بلغ مستوى المرأة من العلم والثقافة والكفاية يجب أن يكون هناك رجل مسؤول عنها يتحكم بها ويقرارها في أخص خصوصياتها. هذه المصيبة أظهر بشاعتها الكاتب عندما جعل (فيروز) الإنسانية المثالية يتحكم بها والد مجرم وأخ وأزعر عندما قررت الزواج من شاب كفؤ محترم.

***

الجدار ذو الثقوب ما زال بثقوبه وقد مضى عقدان من آخر أحداث هذه الرواية. ثقوب المباني ازدادت وتضاعف عدد المدارس والجامعات بكمها، أما النوع فالنتائج ملموسة للجميع والشاهد الوحيد عدد الشهادات دون أي تقدم في عقلية الأمة.

فالجدار يزداد نخراً والثقوب تتزايد يوماً عن يوم وحالنا من سيء إلى أسوأ كما عرضها ثلجي في الصفحات ٢٣٩، ٢٤٠،٢٤١ أما الأمل الوحيد فهو أن نسمع صوت العقل ونبدأ ببناء جيل جديد منذ اليوم ليقطف الأحفاد ثمرة ذلك البناء لتعود أمة تقرر ما تريد وتفرضه بعد أن نعيد بناء الجدار من جديد.

تحليلي لهذه الرواية تحليل ينطلق من قراءة إنسان لا يتـذوق فنـون الأدب فقـط بـل مـن بـاب دارس وناقد ولا حتى عالم بتفاصيل فنون الرواية. ومع هذا فقد رايت فيها اقتطاعاً طبيعيـاً للوحـة تلقائية في مجتمعنا، ويمكن أن يحدث في أي حي من أحياء أي مدينة أردنية إذا لم تتدخل المعجـزات والأحداث الفجائية في تسيير أحداثها وأشخاصها وهذا برأيي يخدم الروايـة لتكـون مـصدقة مـن القارئ.

أما ما افتقدته في الرواية- للأسف- فهو تغيـب دور الأب الإيجـابي في أحـداثها وكيـف لـه أن يؤثر في حياة البنات.

تمنيت لو شاهدنا لوحة لحياة بنت ناجحة عاشت في كنف أب يؤثر إيجابياً في حياة ابنته.

إذ لم أر أن لفطين وهو الإنسان ذو العقل المفكر وصاحب المبادئ وذو التعليم العـالي أي تـأثير في حياة ابنته (خزامى) أو أخته (فطنه)، مع أنهـا كانتـا تحـسبان حـسابه ولـو قلـيلاً للانـضباط في سلوكهما، إذ شاهدنا في كل منها مثالاً للمرأة الثائهة الفاشلة.

مع أنني شخصياً أدرك تماماً دور الأب في حياة البنت وأكثر منه في الولد، سلباً أو إيجاباً.

رواية تستحق القراءة ثم التأمل ليبدأ كل منا بنفسه في ترميم الجدار حتى اذا وجـد أن الترمـيم من ناحية لن يجدي، هدم، فأعاد البناء من جديد، بأمل وجد وصبر وقوة، والله الموفق.

رواية ثقوب في الجدار[1]

بقلم: محمد سلاّم جميعان

من غير الانصاف قراءة رواية يوسف الغزو "ثقوب في الجدار" دون تقدير المسافة المضيئة التي انارت سبيله في الكتابه الروائية والقصصية. فقد صدرت روايته الأولى "الصديقان" عام ٧٦ ثمّ تلتها مجموعات قصصية: "البيت القديم ٨١/ الاختيار ٨١/ اللوحة وهي رواية قصصية ٨٢ تحوّلت إلى مسلسل تلفزيوني / وردة في الخريف ٨٧ مسافات ١٩٩٠" إضافة إلى عدد من قصص الأطفال. وهذا الثراء والتنوع له مسوغاته عند الغزو، فهو صاحب نهج خاص يدين بالولاء في فنه إلى المدرسة التيمورية في القصة، ويحافظ على الإرث الكلاسيكي لبناء الرواية العربية كما يصرّح في مجالسه ومقالاته الأدبية.

في هذه الرواية "ثقوب في الجدار" ينتشر العنوان مركزاً للبحث في الدلالات التي يتضمنها، وهي دلالات ضاجه بالواقعية السياسيه عبر محمولات اجتماعية. فالثقوب هي الاختراقات المفاهيميه ويخاصة الايدولوجيه التي فتّت بنية الجدار، بما هو حاجز وواق وكابح للمؤثرات التي تستهدف نسيجاً متماسكاً، وبهذا يضحي الجدار رمزاً للوطن ومنعته، كما يتبدى في شخصية "ثلجي أبو فكره" الذي يبرزه الغزو، حاملاً لنظرية خاصة في الادب والفن، انعكست بالتالي على موافقة السياسية في نهاية الرواية، بعد أن يتراسل بهدؤ مع قضية الحب التي جمعته بـ "فيروز" ضحية الفقر والقمع والتفكك لا سري. وبعد أن وقع شقيقها ووالدها في قبضة وتوجيهات "قيصر وجاروشه اللذين اغوياهما بتجارة المخدرات".

ثقوب في الجدار" رواية خاصة للحياة الاجتماعية والسياسية واوجهها المتبانية، مليئة بالدلالات التي ذابت وانعكست حتى في اسماء الشخوص الروائية، الذين تداخلت امكنتهم النفسية بأمكنة الحدث الروائي؛ إذ ان كل شخصية تنطق برواية في مساحتها الخاصة "كل

(١) نشر المقال في مجلة الكاتب الأردني العدد ١/ ٢٠٠٤.

شخصية تحمل عنوان فصل روائي، وتتفاعل بتحولات الحدث السياسي والاجتماعي، وبما يحمله الحدث من تناقضات وصراعات حفل بها مجتمع العاصمة عمان في مدة خمسة عشر عاماً (٧٩ - ٩٤). في هذا الزمان يقدم يوسف الغزو شخصية "ثلجي أبو فكرة" بوصفه شخصية تعيش خارج التناغم لامتلاكها "هويتها الحقيقية" فهو كاتب منفتح ليبرالي إلى درجة التقارب مع السلطة السياسية، ويسعى إلى تغيير المنظومة المفاهيمية عن الحبّ والأدب والسياسة، فيدخل في حوارات سلوكية ومعرفية مع "فطين عبد الغني" الشيوعي، ومع "معروف قابيل" القومي، وفي أثناء ذلك كله وبين سطور الرواية يطل الصراع الاجتماعي على امتلاك مقومات الحياة، وصراع رأس المال، وتوظيف القيم الرأسمالية في الاستئثار بالموارد الاقتصادية، واستغلال اخلاق المنفعة في الهيمنة على الاشخاص؟

يضع الكاتب "يوسف الغزو" الأحزاب اليسارية في امتحان عسير مع مفاهيمها فكما صنع ستالين للينين قبراً فرعونياً يدفن فيه أفكاره مع جثته فقد أدان الغزو الفكر اليساري من خلال شخصية "فطين عبد الغني" فوجّه إليه على لسان ثلجي أبو فكرة وفيروز إبنة أخته، ونسرين زوجته، التي تركته وطلبت منه الطلاق لإصرار على مبادئه الحزبية اليسارية، وجّه إليه كثيراً من الأخطاء والنواقص والانحرافات. ومثل هذا أيضاً يفعله في حكاية "معروف قابيل" القومي السوري عبر ثيمات واضحة ومفهومة يتقاطع فيها السرد والحوار مع أطياف العمل السياسي، حيث يتبّين لنا في خاتمة الرواية أن معروف يقتل "ثلجي أبو فكرة" لآرائه السياسة في مفهوم المواطنة وعملية السلام، ويتم القتل بواسطة "مرزوق سنّارة" أحد مدمني المخدرات ومروجيها. وهذا يدلنا على دلالات أسماء الشخوص الروائية، فقابيل، رمز للقتل منذ فجر الإنسانية؛ وسنّارة رمز للخطف والاغتيال واصطياد المخالفين، والتواطؤ على القتل بين اتجاهين متباينين إشارة واضحة للذرائعية السياسية التي سادت الحقبة التي تتحدث عنها الرواية وتصفها. وموت ثلجي ويده بيد "فيروز" التي كثيراً ما كانت تختلف مع خالها "فطين عبد الغني" تأكيد آخر على أن بالإمكان التحالف والتكاتف لواجهة القوى اليسارية والقومية، ولكن الكاتب لا يفصح إلى أين يمكن أن يفضي هذا التحالف الضمني بفعل زواج ثلجي من فيروز في نهاية الرواية، فعلى امتداد الرواية يلمس القارئ أن ثلجي أبو فكرة مؤيدٌ لعملية السلام ومن هنا تُثيرهذه الرواية جدلاً في

المفاهيم والآراء والاحكام، لا يغني عن قراءة تفاصيلها. فقد صيغ بناؤها الغني بإحكام، تجلى في الزمن الروائي الذي تحدّد في سطورها الأولى: "انقضى الشهر الأول من عام ١٩٧٩ منذراً بقحط شديد،" ص ١١، وهو زمن تصبح الشخصيات الروائية مفعولة له، واقعة تحت مستويات النص الزمنية، فالشخصيات تقع في آزمنة متعددة سابقة "حرب عام ٧٣" وأزمنة لاحقة "زمن معاهدة السلام" ليشكل النص الروائي في مجموعة الزمن الكليّ كما أن الشخصيات تتقاطع أزمنتها النفسية: "فثلجي أبو فكرة" يمثل الزمن الإغترابي بوجوده وأفكاره، و(نسرين) تمثل الزمن الغيبي ذي المحمولات الدينية المقدسة، و(فطنة"تمثل الزمن المنفلت بتحررها واستجاباتها المتكررة لنداء الجسد.

وتكتمل مشهديه الرواية بالدلالة على المكان الروائي المتقاطع في تأثيره وطبيعته بعناصر الرواية الاخرى، فله هو الاخر دلالاته النفسية والاجتماعية والسياسية. وتحمل أمكنة يوسف الغزو في هذه الروايات دلالات إجتماعية ساخرة (مقهى الأحلام السعيدة) وهو مقهى عابق بالصفقات المشبوهة سلوكاً واخلاقاً، حتى الأسماء الحقيقية (رابطة الكتّاب / مقهى الجامعة العربية) لا تخلو من نقد سياسي وتنويه باندثار الحلم.

ولا يغفل الغزو آليات تصوير المكان، فمرة يصفه بالحوار "مقهى الأحلام السعيدة" أو الوصف بالحدث "رابطة الكتّاب" أو التصوير باللغة الوصفية" الجامع الحسيني / جبل اللويبدة" كما أنه يحرص على الخاصية الافتتاحية المكانية منذ صدر الرواية "المكان هو عمان التي أرخت جدائلها على الكتفين،" ص ١١

سيقول القارئ بعد فراغه حين فراغه من صفحات الرواية (٢٥٥ صفحة) اتفق مع يوسف الغزو في الفن الروائي هنا، ولكنن اتحفظ على شخصية "ثلجي أبو فكرة" وطروحاتها.

قراء في رواية ثقوب في الجدار

بقلم: علي القيسي[1]

في رواية "ثقوب في الجدار" الصادره عن دار اليازوري للنشر والتوزيع، وامانة عمان تاريخ ٢٠٠٢ م. بمناسبة عمان عاصمة الثقافة العربية يتحفنا يوسف الغزو برواية مختلفة تماماً عما نقرأه من روايات وقصص في ايامنا هذه، ففصول الرواية تضج بالدراما الأردنية المحلية، وكنت حين تقرأ تحركات وحوارات شخوصها الذين لا ينفكون عن المناكفة تارة، والاستهزاء والتهكم تارة أخرى تجد انك تعيش مع شخصيات تعرفها جيداً وقد تتذكر فيما بين ذاتك اين رأيت هذه الشخصنيات وتحاورت معها؟

فالمكان حميم ودافئ هو عمان، وجبل اللويبدة، ومقهى الجامعة، الجامع الحسيني، والجامعة الأردنية، ومكاتب الشركات. التي تعج بالموظفين، وأيضاً رابطة الكتاب- خيمة الكتاب والشعراء والمثقفين.

وأما الزمان –فيعود إلى بدايات السبعينيات، من القرن الماضي، حيث حرب تشرين المجيدة، ١٩٧٣- وما تمخضت عنه، من أنتصار عربي، غير مكتمل، بسبب دخول أمريكا آنذاك الحرب، مع حليفتها إسرائيل، وانتهت تلك الحرب، بمعاهدات كامب ديفيد المشهورة، ومعاهدات السلام المتكررة الفاشلة، وخروج العرب من المواجهة، بقيادة مصر، وانتهاء عهد المد القومي العربي، وأحلام الوحدة، والحرية، والنصر، هذا من حيث البعد السياسي، والذي تشكلت في ظله أحداثٌ اجتماعية مكثفة دارت حول الشخصية المحورية، في الرواية، شخصية الكاتب "ثلجي أبو فكرة" يوسف الغزو، هذه الشخصية المثيرة للجدل، والتي تتمتع بنفس طويل، على المحاورة، للوصول إلى الحقيقة، بشتى الوسائل والطرق، إذ يتجلى فضول الراوي، ومتابعته الحثيثة لشخوص روايته، عندما يتدخل بتفاصيل شخصيات كثيرة، يحاول التقاطها وتسليط الضوء

(١) نشر المقال في مجلة الكاتب الأردني العدد ١/ ٢٠٠٤.

عليها، استخدامها كأنموذج، يبني عليه ما يفكر به ويتطلع ويحلم، لتجسيد الصورة التي يصبو إليها ويُريد من خلال أسئلته المتكررة والتي كثيراً ما تحمل طابع الاستجواب والتهمة، للشخصية مدار الحديث والحوار، وكأنه بذلك يُمثل دور الشرطي، أو المحقق. مثلاً، يحاول سُبر أعماق شخصية السكرتيرة، خزامى، بعد أن يتفنّن بذكر مفاتنها وطريقة كلامها، وذكره للأزياء والموضات، وتسريحة شعرها بإختصار شديد، فالراوي ثلجي، أراد أن يقول لنا في الفصل الأول من روايته: أننا لا زلنا في الثقب الأول من الجدار ككل، حيث البعد الاجتماعي وتداعياته، وأيضاً البعد السياسي، والمتضمن فترة الحزبية، بشخصية "فطين عبد الغني العربي" وكفاحه الحزبي الشيوعي منذ الخمسينيات من القرن الماضي، وتأثره بالرموز الشيوعية الاشتراكية التي ظهرت في الاتحاد السوفياتي، ودول أوروبا الشرقية، من أمثال ستالين وخرتشوف –وغيرهم، وانعكاس كل ذلك، على المواطن العربي الحزبي، وتناقض كل ذلك أيضاً، مع المجتمع العربي والإسلامي، الذي يرفض التيارات الفكرية الغربية البعيدة عن جذوره، وبيئته ومجتمعه، والتي تتعارض بالضرورة، مع السياسات والأنظمة السائدة آنذاك.

ويتطرق الكاتب، أيضاً إلى فترة هامة وتاريخية، من حياتنا السياسية، حيث كانت تلك الفترة، من أصعب الفترات التي مرت بها الأمة العربية على الاطلاق وهي احتلال إسرائيل للضفة الغربية من الأردن، وصحراء سيناء من مصر والجولان السورية، وبعض أجزاء من جنوب لبنان، وهي فترة –حرب حزيران المشؤومة، أو ما يسمى النكسة، وهذا مفصل تاريخي حاسم في التاريخ العربي الحديث، ما زالت الأمة، تدفع ثمن تلك الهزيمة أو لنقل الكارثة، إلى أيامنا هذه.

وفي ظل هذه الكارثة وتداعياتها على الإنسان العربي، تمخضت بسبب تلك الظروف، ثقافات اجتماعية مختلفة انعكست بالنتجية على الأفراد والجماعات، بسبب النزوح السكاني الكثيف، وما رافقه من أوضاع اجتماعية، واقتصادية، وسياسية، كانت بمثابة الزلزال الذي طال كل من في منطقة الشرق الاوسط، وعمل على تغيّر الكثير من المفاهيم والعادات والتقاليد السائدة آنذاك، بسبب تأقلم المجتمع مع تداعيات ذلك الزلزال، وما أفرزته ظروف الاحتلال الاسرائيلي، من بؤس وشقاء وعذابات وحرمان. وتغيّر في الاسلوب والمعاناة وضغوط الحياة، ما بعد الهزيمة العسكرية والسياسية والاقتصادية والإجتماعية، وحالات الإحباط العام والاكتئاب والامراض

النفسية، التي اصابت الشارع العربي بالصدمة والذهول، وأصبح غير مصدق لما يجري في مجتمعه وحوله من تطورات سلبية، متناقضة، وانفصامية، على صعيد المجتمع والفرد سواء بسواء، وأمسى يهرب من واقعه المأساوي الصعب الثقيل – على أجواء من الفرح الكاذب، والشعور بالسعادة المزيفة، نتيجة إقبال البعض على التدخين بشراهة، وتناول الكحول، والتنفيس عن الذات، بأحلام اليقظة، في التخيل والتصور والوهم والحلم، بعيداً عن الواقع المر وهروباً من الذات، إلى عوالم من الفرح الكاذب وذلك لمحاولة تغطية الواقع المتشظي الذي يعيشه المواطن العربي آنذاك، من الهزيمة والإحباط والانكسار.؟

إذن فالراوي يوسف الغزو "ثلجي أبو فكره" في الرواية يحاول ترجمة ما يمور في صدور الناس، وما يعتلج في صدورهم ورواحهم من ضيق واضطراب شرود وارتباك، لما آلت إليه حالهم واحوالهم في فترة زمنية مهمة من حياة المجتمع الأردني، خصوصاً من مجتمع زراعي وقروي وبدوي، إلى مجتمع حضري شيئاً فشيئا، مروراً بطفرة ما يسمى "بالسبعينيات". وهي طفرة بيع الاراضي وارتفاع اسعار البترول العالمية، وتوفر السيولة النقدية بشكل ملفت بين يدي الناس، مما حدا بهم إلى شراء السيارات الفخمة، وبناء الدور الجميلة، وانتشار ظاهرة المكاتب العقارية آنذاك، وأيضاً ظاهرة أنتشار الشركات التجارية، وما رافق ذلك من حركة اقتصادية شاملة، طالت كل المواطنين، فاختفت مضاهر البطالة، وتقلصت أيضاً حالات الفقر، وأصبح إيجاد فرصة عمل للشخص، مسألة في غاية السهولة، مما فتح الباب على مصراعيه، للعمالة الوافدة، إلى أيامنا هذه، بالرغم مما أصاب الاقتصاد الأردني، من خسائر فادحة بعد طفرة السبعينيات من القرن الماضي.؟ ودخول حقبة أو عقد التسعينيات.

فالروائي يوسف الغزو اعتمد في سرده لغة شفافة مرنة لغة سلسلة واضحة معبرة عن الفكرة اصدق تعبير. وكان منسجماً بذلك مع روح الحوارات ونصوصها وشخوصها، والتي أضفت على هذا العمل الادبي القيّم، المزيد من الدهشة والاعجاب. ومتابعة فصول هذه الرواية بشوق واهتمام. ولدى تقيمي للصورة من مختلف جوانبها وزواياها نلاحظ أن الدرما في هذه الرواية اقرب إلى السخرية الممزوجة بالتشفي والالم، منها إلى العمل الجاد لمواجهة الحياة بالعمل والأمل والعزم والإصرار..

عن رواية اللوحة[1] ليوسف الغزو

بقلم: د. نبيل حداد [2]

لعل من أبرز الروايات الأردنية في الثمانينيات خدمة لغرض خارجي هي رواية يوسف الغزو "اللوحة" فالرواية تسخر من نفسها لتمجيد قناة الغور الشرقيه (قناة الملك عبد الله الآن) وهو من المشروعات الحيوية حقاً على الصعيد الاقتصادي، لكن المؤلف رأى أهميته تنسحب على الصعيد الفني. فقد طغى تأثير السرد الاخبارى على "أدبية" الرواية بصوره يصدق عليها قول محسن الموسوي[3]: "فإذا كان فن الإخبار الوسيط ممهداً جزلاً لفن الكتابة القصصية، فإن أساليب الإخبار المعاصرة خاضعة لمواصفات التوصيل المختلفة، التي تجعل الغاية متحكمة أساسيه بهذه الأساليب: وغالباً ما تصبح سيادتها في الفن القصصي إنهاكاً مستمراً للأدب والواقع أن لغة المؤلف إعلامية، ولعلنا لا نجازف حين نزعم أن بعض مشاهد "اللوحة" قد أعد بذهنية تلفازيه - إن صح القول - بحيث أصبحت البيئة، في هذه المشاهد، تقوم بدور الديكور في المسلسلات التلفازية.

تصور الرواية الشاب المثالي فريداً، وقد راح يحلم بهدفين مترابطين: واحد شخصي والأخر عام. لقد أنهى فريد لتوه دراسته الثانوية، والمألوف لمن كان في وضعه في الخمسينيات أن يكمل تعليمه، أو يبحث عن عمل، لاسيما أن شهادته تكفل له فرصة عمل لا بأس بها. لكن فريد كان يفكر في مستقبله بطريقه خاصة، هدفه الأكبر في الحياة إنجاز لوحه فنيه معالمها في خياله، ولكن هذا ليس كافياً، بل لابد حتى تتحقق للوحه شروطها الاساسيه أن تنقل عن أصل حقيقي، وهذا الأصل، الذي يأمل أن ينقل عنه هو قناة تشق الغور من شماله إلى جنوبه فينعكس هذا خيراً عميماً

---

(١) صدرت هذه الرواية عن رابطة الكتاب الأردنيين، عمان ١٩٨٢م

(٢) نشر المقال في كتاب الرواية في الأردن تحرير د. شكري ماضي ود. هند أبو شعر.

(٣) محسن الموسوي: الرواية العربية؛ النشأة والتحول، منشورات مكتبة التحرير، بغداد، ١٩٨٦م، ص ١٦٤.

على المزارعين الفقراء الذين أضناهم تقلب المواسم واعتمادهم على الزراعة البعليه. هكـذا يمتـزج الهدفان إذن. ومن حسن حظ فريد أن إنهاءه لدراسته توافق مع البدء في تنفيـذ المشروع. فيـضرب عرض الحائط بنصائح والده وأخيه لكي يعمل مدرساً أو يلتحق بالجامعة ويصر على العمل كاتبـاً بسيطاً في المشروع ليتسنى له الإسهام المباشر في تحقيق الحلمـين: القنـاة واللوحـة: "كـان يغمـض عينيه فيتخيل الإمطار لا تنقطع. ثم يغمض عينيه فيتخيل الينابيع الصغيرة وقـد أصـبحت أنهـاراً، والبرك الصغيرة التي يقيمها المزارعون للتحكم في المياه وقد أضحت بحـاراً. وحـين يفـتح عينيـه يصطدم بالواقع المرير: الإمطار شحيحة، الينابيع جافه أو شبه جافه، فمتى سيرسم لوحته؟.. هـل يكفي أن يغمض عينيه ويتخيل ثم يرسم؟.. حتى لو استطاع أن يرسم فما جدوى الـصورة بـدون أصل؟ هكذا إذا يؤدي "الغرض الخارجي المسبق" إلى إقحـام مـشكلات البيئـة في العمـل الفنـي دون مبررات فنيه كافيه، أكثر من هذا فإن النص السابق يغالط في إحدى بديهيات فن الرسم وهـي أنه من الممكن رسم اللوحة الجميلة، ومن الممكن أن تؤدي هذه اللوحة دورهـا دون أن يكـون لهـا أصل مجسم على أرض الواقع.

على أن تأثير الهدف الخارجي لم يكن سلبياً بالكامل. فقد أفرخ هذا الهدف فكـرة تـسيطر عـلى العمل، أستطاع المؤلف أن يحافظ عليها متماسكة، هذه الفكرة هي: سعى الإنسان لآن يـصنع بيئتـه بيديه، وقد راح المؤلف يثري هذه الفكرة بكثير من المواقف والـصور الجزئيـة؛ فالـسفح الأخـضر الذي يزرع بالخضار يعتمد على خزان مياه غير كاف، والطين الجاف المترسب في قاع الخـزان يـشير إلى أهمية التخلص من هذه الوسائل البدائية في الزراعة، ذكريات الطفولـة بـدورها موظفـه لخدمـة الفكرة، إذ ما زال فريد يذكر كيف كاد يغرق ذات يوم عند محبس خزان المياه، لذا، فلن تكـون ثمـة حاجه لهذا المحبس بل للخزان كله بعد أنجاز القناة العتيدة.

تعرض شخصية فريد الحالمة بإزاء شخصية عواد التي أرادهـا المؤلـف –فـيما بعـد يبـدو - أن تكون نقيضاً لشخصية فريد، أن عواد أمي في حين أن فريد مـتعلم، وهـو جلـف إزاء أدب شـقيقه وكياسته، وعواد قاسٍ لا يرحم على العكس من شقيقه، لكن التي جاءت عليها شخصية عواد قـد لا تتفق تماماً مع الطرح السابق؛ إذ يبدو هذا الجلف القاسي أكثر صدقاً مع نفـسه ومـع واقعـه مـن أخيه، وربما كان عواد البطل النقيض الإيجابي للرواية لا البطـل النقـيض الـسلبي، تقـول الروايـة:

كان (عواد) مثل أخيه فريد يتمنى أن تهطل الإمطار وتسيل الأنهار ولكن لا ليرسم لوحه، ولا ليجمل وجه الحياة، بل ليعطي للحياة ديمومتها ويبعث فيها عناصر البقاء، ويبعد عنها شبح المجاعة الرهيب. والحقيقة أننا لا يمكن أن نفضل بسهوله ذلك يزين الطبيعة على الورق على ذاك الذي يبث الحياة في الأرض، أكثر من هذا فإن عواداً على صرامته، وضآلة تعليمه، يبدي وعياً أكثر من شقيقه حين أراد له أن يصبح مدرساً أو طبيباً أو مهندساً يخدم أهل بيئته عوضاً عن أن يعمل كاتباً لا يقدم ولا يؤخر شيئاً في مشروع ضخم. إن آمال عواد أكثر صدقاً مع واقع البيئة من أحلام شقيقه التي رسم مستقبله على أساسها.

يقوم الحدث الروائي على خطين رئيسين؛ الخط الأول يمثله تطلع فريد لتحقق حلمه العام بإنشاء القناة وسعيه لتحقيق حلمه الخاص برسم اللوحة على النحو الذي رأيناه، أما الخط الثاني فتمثله علاقة فريد بابنة سمعان (سحر) صاحب المقهى. وفي هذه العلاقة مكامن ضعف خطيرة في العمل نجمت عن مجاوزات الرؤية الفنية لأعراف البيئة وتقاليدها. كما أن تعدد الصدف والغرائب والتناقضات كلها أمور جاءت على حساب الحبكة المقنعة، والصنعة الخفية والصدق الفني.

تعود علاقة فريد بسحر إلى أيام الطفولة، حيث كانت رفيقة صباه، وتتجدد هذه العلاقة صداقة قائمة على الاحترام المتبادل حين يعود فريد إلى الغور بعد إتمام دراسته.

لكنه يجد أمامه هذه المرة فتاة ذكية ناضجة تقرأ لطه حسين والعقاد ولأدباء عالميين كبار. وتسير العلاقة بين الاثنين في تفاهم وتلاق فكري. ثم تتقدم الأحداث خطوة فيتقدم "عليان" مساعد سائق الحافلة لخطبة سحر، وترفض سحر. هنا تعرض علينا الرواية مواقف غير مقنعة ولا تتلاءم مع بيئة العمل. فكيف نستطيع أن نصدق أن سمعان، والد الفتاة الواعي، يوسط شاباً لم يجاوز سن المراهقة إلا القليل لإقناع ابنته بقبول "كمساري" زوجاً لها؛ وهي، في جمالها وعملها وثقافتها تستطيع أن تحظى بسهولة بفرصة زواج متكافئ؟، على آية حال فقد جعلت الرواية من هذه "المهمة" وسيلة كي يبوح كل من فريد وسحر بمشاعره للآخر، وليتفقا على الزواج في النهاية.

وثمة خط جانبي يمكن أن نعده متفرعاً عن خط علاقة فريد — سحر، ويتمثل هذا الخط في علاقة فريد بنعيمة وهي صاحبة فندق اعتاد على النزول فيه كلما حل في عمان. وقد نشأت علاقة

مودة وتفاهم بين فريد ونعيمة أساسه تعلقهما المشترك بفن الرسم، ثم تسفر الأحداث عن مفاجأة لا يتوقعها أحد: إن نعيمة هي زوجة سمعان السابقة وأم سحر، وقد انفصل الزوجان بعد فضيحة أخلاقية كانت الزوجة فيها بريئة وضحية سوء فهم. سمع فريد بقصة نعيمة في الوقت الذي كان ينزل فيه الفندق مع خطيبته، فيتحول موقفه من نعيمة إلى النقيض: يرفض بيع لوحته العتيدة إلى نعيمة بعد أن كان قد اتفق معها قبل رسمها على أن تشتريها منه لتعلقها في مدخل الفندق، ويحجب خطيبته عن نعيمة بكل الوسائل، وسرعان ما يهرب من الفندق مع خطيبته ذعراً من ماضي نعيمة وخوفاً من أن يلوث هذا الماضي خطيبته، وهكذا تتبخر في ساعة واحدة مثالية فريد ومفاهيمه التي ضحى لأجلها بمستقبله مفضلاً العمل كاتباً بسيطاً في المشروع –لغاية مثالية –على العمل مدرساً أو موظفاً مرموقاً.

لا نستطيع أن نجد أي شكل من أشكال التفاعل الصادق بين الشخصيات والبيئة، إن انتماء الشخصيات إلى المكان انتماء حالم عند معظمها، وأحياناً نشعر بأنه مفروض، ولنأخذ أولاً شخصية سمعان والد الفتاة، فنحن نراه يعيش بين الفلاحين واحداً منهم، لكننا لا نستطيع أن نفهم كيف يشجع ابنته من طرف خفي على علاقتها مع فريد (على الرغم من أن المؤلف يمهد لذلك بكون سمعان غير مسلم)، في الوقت الذي يوافق فيه على زواجها من عليان مساعد السائق، وقبل ذلك كان سمعان نفسه هو الذي هجر بيئته الأولى وهدم بيته وقوض أركان أسرته لمجرد شبهة غير مؤكدة لحقت بزوجته.

وكذلك الأمر مع سحر، فلقد جاءت إلى الغور طفلة صغيرة، فنشأت بين أهله، ضمن أعرافهم وتقاليدهم، كما تلقت تعليمها في "قرى" مجاورة، ولكنها، على ما يبدو لم تكسب شيئاً من هذا كله. فهي تعيش حياة ابنة أهل المدينة المنطلقة. دون أن تعرف مصادر تأثرها بهذا النمط من الحياة ودون أن تكون لها أم تأخذ عنها هذا النمط.

مقال على الانترنت - شبكة الزرقاء الإخبارية
عن الندوة التي أقامتها وزارة الثقافة واتحاد الكتاب
يوم الاثنين الموافق ١٦/ ١١/ ٢٠٠٩ م

بحضور مدير الثقافة الأستاذ نعيم حدادين وباقة من المثقفين ومقدم الامسية الأستاذ عماد عصفور قدم يوسف الغزو شهادته الخاصة عن تجربته الروائية. فقد أثرى المكتبة العربية بمجموعة نذكر منها رواية الصديقان، اللوحة، ثقوب في الجدار، قطر الندى، وغيرها بالإضافة إلى مجموعات قصصية ومسلسلات تلفزيونية وإذاعية في مجال الدراما، وذكر ابن قرية (الوهادنة قضاء عجلون) مجموعة من التعريفات للرواية اذكر منها ما قاله الكاتب الانجليزي (ادوارد موركن) أن الرواية هي كتلة هائلة عديمة الشكل ومنطقة كثيرة الرطوبة ترويها ألاف الجداول لتصبح مستنقعا، وأما حسب يوسف الغزو فأن الرواية حالة حياتية مصورة بقلم كاتب عاشها وتأثر بها وهي رصد للحالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ومن هذا التعريف انطلقت روايته (الصديقان) التي ركز فيها على مرحلة الخمسينات وحالة المرأة في الريف والمدينة ورصد الاختلافات الاجتماعية التي واكبت هذه الفترة والتي قررت كمادة لا منهجية لطلاب كلية الآداب في الجامعة الأردنية، ويعتبر الغزو أن الرواية توثيق لتاريخ المجتمع ومن هنا جاءت روايته (اللوحة) فهي تصف الحالة الاجتماعية الاقتصادية مع طغيان الجانب الفني مع تتبع أسلوب الإخبار وجاءت لغة المؤلف فيها إعلامية وذات مشاهد تلفازيه، فيوسف الغزو يؤيد وجود شخصية الكاتب داخل الرواية وقد جرى نقاش حول الحداثة إذا يعتبر يوسف الغزو ان الكتاب الذين اغرقوا أنفسهم بالحداثة جاءت أعمالهم بما يشبه الهلوسات وقد أيده في هذا الشاعر محمد سمحان وعارضه فيها الشاعر عبد الله رضوان إذ يأسف يوسف الغزو من أن ريح الحداثة أصابت العربية إصابات قاتلة، وهو مؤيد للحداثة لكن ضمن المعقول وعدم تجاوزها وتقديم أعمال مبهمة للقارئ العربي.

رأيان في قصتين قصيرتين ليوسف الغزو

بقلم

الأستاذ الدكتور محمد المجالي[1]

١- قصة الشيء:

تحدث القاص يوسف الغزو في قصته "الشيء" عن الاثر الذي يتركه الحب في التعامل مع الاشياء من حولنا. فبطل القصة سالم يعود الى القرية بعد طول غياب ليجد ان كل شيء قد تغير وان ثمة شيء واحد يعود اليه السرور ويبعث لقلبه الاطمئنان والامل. انه سعدى الفتاة التي كان قد خفق لها قلبه بالامس. كان ذلك بالامس وها هي اليوم تقذف حوله بسهامها اللذيذة من جعبا لا تنضب. وخفق القلب كما خفق بالامس ومضت سعدى الى بيتها وواصل هو طريقه الى بيته الا انه توقف فجأة وضرب جبهته براحة يده وهتف: لقد عرفته، عرفت ذلك الشيء الان، نعم لقد عرفته.

لقد استخدم القاص لغة رائعة وعبارات شفافة وتشبيهات بديعة وسرد مشحون بعنصر التشويق الذي يشد القارئ من اول القصة حتى نهايتها.

٢- قصة البحث عن الكنز:

اما القاص يوسف الغزو فقد اشار الى هذا الموضوع " البحث عن الكنز" وبأسلوب ساخر من خلال تقديمه لثلاثة مناهج مادية ايضاً. لكنها في هذه القصة تشترك في صلة القربى فهم اخوة جميعاً، مات والدهم وهو يحدثهم عن الكنز الموجود في ارضهم دون ان يحدد لهم ماهية الكنز. فأخذوا يحفرون الارض يومياً لمدة عام كامل دون ان يجدوا شيئاً ثم تبين لهم بعد ذلك ان الكنز الذي قصده الوالد هو الارض من محاصيل مختلفة:

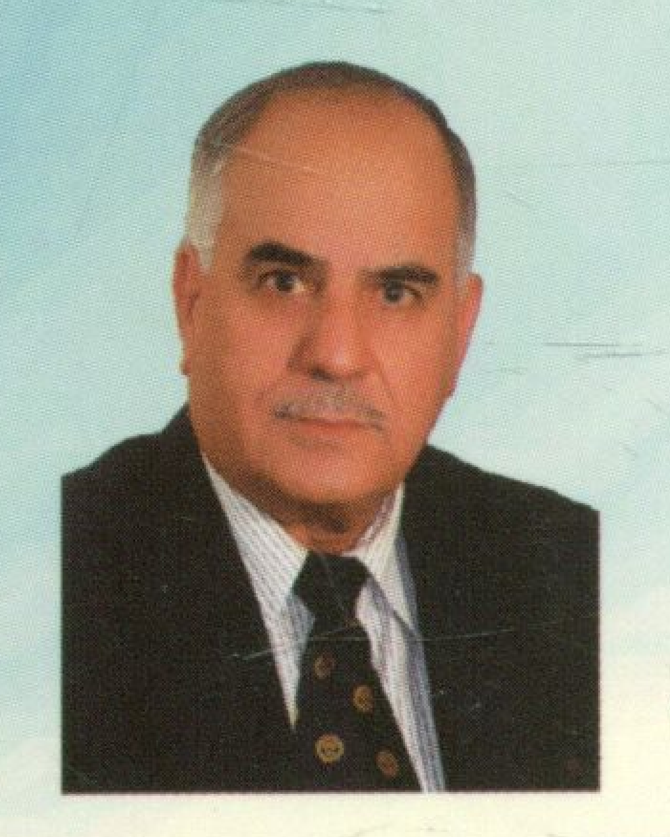
أضحى هذا القرار برنامجهم اليومي المعتاد وكان يحملون معاولهم ومجارفهم ويتوجهون الى الارض ويحفرونها، وهم الذين لم يكونوا يفعلون ذلك. فكر احدهم باستئجار عدد من العمال يعانوهم في عمليات البحث لكنهم سرعان ما اقلعوا عن هذه الفكرة وعلى الرغم من عمق المضمون في هذه القصة الا ان القاص كثيراً ما كان يميل إلى التكرار والوصف والابتعاد عن التركيز حول الفكرة الاصيلة.

---

(١) من كتاب دراسات في الادب الاردني المعاصر المطبوع بدعم من وزارة الثقافة.

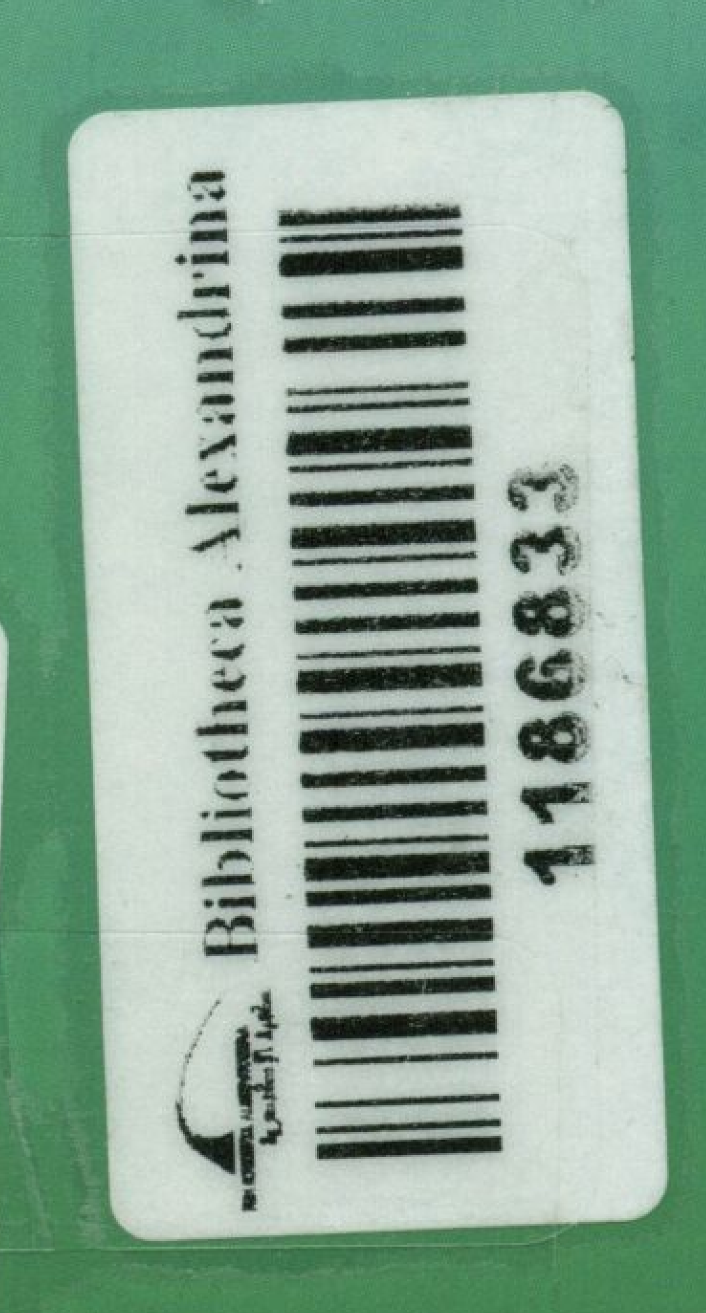
كتب أشارت إلى عابر سبيل

١ - كتاب صادر عن دائرة الثقافة والفنون
٢ - كتاب لمحمد المشايخ صادر عن رابطة الكتاب الاردنيين.
٣- كتاب صادر عن اتحاد الكتاب والادباء الاردنيين.
٤ - معجم الادباء الاسلاميين المعاصرين - ثلاثة مجلدات-
٥ - اقحوان على ضفاف النهر - يوسف حمدان-
٦ - معجم الادباء الاردنيين - وزارة الثقافة-
٧- ادباء كتبوا للاطفال - وزارة الثقافة-
٨- ثقافة الاطفال في الاردن - روضة الهدهد وطه عثمان-
٩ - دراسة في الادب الاردني المعاصر - د. محمد المجالي.
١٠ - الرواية في الاردن - د. شكري ماضي ود. هند ابو شعر.
١١ - رسائل من ركس العزيزي وآخرين - يوسف حمدان.
١٢ - ادب الطفل الاردني - امانة عمان.
١٣ - المعالم الثقافية والحضارية المعاصرة في الاردن - صورة المجتمع في القصص الاردني.
بحث للدكتور سالم المعوش عن الصديقان - كلية الاداب والعلوم الانسانية في الجامعة اللبنانية صيدا - لبنان والذي قدم في ملتقى عمان الثقافي العاشر المنعقد في المركز الثقافي الملكي في عمان ٢٤/ ٨/ ٢٠٠٢. وقد نشرت وزارة الثقافة اوراقه في مجلدين.



يوسف الغزو

- من مواليد قرية الوهادنة - محافظة عجلون 5 نيسان 1945م
- عضو رقم 19 في رابطة الكتاب الأردنيين سنة تأسيسها 1974م
- عضو مؤسس في إتحاد الكتاب والأدباء الأردنيين 1987م
- أمين عام اتحاد الكتاب والأدباء الأردنيين 1995 م
- رئيس لجنة العضوية في اتحاد الكتاب والأدباء الأردنيين 1993م
- أمين سر الرابطة الوطنية لتربية وتعليم الأطفال 1991م
- حائز على ميدالية الحسين للتفوق الأدبي في مجال القصة القصيرة 1995م
- بدأ الكتابة في مجال الدراما الإذاعية 1973م
- بدأ الكتابة في مجال الدراما والبرامج التلفزيونية 1977م
- كتب القصص الإذاعية وأذيع بعضها من عمان ومن محطة الـBBC في لندن
- بدأ الكتابة للأطفال 1989م حينما صدرت مجموعته الأولى " تفاحة آدم"
- أسس داراً للنشر تحت اسم " دار الغزو للنشر والتوزيع" 1990م
- اختارت وزارة التربية والتعليم اثنتين من قصصه القصيرة لمنهاج الصفين الرابع والثامن من عام 1995م وحتى عام 2005





دار يافا العلمية للنشر والتوزيع
الأردن - عمان - الأشرفية
تلفاكس ٠٠٩٦٢٦٤٧٧٨٧٧٠
ص.ب ٥٢٠٦٥١ عمان ١١١٥٢ الأردن
E-mail: dar_yafa@yahoo.com